

المحيط

الإنسان والكون والحياة

رجائي عطية





أسرة المرحوم الدكتور / السيد عبد الحليم الزيأت
جمهورية مصر العربية

سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دارالاحلال



الأصدار الأول يونيو ١٩٩١

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهيد

رئيس التحرير

مجدي الدق

المستشار الفنى

محمد أبو طالب

مدير التحرير

عادل عبد الصمد

المدير الفنى

محمود الشيخ

سكرتير التحرير

أحمد شامخ

الإدارة

القاهرة - ١٦ شارع محمد
عز العربى بك (المبتدیان سابقا) ت:
٧٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) ، المكائنات:
ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة -
الرقم البريدى ١١٥١٦ - نشر الجوى:
الصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس:

Telex 92703 hifal sa n

فاكس:

FAX: 3625469

العدد ٦٥٨ - رمضان ١٤٢٦ هـ - أكتوبر

(تشرين الأول) ٢٠٠٥ - توت ١٧٢١ م

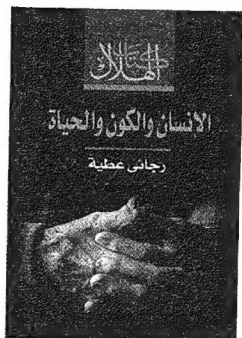
ثمان
النفقة
٧ جنيهات
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١.٢٥٠ لىسا - السعودية
١٢ ريال - البحرين ١.٤ دينار - قطر ١٢ ريال - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١٠.٢ ريال -
اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٢.٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات

البريد الإلكتروني: darhilal @ idsc. gov. eg

الإنسان

والله أكبر من أن نألفه والحياة

رجائي عطية



الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

تقديم

ما من آدمى إلا وهو مشدود إلى ذاته ، يفكر من هو ؟ وكيف كان ؟ وإلام س يكون ؟! ما موضعه فى هذا الكون المعجز للأفهام ؟ وما سبيله فى هذه الحياة التى يأتيناها غير مخيرٍ ويغادرها فى أجل محتوم ؟!

حول الإنسان ، والكون ، والحياة ، تدور هذه الخواطر التى تشغل الادمى العاقل حيث كان .. الإنسان مجهول إلى ذاته ، يريد بمعرفة نفسه أن يلتحم مع حاضره وأن يستشرف مستقبله ، وأن يكون لحياته معنى .. إن حياة الأحياء ومن بينها البشر ، نظام كونى إلهى جليل جداً ، يجمع بين شدة البساطة وشدة التعقيد والتركيب .. مهما بدا لنا من المعرفة والفتانة والذكاء ، فإننا لا نرى ما يحفل به الكون والحياة إلا من ثقب ضئيل جداً .. شديد الضالة ، ومن زاوية بالغة السطحية !

فهل نستطيع فهماً أعمق للإنسان ، والكون ، والحياة ؟

رجائي عطية

تنمية الأمان . بغرس الإيمان

الالتفات الجاد ، خاصة تلازم الأدمى باستثناء الشواذ والكسالى وغير المباليين ، وهذا الالتفات الذى يحرص عليه الأدمى ، ويبدل له كل ما يستطيعه من الشحن والتركيز والعناية والتبصر والفطنة والانتباه ، يخطو بوعينا وفكرنا واهتمامنا خطوات تتجاوز دائما " اللحظة " و " اليوم " إلى نظرة أو توقع لما هو قابل ، هذا التوقع قد يلتزم الحكمة والصواب والتوفيق والسداد ، ولكنه يمتد بالضرورة إلى ما هو حسن يومئ بالخير والرضى ، أو غير حسن ينذر بالشر والعبوس .. ويلزمه ما نتصوره أو نتوقع حدوثه فى المستقبل القريب أو البعيد ، شاغلين أنفسنا وأماننا بالتوجس بما سوف يأتى به الغد من المخبوء (المتوقع) فى رحم الغيب ، بينما هذا التوقع قد يصيب وقد يخطئ ، وقد يحدث أو لا يحدث قط وفق سير الأمور المعتاد ، أو لا يحدث طبقاً لما نتصوره أو توجسه خيالنا !

وتلك خفة فى النوع الإنسانى ، تسوقه كثيراً - بما يتوقعه أو يتوجسه - إلى الخوف والفرع والهلع !. ونحن عادة لانشعر بكمال الهدوء والطمأنينة ، فنعتبر وجود التطلع والانشغال والقلق والخوف فى داخل كل منا ، شيئاً مألوفاً لا تخلو منه حياة الناس ، وينبغى من ثم ألا نأبه لحدوثه ! وهذا خطأ لا نقدر جسامة عواقبه إلا متأخرين حين تدق أبوابنا الأزمان النفسية والأمراض البدنية والشهيقوخة المبكرة ، فنذكر - متأخرين ! - أننا قد حررنا أنفسنا فيما مضى من تنمية " الأمان " بغرس " الإيمان " فى قلوبنا وعقولنا طيلة السنوات التى عشناها ، وأنه لم يعد فى مقدورنا - بعد أن جفت ينباع - أن ننمى هذه النعمة الحقيقية من جديد بتكلف العبادات والابتهالات والزيارات وأنواع البر والصدقات ، لأن هذه القربات قد صارت من أسف ضعيفة الاستجابة حيال آثار الماضى المشغول بالمخاوف والهواجس والاحتمالات التى انتشرت وتشعبت داخلنا وخارجنا ، وصار متعذراً اقتلاعها

بمجرد اصطناع القُرب التى لا تصحح أو تزيل الآثار الناشبة
فيها بعد أن زادت سعة وعمقاً واستفحاً لبرغم تطور
الحضارة الحالية ومعارفها وعلومها وفنونها نتيجة لاتساع
الفروق المطرد - اقتصاديا واجتماعيا - بين الطوائف المختلفة
من البشر !

فغالبية الناس إلى اليوم والغد ، مازالت متمسكة
بمصدقاتها وأعرافها السابقة والقديمة ، مشدودة إليها ،
محبوسة فيها ، حتى بعد ما زودت أبناءها - فى المدارس
والمعاهد والجامعات - بزيادة غير قليل من المعارف والعلوم
المتقدمة جدا ! .. ذلك لأن الاتجاه إلى تعلم وتحصيل هذه
المكتسبات ، لم يحدث أصالةً وأساساً بنية ترقية العقل والفكر
والروح فى المتعلم ، وإنما لغاية قصيرة ضيقة محدودة
تنحصر - فى الغالب - فى تحقيق مصلحة مادية تبعاً للساند ،
بتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لمن ينجح فى الفوز
من تلك المؤسسات العلمية بدرجاتها وألقابها التى أخذت
تحل - بالانحصار فيها ! - محل ما يحصله الأدمى أو ينبغي

عليه تحصيله من معارف وعلوم هي الغاية التي بها يرتقى عقله وفكره وروحه !

وربما بلغت معاناة ذلك القلق والانشغال والهلع حد الخطر في أيامنا ، بسبب سخونة وحدة السباق وشدة التزامم والمتزاحمين من كل لون وجنس وجماعة ، وتصور بعض الناس - إخلاصاً أو حيلةً - أنه يمكن دفع هذا الخطر بالدعوة والعودة إلى الدين في عهده الأول الذي يعتقدون أو يظنون أو يدعون أنهم عرفوه حق معرفته ووضعوا أيديهم عليه وأمسكوا بمفاتيحه ، وهذه غاية بعيدة يتصور بعض الساخطين الإمساك بها ، مما يقود إلى قلق وربما فتن قد تزيد الموجود منها اتقاداً واشتعالاً !

وقد أفسح المجال لهذا وغيره ، احتياج وحرص وسعى الجماعات الغنية القوية في أيامنا ، إلى المحافظة على استمرار وتكريس وزيادة غناها وقوتها ، وإلى نشدان الاتساع المتزايد الدائم في العلاقات مع الجماعات الأخرى ، سواء ماكان منها أدنى غنى وقوة ، أو أكثر فقراً وضعفاً ! .. يحسوها في ذلك كله إتاحة الفرص

لمزيد من ثرائها وقوتها وخلق الأسواق لتصرف
إنتاجها الكبير المتقدم الوافر الفائض بالثمن الغالى
الذى تريد ، وللحصول فى الوقت نفسه على ما تحتاجه من
خامات أو منتجات بثمان بخس أو عمالة رخيصة لازمة
للتسخير لدفع وخدمة إنتاجها المتقدم وزيادة ثرائها المتزايد
بغير حدود !!

هذا النوع من التعامل غير المتكافئ ، يزيد الغنى غنى ،
والفقير فقراً ، ويؤدى بالضرورة إلى ارتفاع " دائنية "
الأغنياء الأقوياء ، وافتقار و " مديونية " غير الأغنياء
والفقراء ، ويسوق بين وقت وآخر إلى تأزم الأمور والعلاقات
، وإلى تولد ثم تزايد مشاعر السخط والضيق والنقمة ، وإلى
إثارة القلاقل وانفجار الغضب والتطرف وربما الفتن هنا
وهناك ، لا يوقف ذلك أو يحاصره أو يشفيه ، اجتهاد
الأغنياء فى " التلطيف " أو " إعطاء المسكنات " بتقديم
المعونات والمساعدات والتنازلات ، أو إعادة البرمجة وإرجاء
وجدولة أقساط الديون مع أو بدون تخفيض الفوائد التى

تستهلك مايعجز معه الفقراء عن الوصول إلى سداد أصل الدين ، فتتفاقم المديونيات حتى تبدو عسيرة الوفاء ضاغطة ضغطاً لا يهدأ على حياة وحرية ومصير الفقراء !!!

الروابط التي تنشئها موازين القوى المختلفة ، بين أطراف العلاقات الدولية المتباينة القوة والثراء ، يصيبها بالحثم والضرورة الخلل وعدم الاتزان ، وتزيد إحساس المقهورين بالقهر ، وتعمق شعور المظلومين بالانسحاق .. وهو إحساس أو شعور أو اختناق لا ينحصر فقط فى أنظمة أو حكومات ، وإنما يتسرب إلى الناس - كل الناس - وينمى تحت السطح مشاعر دفينية ومتزايدة بالسخط والنقمة ، مجذولة بالإحباط والعجز عن ملاحقة ما يصاحب ثراء الثرى وقوته ، من قدرة على إنفاذ مخططاته وتحقيق أغراضه ، بالسياسة تارة ، وبالحيلة تارة ، وبالبطش والقوة تارة أو تارات ، مع قدرة ناضجة لايجاريها الفقراء والضعفاء ! - على تعديل حساباته واهتماماته ومخططاته من يوم إلى يوم ، وربما من ساعة إلى ساعة ، تبعا لمؤشرات وبوصلات مصالحه ، وما يبدو له

أولاً بأول ، أو وفقاً لاستطلاع طويل مرسوم - محققاً لمصالحه
أو مؤثراً عليها !! هذا كله لا تخطئه العيون والأفهام ، كل
العيون والأفهام !!.. لا يعز الفهم أو الرؤية على من يغلبه
فقره أو تضيق به ظروفه وأحواله !! هذا السخط المتنامي لا
تحصيه أو تدرك ربود أفعاله وآثاره وعواقبه ، حسابات
الكمبيوتر أو الدراسات والبحوث الصماء التي لا تفوص في
مشاعر الأدمى ولا تقبض على ما فيها من التهاب يأخذ
مسارات أو اتجاهات قد تبني للأغنياء الأقوياء غير مفهومة ،
أو يعزونها إلى غير أسبابها الحقيقية ، فيزيدون التعقيدات
تعقيداً ، والازمات تأزماً ، ويأخذون البشرية - بلا وعى ! -
إلى هاوية سحيقة ما لم يتداركها لطف الله وعنايته !

الأمل قاطرة البشرية :

دنيا المصالح غابة كثيفة لا تكف عن الفوران ، ولا تهدأ
فيها الصراعات التي تستغرق الأدمى فرداً أو عضواً في

جماعة أو مواطناً فى دولة .. لا يشغله فقط ما يهم أو يهدد أو يصيب شخصه وأهله ، وإنما هو مهوم على قدر وعيه بهوم وطنه .. يكتشف الآدميون فى هذه العوالم التى تقور بالتزاحم والصراعات ، أنهم أخلاط مختلفون أشد الاختلاف فى الخلقة والصفات والمعتقدات والأغوار النفسية والعقول والتوجهات والأهداف والأغراض والمآرب ، وأن محاولاتهم المحاكاة أو التفاهم والتقارب مع التسليم بحصولها ، مشوبة على الدوام بالسطحية ، ومعرضة بسطحيتها وقلة الإيمان الحقيقى بالأسرة الإنسانية للأزمات التى تجتاحها الصراعات وتأخذ الأفراد إلى عداوات وثورات ، والدول إلى إشتباكات وفتن وحروب !!

الآمل قاطرة البشرية ، بيد أن الآمل يبدو بعيدا فى محاصرة أسباب الخلف الفردى والجماعى والدولى ، سواء بالاتفاقات أو المصالحات الفردية ، أو فيما تعقده الدول من مؤتمرات ومفاوضات ومعاهدات ! .. فلا تكاد الإنسانية تتعلق بهذه الآمال لإطفاء نار الخلافات الهائلة التى تأخذ حياة

الناس فى خاصة شئونهم وعامتها ، حتى يتباعد الأمل ويبين
الرجاء مستعصيا على التحقيق ، ويتمكن القلق والخوف
والهلع ويضيع مع تفشيهم الإحساس بالأمان !!

ومع ذلك ، فإن الأمل البعيد أو المتباعد ، لا يلبث أن يولد
من جديد ، لامعا متوهج البريق مع كل جيل جديد . باختفاء
الآباء بعجزهم أو بموتهم - يختفى باختفائهم ما لازمهم من
اخفاقات وانطفاء وتباعد آمالهم ، وتحل حماسة الجديد وشعلة
الأمل فيه محل الذؤابة الخابية ، متطلعة إلى مغالبة اليأس
الذى ران ، ومعاودة الاندفاع بطاقة مشتعلة ترنو إلى تحقيق
البعيد !

وربما كان اطراد هذه الظاهرة - ناموسا من نواميس
الكون لبقاء الجنس البشرى بقاءً فاعلاً ملائماً متسقاً على "
نحو ما " مع التغيرات الشاملة الدائمة للزمان والمكان !
فالأجيال الجديدة التى يرتفع صوتها فى وجه الأجيال القديمة
بذلك الأمل الذى يصاحبها بصيغ واصطلاحات جديدة تناسب
أفكارها وأنواقها ، ويندفع بها خطوة أو خطوات فى تغيير

أنظمة الحكم وفى الاستيلاء عليه - لا تلبث هى الأخرى أن يدركها الهرم والتعب والشك من كثرة المصاعب والأزمات ومرارة الصراعات والنواج ، فيصير جديدها قديما ، ويزحف عليها الإخفاق والفشل ، ويلاحقها تناقص ثم انزوب المقدرة على اجتذاب واحتواء وإقناع جمهور الناس ، ويزحف بدلاً منها الميل الطاغى أو المعتدل إلى اللجوء إلى القوة والعنف فى مواجهة الشرود أو شيوع الاستياء أو السخط وعدم الولاء !

هذا ومثله معتاد ومألوف حصوله فى البلاد التى اعتادت استدامة الحكم المطلق ، يقلت من دائرته البلدان التى يطراً على حكوماتها التداول والتغيير الدورى فى مواعيد تكاد تكون معروفة مقدما للكافة ، على نورات متعاقبة تحكمها انتخابات تعطى المساحات الزمنية القائمة بينها وانتظار مواعييدها المحققة ، أملاً فى تغيير يعطى الأجيال الجديدة فسحةً ومساحةً وفرصاً واسعة ومشروعة وعلنية ، لتغيير نظرتها وفكرها ، وتجربة آمالها البعيدة العسيرة التحقيق !!

وفيما يبدو فإن قرب الأمل لا يعنى فى كل الأحوال اتصال
نجاحه ، سيما حين يقتصر عطاء الجديد على الحلول "
الجزئية " " النسبية " ، فيصيب صيغ وحجج ونظريات
" الجزئى " " النسبى " ما يحدث فى الغالب من ذبول
وتناقص عدد وزخم المتحمسين ، وخفوت الجئوة التى بدأت
لامعة متوهجة !

يس من السهل ، ولا من الهين أن تنتحل نظم الحكم
المطلق وأجهة الحكم النيابى ، لأن هذا الانتحال سريع
الافتضاح ، تصحبه فى الغالب تنافرات واضطرابات ومشاكل
وتعقيدات ، قد تبقى تمرر تحت السطح ، وقد تطفو بما
يصاحب طفوها من تداعيات !

التفات الناس إلى ما اعتادوه !

على أن التفات الناس إلى ما اعتادوه من همومهم
ومشاغلهم اليومية التى لا فكاك منها ، مع انشغالهم قل أو
كثر بالمسائل العامة فى مجتمعهم أو فى العالم - قد جعل

حياتهم - شعروا أو لم يشعروا - ذات مستويين يخالف أحدهما الآخر أشد الاختلاف وأعماقه . مستوى خارجي معظمه أفكار واهتمامات دائمة التعديل والتغيير ، تملأ المقابلات واللقاءات والاجتماعات والمجالس والندوات والإذاعات والصحف والرسائل والكتب والمجلات ، وتزداد هذه الأفكار والاهتمامات - كل يوم بل كل ساعة - كثرة واتساعاً وامتداداً وافتناً للأنظار العاجلة وجذباً للانتباه الوقتي، وتصير من ثم محلاً وموضوعاً لتعليقات الساعة أو اليوم أو الأسبوع !

أما المستوى الداخلي ، فلا يصل إليه شيء من ذلك السيل العرم المتدفق من الخواطر والحوادث والأخبار - .. ويكاد هذا المستوى الداخلي الكامن في ركن معتم من نفوس الناس ، لا يعرف لغة هذا المستوى الخارجي ، لأنه لم يعد قادراً على اجتذاب الأدمى - العادي أو غير العادي - اجتذاباً جاداً يسمح بمسايرة ومواكبة ذلك المستوى الخارجي والإدلاء بدلوه في خضمه .. فقد توقف منذ مدة غير قصيرة عندما يحتفظ

به الآدمى ويلوكة بين وقت وآخر ، جادا أو غير جاد ، من عقائد ومصداقات وأعراف ومبادئ وقيم .

ومع أن هذه المعتقدات بأنواعها ، قد باتت قديمة ، ويراه الناس أو معظمهم - قد تجاوزها العصر ، إلا أن الناس يتهيبون أن يجاهروا بذلك ، فيبقى المختزن فى المستوى الذى بداخلنا على حاله من " الجفاف " وعدم الاستعمال الجاد ، ومن ثم لا يحظى - فى الزمن الحديث - إلا بعناية هامشية !! ربما كانت ظاهرة خطابية فى الغالب ، أو مقرونة بنزعة تخريبية تدميرية فى أحيان قليلة مليئة بالشنوذ والحقاقة !

على أن اتساع المسافة بين هذين المستويين ، الخارجى والداخلى ، لا تبدو أبدية أو مستعصية تماما على التقارب .. إذ لا بد مع المزيد من التقدم الفكرى والعلمى ، مع التطور الذى أجبرته وتحزره الإنسانية ، والاضطرابات والشدائد التى تصاحب الحياة ، أن يزداد التفات الإنسان الجاد الناضج إلى داخله ، وأن يعيد النظر إلى محتوى هذا الداخل

الذى لم يراجعه الآدمى منذ دهور ، وأن يعدل مع هذا الالتفات الجاد فى مادة ومحتوى ومناخى هذا المخزون ، وأن يراعيه وينميه بما يمكن أن يلاحق ويساير ما بلغه من تطور ومعرفة .. هذه المعرفة يصيبها الخطر والتدمير إذا لم يفلح الآدمى فى ربط هذا التطور بداخله وضميره !

هذا التلاحم المأمول حصوله بين مستوى عالم الآدمى : الخارجى والداخلى ، سوف يكون راية لإنسان جديد كل الجدة ، بما طور به داخله وارتفع به بعد طول الإهمال ، ليستقيم له بهذا البناء النفسى وعمار الداخل - القدرة على الالتئام الواعى بتطورات " المستوى الخارجى " الحافل بالتحديات والالتواءات التى تحتاج دائماً إلى أمان داخلى قادر على محاصرتها والتعامل معها ، وترويضها ومغالبتها ، وليتيسر للإنسان وللإنسانية مع أطراف الرقى - أطراف الانسجام والأمان إزاء النكسة أو الردة التى تراها تهدد الآن كل ما معنا مما لا يجوز للعقلاء التفريط فيه مهما كانت النواحي أو التعلات !!!

إحساسنا بفرديتنا !

إحساسنا - على اختلافنا - بفردية كل منا ، إحساس عميق شديد غامر ، بيد أن هذا الإحساس " بالفردية " خالٍ تماما من أى اهتمام جدى بالجماعة أو الجنس ، وإجذاب هذا الاهتمام بالمحيط الأوسع مرده فيما يبنو إلى تمحور " الذات " حول نفسها ، وبرانها باستمرار حول ما تشتهيهِ النفس وترنو إليه وتطمع فى زيادته أو تقلق خوفاً عليه .. فهى فردية عقيمة مجدبة فى الغالب الأغلب ، تلهينا باستمرار عن القيام بأى اهتمام مخلص بمصالح ومستقبل جماعاتنا وجنسنا ، وتلهينا عن المجموع انكفاءً على نفس كل منا ، فتحصرنا فى أنانية " الذات " حتى فى أدائنا للخدمات العامة التى تقتضيها الجماعة من كل منا حسب دوره أو وظيفته أو موقعه ، وبذلك لم يعد الأدميون فى أى بلد مواطنين صادقين مهيبين - حقيقة لا تظاهرا - للتعاون معا والصمود والتضحية والبذل المشترك فى جدية وإخلاص من أجل الأهداف العامة ، مع أنهم دائمو التردد لهذه المعانى ، يلوكونها بالسنتهم

ويتشددون بها فى مجالسهم ومنتدياتهم وأحاديثهم وكتاباتهم
وخطبهم المنصرفة للسمعة والتظاهر .. يجرى ذلك فى الوعى
وفى اللاوعى لطول مفارقتنا للجد والجدية ، وطول اعتيادنا
على إدمان التظاهر والافتعال لأشياء لم تعد فينا حقيقة ،
ولكننا نصطنعها اصطناعاً تلمسها للصورة التى نحب الظهور
بها ، دون أن نجل هذه المعانى أو الأشياء إجلالاً حقيقياً
فعلياً ، أو نشعر بيننا وبين أنفسنا أنها ضرورية لازمة لوجود
أى منا !!

هذا التظاهر والافتعال التمثيلى هاوية حقيقية ، تحيل
حياتنا إلى تمثيلية مظهرية أو صوتية أو شكلية لا تترجم عن
واقع حقيقى فاعل ، ولا تحقق أو تنتج حصداً !! .. وهذا
الذى يحدث إنما مرده إلى "خواء الداخل" .. خواء الداخل
هو المنزلق لكل شئ مظهرى غير جاد ، وإيس من سبيل
لإنهاء هذه "المظهرية" الفارغة عديمة الحصاد الجاد ، إلا
باستعادة "عمار الداخل" بأن يكون لكل منا حياة داخلية
سليمة ، وهذا لا يتأتى بالتمنى أو بالكلام ، وإنما يحتاج إلى

توجيه اهتمامنا الجاد إلى داخلنا ، مع الإصرار على تعميره
وتتميته بمعطيات جديدة نعتنقها بصدق وولاء تام وإيمان !
بغير هذا لا تتحسن الحياة ، ولا يكون للحضارة الإنسانية
أساس متين آمن يصونها ويؤمنها من الانحدار والزوال ! ..
إن البشر يعانون منذ قرون من زحف هذه " الأتربة " دون
أن يعرفوا لها آخر ، ولم يعد صالحا للعمار الحقيقي للحياة
والحضارة ، العودة إلى " قديم مجرب " محكوم بزمانه ، ولا
بصورة له " معدلة " أو " مجملة " ! .. لا قيمة ولا جدوى إلا
بما يستقر فى قلب كل آدمى قبل أن يستقر ثانية فى عقله
وفكره وخياله دائم التحرك والتغير والتقلب !

معتقدات وأديان البشر

معتقدات وأديان البشر ، كانت منذ قديم القديم تسبق
بأشواط معارفهم وعلومهم ، وكانت هذه العلوم والمعارف
تحاول ما أمكنها الالتصاق بالمعتقدات والأديان من طريق

التفسير والتأويل الذى يسمح لها بأن تعيش وتتداول بين الناس ضمن ما للمعتقدات والأديان من نفوذ مؤثر يجرى بالاتصاق بها استمداداً للقوة أو الحصانة أو البقاء ! قد كان هذا فى القديم أو قديم القديم ، ولكن الأمور قد تغيرت فى الحضارة الحالية إلى حد بعيد ، فلم تعد تلتصق عندها العلوم والمعارف بالمعتقدات والديانات ، ولا عادت العلوم والمكتشفات والمعارف تطلب غطاءً ولا دعماً إلا ما تورى به حقائق العلم ومنجزاته .. وبصورة أو بأخرى صارت العلوم والمعارف الوضعية مقلقة لسواد الناس ، برغم أنهم يتعاطون منجزاتها وقد يتعلمونها فى معامدهم ويتعاملون معها فى أشغالهم ويستخدمون أساليبها وطرقها وأدواتها وأجهزتها وآلاتها ، واستغرقهم ذلك استغراقاً أدى إلى نضوب أو انعدام التفات الأدمى إلى أعماقه ، فباتت هذه الأعماق راكدة خاملة منعزلة انعزالاً يكاد يكون تاماً ، ولم تعد هذه الأعماق (الراكدة) تتحرك مع حركة الحياة الاجتماعية من حيث الآمال والمخاوف والأفكار والمقاصد والخطط والمشروعات ، وصارت

«مادة» هذا القديم الراكد فى الأعماق شيئاً كالخيال يبدو
ثم يختفى !! .. ولا يقوى مع هذه " الهشاشة " على أن
يحدث تأثيراً حياً كامل الحياة ، جاداً وعميقاً ، فى حياتنا "
الفردية " أو " الاجتماعية " .. ولم يعد هذا " الداخل "
"الهش " مسموع الكلمة - نوعاً ما !- إلا فى العبادات
والطقوس والقرب التى زحفت عليها الشكلية والآلية والمظهرية
هى الأخرى ، فصارت لدى الغالبية الأعم مجرد اعتياد وصيغ
وحركات لا تسايرها نوايانا الحقيقية وتصرفاتنا المشغولة
نوما بما ألفناه فى الواقع الفعلى الخالى فى معظم الأحيان
من المعنى الباقى !!

داخل وأعماق الآدمي

يبدو أن العناية بداخل الآدمى وأعماقه ، هى الجبل الذى يرد
إليه المعنى والأمان وسط المخاوف المهولة التى يحفل بها عالم
اليوم .. هذا العالم المنطوى على حضارات مختلفة ، وعقائد
وبيانات مختلفة ، قد يشتط بعضها فيجافى أو يعادى

الآخرين فينضب بالتبعية أثر الدين في " عمار الداخل " ..
فهل يمكن لعموم البشر أن يستملوا من " معالم التقريب "
بين الأديان السماوية ، ما يجمعهم على معتقدات روحية
مشتركة ، مخلصة ومستقيمة ، تستقر في داخلهم وفي
ضمانر سوانهم ، تسير علومهم ومعارفهم .. تعطيها وتأخذ
منها كل ما تراه واقعا وحقا ومعقولا ، وتحظى في مجملها
بترحيب وثقة واحترام يقي الإنسانية من حمى التعصب
والغيرة والعداوة !! ..

لم يعد البحث عن الحقيقة إلى أقصى ما في الإمكان ،
مجرد حق لكل إنسان يبذله أو يهجره إذا أراد ، بل هو واجب
على كل عاقل ، أن يتأمل بوعى وفهم وإخلاص في أحوال
الناس ، وما يصارع ويوشك أن يصرع حيواتهم ويقوض
حضارتهم ، وأن ينقب عن سبيل إلى رد الأمان إلى الإنسانية
التي عافت الإيمان من زمن ، فانتهبتها المخاوف والهواجس
والأهوال !

وربما كان من واجبنا فى سعيينا هذا لاسترداد الأمان
بفرس الإيمان ، أن نضيف إلى معرفتنا بالله وأوصافنا له -
المحدودة ببشريتنا ! - خلاصة ما أدركناه ويسره العلم
والمكتشفات من معرفة ببدیع وهائل خلقه ، هذا الإبداع الذى
لا تزال المكتشفات والعلوم الوضعية تضيف الجديد إلى
معرفته وإدراك عوالمه الهائلة المجهولة لنا .. تلك الإضافات
التي تصب فى وعينا وعقولنا وأرواحنا ، وتحيطنا إحاطة
أوسع وأعرض وأعمق بما أرادت الأديان كشفه لعقولنا
ومداركنا المحدودة .. وربما أنت هذه الإضافات التي يحققها
العلم للإيمان ، إلى زيادة تنبه الإنسان الحالى إلى خالقه
العظيم بديع السموات والأرض ، وإلى نمو معرفته به والتقرب
الدائم إليه ، والاتصال المستمر به فى العلم والعمل - لأننا من
الخالق وإلىه سبحانه ، يبقى لنا المعنى ما بقيت أفئدتنا
وأرواحنا مشبودة إليه سبحانه ، تستلهم المعنى وتحقق الأمان
بالإيمان !

ظواهر ومعالم دنيانا

موضوعات المعارف والعلوم الوضعية ، ومع التسليم بتنوعها وتفرعها ، محصورة دائما فى ظواهر ومعالم دنيانا .. هذه الدنيا التى فيها ولدنا وأنبتنا لنقضى ما قسم الله لنا من حياتنا الدنيوية كمخلوقات لا آلهة ! .. وكلما زدنا على صفحة الدنيا معرفة وعلمًا وبصيرة وخبرة ، زدنا وعيًا وفهما لحقائق حياتنا الخافية والبادية ، وزادت لدينا فرص اتصالنا الواعى المدرك بالخالق جل وعلا ، وزادت قدراتنا على فهم موقعنا منه ، وزدنا مع ذلك رقيًا وثباتًا وابتعاداً عن الحماقات والانذفاعات والتقلبات والانحرافات والأحقاد والعداوات التى ليس لها آخر .. فينا وفى نسلنا الآتى فى الزمن القابل !!

متى التهبّت هذه الحماقات بمفرزاتها .. وكثيرا ما تلتهب .. تنفصل عنا أو تتوقف فينا اليقظة والفتنة والاعتدال ، مثمّا تتوقف استقامة الضمير وراية العقل .. هذه الراية التى ينبغى أن تكون رائدنا الأول والأخير فى حياتنا وواقعنا - حقيقة لا افتراضا ، عندئذ سيتغير تبعاً لذلك معظم ما معنا

الآن من مفاهيم وعادات فكرية وعاطفية ، ومن أخلاق وقيم
ومناسيب ومعايير ومقاييس ، وسوف تتغير تبعاً لهذا كله
معظم أحكامنا الحالية على الأشخاص والأشياء وعلى فهمنا
للكون بأسره !

عندئذ ستتحول حضارتنا الحالية غير المسبوقة والتي
تعطل كثرة الاضطرابات والأزمات خطاها الواسعة ، إلى
حضارة واعية رشيدة تامة الرشد واثقة الخطى ، لا يلتفت
أهلها إلى غير ما هو مبسوط أمامهم بلا نهاية من ثمرات
الفهم والعقل والعلم والمعرفة ، فلا تنوى هذه الثمرات ولا
يهدد ترقّيها وتقدمها عصبية ولا تعصبات أو عداوات أو
حماقات !

هذا الأمل ممكن التحقيق إذا تخلينا كجماعات وأفراد عما
اعتدناه من قديم من زهو وغرور واستغراق فيهما ، وتعلق
مريض بهما ، وانتبهنا إلى أنهما ضيق صدر وعقل لا يليق
بإنسان ترقى وترقت ملكاته ومفاهيمه وتحضره . ذلك أن
ضيق الصدر والعقل صفة " بدائية " عامة في

الحيوان ، جاهد الإنسان وجاهد ليتجاوزها ، ويتبقى له من
ثم أن يحرص على مفارقة هذه " البدائية " والابتعاد عنها
واستهجانها ، لأنها تحوق نموه وتحضره ، وتعرض تطوره
للشد لأسفل ولخاطر التأخر والهمجية !

زهونا وغرورنا !

لقد بدأ زهونا وغرورنا من قديم القديم .. بدأ مع الثدييات
وأخذ في السعة والعمق كلما اكتشف الأدمى ما فيه من
قدرات اختصه الخالق بها دون سائر الخلائق ، وتميز بها عن
باقي الأحياء !! .. ولم يتوقف زهو وغرور الإنسان عند الفارق
بينه وبين عالم الحيوان ، وإنما أخذ يستمد أسباباً لهذا
الزهو والغرور كلما أحس بفوارق تميزه عن بنى جنسه ، أو
بما أتاحت له هذه الصفة من نواتج قدراته التي استطاع أن
يحوز بها القوة المادية أو المعنوية ، أو النفوذ أو السلطة أو
المال !!

مع اتساع رقعة هذه " النواتج " ، واتساع طرق وأساليب استعمالها ، باتت مفصومة الرابطة الفعلية بصاحبها ذاته ، فامتدت آفاق الزهو والغرور لتشمل كل ما نعرفه من مساعى الأدميين وأغراضهم ومطامعهم ومخاوفهم ! ولذلك شوهدت آثار الزهو والغرور على درجات وصور وصنوف ، فى كل حاكم أو محكوم ، غنى أو فقير ، حضرى أو ريفى ، متدين أو غير متدين ! .. عبر البشر عن ذلك الزهو بإقامة حضاراتهم والعناية فيها ببناء ما يشهد عليها وعلى ما يشبع هذا الزهو والغرور .. فى بناء المدن والحصون ، وفى تجييش الجيوش ، وترتيب الرتب والدرجات والألقاب ، والوظائف والاختصاصات والأعمال ، والالتفات المبالغ فيه لمظاهر الترف والأبهة - سواء فى الحلى والملابس والمأكول والمشارب ، والقصور والدور والأثاث والرياش ، أم فى تجميل وتزيين وزخرفة دور العبادة والأضرحة والمزارات .. حتى الطقوس وما شابها لم تنجُ من هذا الإغراق فى مظاهر الترف الذى صار " الترجمان " عن زهو الأدمى وغروره !

حضارات البشر لم تعرف نفسها حتى الآن ، إلا من خلال الرغبة فى إشباع الزهو أو الفرور المتحكم فى الإنسان من قديم ، وهذه الحضارات على تنوعها واختلافها واختلاف زمانها ومكانها ، نراها على النوام قابضة بهاتين الكفين السائدتين القويتين : الزهو والفرور - على كل ما معنا فى الدنيا والدين ، والسلم والحرب ، والتقدم والتأخر!

فالتقشف - مع التسليم بقوة البناء النفسى لصاحبه أو أصحابه - لا يمت بشىء لى حضارة .. لاهو ولا " احتقاراً " أو " ازدراء " حياة الإنسان ولوازمها ! .. فالحضارات لاتدين فى نشأتها وقوتها ورقبها للزهد أو الاعتكاف أو الخلوة أو التقشف ! .. قد يكون هذا مطلوباً لسواء موازين الحياة بين الروح والمادة ، أو بين العقيدة والشريعة ، أو بين العقل والجسد ، من خلال " منارات " تفارق دنيا الناس وغرائزهم ومطالبهم وشواغلهم العارضة ، وتنصرف إلى سباحات الروحانيات - إلا أنه يبقى أن بناء

الحضارات لايتأتى فى النهاية إلا بحصاد تفاعل وحركة
وسعى وعمل وجهد ونَصَب !!

على أنه يلزم الأدمى أن يظن إلى أن الزهو أو الغرور
بغير سند حقيقى يشهد له ويبرره (أحيانا) ! - ليس إلا
ضيق صدر وعقل لا يليق بإنسان واع راق متحضر حضارة
عارفة عاقلة ، فلن يرجى لآى حضارة إنسانية نجاحا تَفْضُلُ
به ما سبقها ، ما لم يظن غالب البشر - بفهم وعقل ، وعزم
وإصرار وحماس - إلى أن مستقبلهم أجدر بالتأمل والنظر
والاعتبار من " الماضى " الحافل بالأوهام والخيالات
والأحلام والأحقاد والضغائن والخسائر والكوارث والمجازر
والمعارك !!

قد يصدق علينا ما قاله الشاعر : كلنا فى الهم شرق !..
قلو سألنا جميعنا أنفسنا فى صدق وصراحة عن نصيب أى
منا من الزهو أو الغرور ، لووجدنا أنهما يغمران كيانتنا من
أخمص القدم إلى شعر الرأس ! .. فنحن جميعا غرقى فى
الزهو والغرور ، وفى خدمتهما والإغراق فيهما وحمايتهما !..

فبرغم اختلافنا فى الذكورة والأنوثة ، أو فى الأعمار والمواقع
والمكنات والحظوظ من مال الدنيا أو من إقبالها أو إدبارها ،
فإننا جميعا نكاد نتساوى فى الإذعان للزهو والغرور ، كل
بطريقته وتبعا لأوضاعه وظروفه .. من المفارقة أن نجد الزهو
أو الغرور فى عالم الحيوان .. لا يخطئ المراقبون لهذا العالم
زهو الأسد ، أو زهو وغرور الطاووس والديك ، وتملك هذه
النزعة من هذه المخلوقات .. بها تتعالى على سائر الحيوان
والطير ، ولا يعدم بعضها أن يتعالى على بنى فصيلته .. يعبر
عن زهوه أو غروره فى مشيته ، ورقدته ، والتفاتة ، ونظرته !!
نحن جميعا نصحو وننام غرقى فى الزهو والغرور ،
مستعدون دائما للنضال والدفاع عنهما بما تواضع عليه
الآدميون تحت مسميات " الكرامة " و " القيمة " و " العزة
" و " الاحترام " - لذلك نجرى يوما وراء هذا السراب ،
ونجاهد من أجله فى حركاتنا وسكناتنا وعلاقاتنا وصلاتنا ،
وموداتنا وعداواتنا ، ورضانا وغضبنا .. لا نفارق الزهو أو

الغرور ، ونجاهد من أجله بالمال بل وبالكرامة ذاتها طلباً "
 للمظهر " الذى ننشده ونتحوصل فيه ، دون أن ندرك أن
 قيمتنا وأماننا الحقيقى فى داخلنا لا فى هذا الظاهر الذى
 نتعلق ونتيه به !!

هل عرف الإنسان السيطرة على غرائزه ؟!

مع إيماننا بقيمة وإمكانات العقل ، وأن إليه يرجع معظم
 ما أنجزناه فى خاصة شئوننا ، وحققته البشرية على مدار
 تاريخها ، إلا أننا - فيما يبدو - لم نعرف حق المعرفة ، إلى
 اليوم وربما إلى الغد ، كيف يمكن لعقلنا أن يسيطر على
 غرائزنا ويسدد ويوجه زهونا أو غرورنا ، ويصد اندفاعات
 ومبالغات هذا الغرور الذى يملكنا .. فى كل لحظة تمر بنا ،
 ترانا نتلمس - دون أن نعى وعيا كاملا - أسبابا أو أشياء
 تستحق الزهو بها فى نظرنا! .. ويبدو أن هذا هو سبب
 إحساسنا باختلافنا فى الطباع والمشارب والأهواء والأنواق
 والآراء والأفكار والمصدقات والمعتقدات !

ومع أن هذا حاصل فى كل جماعة ، فإنه يصاحبه عادة اتفاق الجميع على أهداف وأغراض مشتركة أو تبدو للجميع كذلك ، لا تمس حساسية أحد بزموه أو غروره !.. إذ إن إثارة هذه الحساسية تثير وتحرك تضارب وتعارض وتنافر المواقف والآراء والمصالح .. سرا وعلانية ، ويسبب هذا تتوالد الانقسامات والفرق والطوائف والأحزاب .. تتنافس وتتزاحم وتتناحر وتتخاصم وتتصارع وتتعاذى !..

لا مناص فيما يبدو حتى الآن من التسليم بأن تماسك أو ترابط كل جماعة من الجماعات البشرية الحالية - ليس شيئا باقيا على النوام .. بل هو عرضة ، وأكثر كلما طال أمده ، للتفكك والزوال نتيجة تناحر داخلى مزمن ازداد وتفاقم ، أو نتيجة هزيمة أو تشتيت أو إبادة من عدو داخلى أو أجنبى .. وحين تنتشت أو ينفرط عقد جماعة من الجماعات ، يصعب جدا - إن لم يكن من المحال - إعادتها كما كانت بعد أن عاش نسلها فى " الشتات " أزمانا !

والبشر فى مسيرة وجودهم على هذه الأرض ، يستعينون
فى تعاملهم مع تلك " النقائص " وما يصاحبها من معوقات
ومخاطر ومغارم ، بنسيانهم أو تناسيهم إياها أحيانا ،
ويتحميدها وتمجيدها تمجيذاً يكسبها قدرة وإصراراً على
إشعال همهم للكفاح والجهد والصبر والجلد ، وإلى حد
التضحية بالنفيس وبالنفس ذاتها ، شغفا وطلباً لحسن
السمعة وطيب الذكرى ، ذلك أن بلاء الأدميين منهم فيهم ومن
أسباب تفوقهم وترديهم !!

ولكن ، هل يكفى ما عرفته وكشفته الحضارة الحالية ، وما
سوف تعرفه وتكتشفه فى المستقبل القريب ، من جولات
نجاحاتها وإخفاقاتها ، لأن تدرك أن تحقيق الآمال ، وتقاضى
النوازل والأهوال ، يستوجب على البشر - عامتهم وخاصتهم
- أن يتقاربوا وأن يلتزموا ويجهدوا معا ، وأن يعنوا عناية
تامة بفهم وتحديد وفصل ما بين الفروق التى اتسعت الآن -
وأكثر فى المستقبل - بين ماضينا الملىء بالتواكل والأحلام

والأوهام ، وبين واقع حاضرننا اليوم ومشارف مستقبلنا الذى
نستعد لبنائه على هذا الواقع ؟!

هل فات الأوان ؟!

أخشى أن تكون هذه " العناية الجادة " - قد فات أوانها
فى الخلافات والمضاريبات والاتهامات والصراعات
والأزمات؟!.. فهذه " العناية " وحدها - إذا حظيت بلطف
المقادير - هى التى تنقذ إنسانيتنا من الدمار التام !!

لم يعد حاضرننا الذى تجتاحه الصراعات ، ويسوده القلق
وعدم الطمأنينة ، يتحمل بصبر وثبات خلط الأدميين فى كل
مكان بين الواقع ، وبين الظن والمجازفة والمغامرة ، ولا
مزجهم مزجا مضللا بلا مبالاة بين الأمانة والإخلاص
والصدق، وبين الحرص على الزهو والسمعة والنفوذ والمهارة
والمكر والانتهاز !! .. كما لم يعد حاضرننا الآن قادرا - كما
كان فيما مضى ! - على تبرير قبول الانتقال غير المفهوم من

مذهب إلى مذهب مضاد ، أو من فريق أو حزب إلى آخر معاد، كما لم يعد حاضرنّا الآن يتحمل - كمعاداته فى الماضى ! - اختلاط الأوراق والأنواق والأخلاق والمذاهب ، ولا تضاد وتنافر الرؤى والسلوك بين الصداقات والعداوات ، والخير والشر، والصدق والكذب ، والاستقامة والانحراف ، والجد والهزل أو الاستعراض !

ومن اللافت أنه رغم الطفرات المذهلة التى حققتها الحضارة الحالية ، لا يزال أغلب البشر حتى اليوم يشبهون آبائهم وآباء آبائهم فى الكثير من حيث المحاكاة والآلية والشكلية والسطحية ! وقد يجاوزون ذلك إلى التحسر على الزمن الفائت ومحاولة رد الحاضر إليه ! ولا سبيل إلى احتواء ثم زوال هذه " المشابهة " ، إلا بزيادة العقل والفهم ، واتساع رقعة العاقلين الفاهمين ، وامتداد تأثير هذه الرقعة يوماً بعد يوم إلى سواد الناس .. بفعل الاستنارة والاقتداء التدريجى لا الخطابة أو الفصاحة أو الضغط !

ركام الماضي !

أجل . إن معرفتنا لماضينا ضرورية ومطلوبة لبنائنا
النفسي ، ولصنع حاضرننا أيضا . على ألا يشوب الغموض
معرفتنا بالماضي ، أو تختلط الأوراق والمفاهيم ليصير تعلقا
مريضا بلا وعى ولا فهم .. إن الماضي تراكمات لا حدود لها
فى القدم ، طبقات فوق طبقات ، تكونت عبر مراحل وسنين
وأجيال ، صاحبته ظروف وأحداث وأحوال ، وداخلتها
شوائب مثلما صاحبته عزائم .. ومصادر ذلك كله فى بطون
كتب عديدة ، كتبت عبر أزمنة متعاقبة ، منها السمين والغث ،
وقد تزامنها سجلات أو آثار أو مشاهد ، وهى بدورها تحتاج
إلى فرز .. هذا الركام الضخم من موروثات الماضي ، يعز
فرزه ناهيك عن فهمه على غير المتخصصين .. وحتى هؤلاء ،
لا يتساوون فى قدرتهم على الغوص ثم العرض .. منهم من
يفرق فى التفصيلات وينحصر فيها ، ومنهم من يستطيع
التحليق ليخرج بكليات ومعالم وأصول تتيج إطلاً
واعيا وفاهما على صفحات الماضي .. إننا حين نقول

إننا قد عرفنا ماضينا أو ماضى غيرنا ، إنما نعبر عن معرفة نسبية قامت فى حدود تصورنا نحن عن طريق عقلنا وسعينا نحن ، وليس بسعى ولا بعقل من عاشوا وعانوا هذا الماضى فعلا وواقعا .. القدماء فى تاريخ البشرية القريب والبعيد ، صنعوا أمجادهم على أساس الواقع الذى عاشوه وعناصره ، لا على أساس التهاويم والخيالات والتواكلات وأضغاث الأحلام !

شيوع القلق وفقدان الأمان !

أخطر وأصعب ما يصادف الإنسان والإنسانية فى زماننا ، شيوع القلق وفقدان الأمان فى دنيا صارت مليئة بالصراعات والمخاوف والأموال ! .. يبتعد الأدمى عن الأمان المنشود ، حين لا يظن إلى أن الأمان الحقيقى من داخله وإليه ، وأن هذا " الداخل " هو الذى تعرض للنحر والتراجع والتآكل إزاء زحف " ماديّات " الحضارة الحديثة المهولة والمذهلة .. أعطت الإنسان ما لا حصر له ، ولكنها أخذت

منه الكثير .. ليس يُخشى على الحضارة الحالية من تراجع أو توقف أدواتها ، فهي فى تزايد متلاحق سريع لا ينى ولا يهدأ ، وإنما الخشية الحقيقية هى على روح وداخل وأمان الأدمى .. عمار داخل الأدمى هو الكفيل برد الأمان إلى نفسه، وعمار هذا الداخل ليس عملية "تشوين" مادية ، وإنما هو فهم وإيمان .. هذا الإيمان الفاهم هو الذى يرد للإنسان توازنه ويقى الإنسانية من عوامل نحر لا يشفع فى مقاومتها الخطوات المادية المذهلة التى قطعتها وتقطعها حضارتنا الحالية .. بل، إن هذا الإنجاز المادى الهائل ، وبما يصاحبه من منافسات وصراعات وأهوال ، هو الذى يصب القلق والخوف والتوجس فى نفس الأدمى ، ولا خلاص من هذا الشعور المتزايد بفقدان الأمان ، إلا بغرس الإيمان !

بين الخيال والتصور والظن !

قد يبدو أن القدرة على التخيل والخيال والتصور والظن -
هى أوسع قدرات الأدمى على الإطلاق ، فهى أوسع من الوعى
ومن العقل ومن العاطفة ومن الذاكرة ومن الحركة والسكون
ومن اليقظة والنوم ومن الفضيلة والرذيلة ومن الحق والباطل
ومن الخير والشر ، وهى أوسع من الشعور بالذات وبالعمر
وبالماضى والحاضر والمستقبل والكون كله فى قديمه بالنسبة
لنا وحديثه .

ولصيق بقدرتنا على التخيل والخيال والتصور والظن ،
قدرتنا على التعبير عنها بطريقة أو بأخرى ، أى قدرتنا على
استعمال اللغة بمعناها العام جداً ألفاظاً ورموزاً ومصطلحات
وإشارات وكل ما اتفق عليه بين البشر فى الإيضاح
والإفصاح والإشارة والبيان ، فى أى عصر وأى جماعة ،
ولولا هذه القدرة على الخيال المصحوبة بالقدرة على التعبير ،

لما كان البشر جنسا متميزا بالغ التميز عن سائر ما على الأرض من أحياء ! .

والقدرة على الخيال والتصور والظن ، قدرة أولية فى
الآدمى ، تشمل كل ما يتصوره فى أى غرض وفى أى لحظة
من حياته - وترد على ما هو فعلى محقق ، وعلى ما هو
راجع أو محتمل تحقيقه ، وعلى ما لا يمكن تحقيقه من
الظنون والأوهام والأحلام والأساطير والخرافات والأكاذيب
والخدع والإدعاءات .. وجميع ذلك - جاداً وغير جاد - يعبر عنه
الآدمى باللغة وما يندرج تحتها من لفظ ورمز وإشارة ، تعبيرا
يهمس به لذاته وحده أو يبيديه لغيره - علانية ، وفى غير
علانية!

وهذا حاصل فى كل زمان ومكان لكل آدمى متداخلا
وممتزجا مختلطا يخلط واقعه بظنه ، وجده بوهمه ، وصدقه
بكذبه ، وصحوه بحلمه .. وهو شئ ليس منه بد لكائن واع
يبدأ حياته وينهيها فى ميدان الاحتمالات وساحة الإمكانيات ،
مضاربا نون أن يشعر أنه يضارب ، ومقامرا وهو لا يدرى

أنه يقامر ، ويموت فاقدًا هذا الشعور أو هذه اليقظة حتى لو
قتل نفسه بيده ، لأننا واقعون على النوام فى أسر الظنون
والتصورات !

هل بالإمكان تنقية الخيال ؟!

هذا والتنقية الكاملة التامة لميدان خيال الانسان وتصوره
وظنه ، من ضرر وعكارة الاحتمالات والأخطاء والأباطيل
والأكاذيب والأحلام والأمانى غير القابلة للتحقق ، فيها نوع
من معاناة لناموس الكون ، لأنها تحيل الأدميين الذين
نعرفهم إلى غير آدميين ، وتكاد تجعلهم كاملين وغير فانيين ولا
زائلين .. وهذا لم يحدث أو يوجد قط فيما مضى وانقضى ،
لأنه يعدم بوقفه كلية فى النمو والرقى نهائية محرومة من
إمكانية الزيادة فى الوعى والفهم وحسن التصرف ، أى
إمكانية التخلص بتاتا من احتمالات التصورات والظنون
والاحتمالات والمجازفات .. فإحساسنا الدائم بنقائص ما
نعرفه ونعلمه ، وسعى بعضنا هنا وهناك باستمرار

إلى معالجة ما يفتن إليه منها ، هو بداية ونهاية مطاف نسبي يتكرر وعلة وجود جنسنا هنا ، ثم هو مطاف قابل للامتداد والاتساع قد يتصل اتصالاً واعياً متزايداً بالكون العظيم إذا التفتنا التفاتاً جاداً مطرداً إلى ما يمكن أن يكون مدخراً في الكون لخيرنا كبشر !

إذ يبدو أننا - وإن خلقنا وبقينا حتى الآن على هذه الأرض - لم نلزم ونقيد باحتباس أنفسنا جميعاً فيها في حدود ما وصلنا إليه منها حتى الآن ، لأنه إن ضاقت علينا أرض الله الواسعة ، فإن الكون الفسيح الذي انكشفت سعته الآن لوعينا وإدراكنا - لن يضيق - مع سعته الهائلة - بأمثال أمثالنا ، ومهما تعاظمت أعدادنا الآن وبعد الآن في أى زمان !

ماذا في رحاب الخيال ؟!

وفي رحاب خيال الحى وتصوره وظلنه - تعيش المعتقدات وتزول ، ويصحو الوعى وينام ، وينمو العقل ويخبو ، وتتماسك

الأعراف والعادات والأخلاق وتتفكك ، وتزدهر العلوم والفنون
وتذبل ، وتنشط الهمم وتهبط ، وتضحك الأيام وتبكي وتشرق
وتعبس - وفي نفس الرحاب يتداول على البشر السعة
والضيق، والجلد والصبر ، والثبات والرعونة والخفة والقلق ،
وفي تلك الرحاب يتبادل البشر ويتداولون مع السعة والضيق
والجلد والصبر والثبات مع الرعونة والقلق والخفة ، والتوسط
والاعتدال ، والحكمة مع التطرف والاندفاع والحماسة ،
والرخاء مع الشقاء .. فى تلك الرحاب عاش الآدميون مع
الموت ما لا حصر له من المرات ، ولم ييأسوا وإن ييأسوا من
بقاء جنسهم ومعه خياله أو تصوره أو ظنه المتطور المتقدم ،
لأن تطور وتقدم قدرات ذلك الرحاب على اختلافها وتباينها
يحول - إذا أطرد واستمر - .. يحول وحده نون ردة البشرية
الحالية التى تودى بها إلى الهلاك ، إذ حياة الإنسان من
بدايتها إلى نهايتها نَصَبٌ وكفاح لا ينقطع فيما بين قدرات
الآدمى الداخلية بين بعضها البعض أو بين بعضها وبين
الظروف والقوى الخارجية ، ويخف هذا الصراع باستمرار

مع تناقص وانكماش السلبيات التي ذكرناها ، أى مع إقلاع الإنسان عن تعصبه لخياله وتصوره وظنه !

علما بأن حياة كل منا شبه سبيكة من جملة مكونات وقدرات غير متجانسة ، تنعقد القيادة فيما بينها لهذه أو تلك على حساب سواها من القدرات ، وذلك إلى أن تقوى وتتكاثر القدرات الإيجابية وتتعاون معا على تسلم القيادة على وجه مستقر لا يتزعزع ولا يفلت من قبضتها ، وهذا فيما يبدو لا يمكن أن تحققه أقلية البشر الناضجة وحدها ، بل يتعين أن ترضاه وتمسك به أغلبية الخلق على أثر بلوغها الدرجة المعقولة المناسبة لها من النضج والاعتدال .

الخيال ونوبات التعصب !

وأغلبية البشر حتى الآن وإلى مدى - لا يعلمه إلا الله تعالى - معرضة تعرضاً خطيراً جداً لنوبات حادة هائلة من تعصب الخيال والتصور والظن - فقد لفت أنظار أغليبتنا بعنف وجشع متوقد متلهف ظاهر وباهر - ما خلقت الحضارة

الحالية مما صار اليوم فى متناول الأيدى والأطماع ، دون أن يظن عامة الناس إلى أن ما أوجدته هذه الحضارة لا يمكن أن يزداد نماء ، بل ولا أن يبقى على حاله ولا ينقلب إلى نوبات تدمير وتخريب وإبادة ، ما لم يتفطن الخلق إلى ضرورة تغيير داخلهم الذى زاد - بالانتشار والنشر والدعاية - تعصبا للخيال والتصور والظن ، وبأضعاف مضاعفة عما كان عليه من قبل .. إننا اليوم أسرع إلى اليأس وأدنى إلى القنوط مما كان عليه أبائنا ، برغم أننا على الجملة نكاد نكون أهم منهم حياة وأقرب إلى ما كان يعد فى أيامهم ترفاً .. فقد اتسع نطاق الخيال المتشائم فى أفقنا ، وامتد تصورنا لنوايا الشر وأفاعيله حولنا ، وتجمعت فى نفوسنا ظنون السوء فى قريبتنا وبعيدنا ، وكدنا نفقد البر والمودة والصداقة وحسن النية فى معاملتنا !.. ليس معنا - فى أغلب الأحيان - داخل جاد فعلى نقى نلوى ونرجع إليه فى الجاد من أمرنا ليحملنا على الإباء وعزة النفس والصدق والأمانة والشهامة ، بل معظم ما معنا مناظر وتمثيل ومحاكاة ودعوى وحسد وغیظ وغیبة

وحقد وهرب من رؤية الحق ويقتله الضمير ، ولعله يقود
خطواتنا فى هذا التيه أن الخيال والتصور والظن مجتمعة -
تقدم للأدميين منذ وجدوا ، غذاءهم اليومى الذى تنور عليه
حياة الأفراد والجماعة ، وهو غذاء وقتى عرضى يفقد فى
الغالب الأغلب كل قيمة فى نظرنا بانقضاء يومه أو أيامه ،
وهذا هو الشغل الشاغل عادة لحياة الأحياء أفراداً وجماعات
فى كل زمان ومكان فى دنيا الناس المليئة بالأعاجيب
والآلغاز!!

تيار الخيال الجارى !

الخيال بطبيعته - وكذلك التصور والظن - وقتى عرضى ،
ولأنه وقتى وعرضى فإنه لا يثبت على حال .. طابعه التبدل
والتغير .. وهذا الطابع طابع خلقى يلزم تخيلاتنا وتصوراتنا
وظنوننا مقرونا بأسباب ومسببات تجرى فى حنايانا دون أن
نشعر .. معظم ما يكون معنا فى كل جيل من معارف وعلوم
وفنون وأخلاق وعقائد مما ننظر إليه نظرة الدائم الباقي ،

هو فى الواقع عرضى وقتى متبدل .. نغفل عن ذلك ونغفل معه عما كان عليه - فى شأن ذلك - وعى وعقل وفهم وفطنة من سبقونا إلى الحياة ، ربما كان مرجع ذلك الموقف - تماثل الأوصاف اللغوية العامة التى تصف وتشير وتتحدث بها لغات البشر عن أنواع الخيال والتصوير والظن .. إذ لغات البشر دائماً أقدم من واقع حياتهم الحاضر ، وليس فى مقبورها - إلا مجازاً - تمثيل الواقع الذى يقصده الأحياء ويريدونه .. فقليل أو كثير مما ينطوى عليه مدلول أى لفظ أو أية عبارة لاية لغة ، فيه ابتعاد قليل أو كثير عن المعنى المقصود فعلاً فى ذهن قائله أو كاتبه ، وقد اعتدنا إهمال الالتفات لهذا الفارق كما اعتاده أبائنا من قبل ، فلا يجاوز استعمال البشر للغة - المجرى العام المطرد فيما يقولون أو يسمعون أو يقرءون ، نون أن يتوقفوا متفطنين إلى الدلالات الدقيقة للألفاظ ومدى اقترابها أو بعدها عن المقصود !

الشعور بالآنا !

وشعورنا بالآنا - أى بالذات - هو ما يصحبه دائماً من الشعور بالغير - أى غير الآنا - إثباتاً ونقياً مكاناً وزماناً - يكاد فى عمومه يساوى قدرتنا على التخيل والتصور والظن ، فهو يتسع لكل من ينتسب إلى الذات بالدم أو بالنسب أو بالخدمة والتبعية أو بالزعامة أو القيادة أو الرعوية حيال الأدميين الآخرين ، كما يضاف إلى الذات ليزيد من حجمها لدى وعيها - بما تملكه أو تحوزه أو تسيطر عليه أو تتصرف فيه أو تديره أو تتولى أمره من المرافق والمنافع والسلطات والممتلكات والأموال ، وبالعكس فإن هذا الشعور بالآنا قد يضيق وينكمش بل ينحسر ويتضاؤل ويتفك حتى تكاد الآنا تفقد كل قيمة لها فى عين نفسها فتتسول لقمتها وتنام فى العراء أو فى الخرائب !!

أما غير الآنا ، فعبارة عامة بالغة الاتساع تشمل كل ما لا ينحصر فى ذات الأدمى .. تعبر أولاً عن الخالق عز وجل ، وتعبر أيضاً عن هذا الكون العظيم وكل ما فيه من حى

وغير حى .. كبير أشد الكبر أو صغير أدنى صغر ، يدخل ضمن ذلك كل ما هو " غير الأنا " إذا تحدثت أو فكرت أو عبرت أو غيرت !

فاعتراف " الأنا " بحياة غيرها من الادميين - اعتراف بكائن " خارج " " الأنا " أى خارج النفس ، لا يحيا بحياتها ولا يموت بموتها .. اعتراف " الأنا " بغيرها هو من قبيل الاعتراف بوجود النهار وانتهائه وشرق الشمس واحتجابها ورؤية إنسان واختفائه .. والفوارق بين بعض هذه الاعترافات وبعض - هو ما يبقى فى وعى وذاكرة وعاطفة الحى منا من سيرة وذكريات مصحوبة بعواطف أحداث وتجارب مضت - وتركت آثارها داخلنا .. قد ننتفع ببعضها ، وقد نأسى ونحزن منها ، وقد نشعر أحيانا بارتياح لها ، وقد ننساها تماما ، وقد لا نبالى بها ابتداء وانتهاء لأننا لا نتأثر بها على الإطلاق ، وهو ما يقع لكل منا فى أغلب الأحيان عندما يرى أو يسمع بما يحدث لمن لا يعرفه أو من لا تربطه به رابطة

وذلك فى غير الفطيع والمفجع أو الفكاهى المضحك أو الغريب
العجيب !!

كان الأصل فى البشر هو ألا يعيشوا إلا معاً فى جماعات ،
وهو أصل يحتوى ويشمل حتما فردية كل أفراد الجماعة برغم
إحساس كل منهم بذاته وفرديته وبالاختلاف الضرورى
الناشئ عن ذلك الاختلاف فى الشعور بالذات . ويبدو أن هذا
أصل كللى جامع يجمع مفرداته أى أفرادها فى قدرات
وخصائص عامة مشتركة دائبة مستمرة ، يخالفها بعض
الأفراد أحيانا قليلة أو كثيرة فى قلة أو فى كثرة ، وتلك
القدرات والخصائص العامة أقوى وأطول أعمارا من تلك
الخلافا والاختلافات ومضاعفاتها المتمثلة فى الاضطرابات
والتمردات والقلقل والفتن التى قد تجرى داخل هذه
الجماعة أو غيرها ، إذ تلك الأحداث لا تخرج عن كونها عبارة
عن عوارض تجرى وفق عواملها لا وفق تخيلاتنا ، وتحدث
أثارها تبعا لدرجة قوتها أو نضجها وليس وفق تخيلات أو

تصورات أو ظنون أفراد البشر الذين من المحال أن يجتمعوا
على رأى واحد أو نظر واحد أو أسباب واحدة !!

فالجماعات البشرية يصاحبها من بداياتها اختلاف أفرادها
إلى شرائح و فرق وطوائف ، وأبناء بلاد وأحياء وقرى ونجوع ،
ولتكوّن باستمرار مجاميع أصغر وأصغر كما تكوّن مجاميع
أكبر وأكبر ، وذلك بحسب نوع الرابطة التى تربط المتمسكين
بها من الأفراد .

وكما تضم الجماعة البشرية عديداً من الأفراد مختلفين
وأحيانا متعادين ، تضم فى نفس الوقت جماعات من الأفراد
تندرج من كبرها إلى صغرها نزولاً أو من صغرها إلى
كبرها صعوداً .

مكمن دمار الجماعة !

مكمن الخراب والدمار للجماعة البشرية ، ليس مجرد

وجود العداوات هنا وهناك .. هذه الجماعات يلحق بها ما يلحق بالأفراد ، فيصيبها الاختلاف وأحيانا التضاد ، وإنما ممكن انتشار العداوات واشتعارها هو عدم وجود القادرين على كبح جماحها وردّها على أعقابها .. فهنا تتجمع أمارات أكيدة لخراب عاجل يدفع ثمنه المحسن قبل المسيء والشريف . الفاضل قبل الوغد ويقتضى علاجه فى الجماعة عشرات السنين ، ربما كان فى مقدورها تفاديها لو التفت الملتفتون وتنبهوا حين كان ذلك مجديا نافعاً .!

أما الصدام المسلح أو الحروب بين الجماعات ، فظاهرة بشرية لم تنقطع قط فى دنيا البشر منذ وجود الشعوب والأمم والأجناس وشعور الأدميين بضرورة الانتماء لواحد منها ، وانحياز وتعصب أهل كل جماعة للمجموع الذى ينتمى إليه ، سواء سُمى شعبا أو أمة أو مملكة أو سلطنة أو إمارة أو جمهورية أو دولة أو ولاية أو اتحاد دول أو ولايات يرفع علمه ويعتز برعويته إليه ظاهرا أو باطنا إن كان صادقا .

وبين الحروب والثورات والفتن الداخلية قرابات ، أهمها
اللجوء إلى استعمال السلاح والغلو في العداوة وسيادة
التعصب وإبعاد السلام من أذهان المتحاربين والثائرين
والحكومة القائمة بإخماد أو محاصرة ثورتهم نجحت أو لم
تنجح ومن ساندتها من رعاياها !.

وإلى اليوم لم يقلع البشر عن التشبث والانتماء لهذه
الأرض أو تلك التي يعيشون عليها كجماعة متميزة كما عاش
آباؤهم ويتمسكون بها تمسك المتعصب المستميت - كما لم
يقلعوا عن النظر إلى أبناء أى أرض غيرها كأجانب وغريباء
معرضين في الأعم الأغلب للتوجس والاستتابة .. تزداد
الاستتابة إذا كان أولئك في الماضى موضع عداوة أصيلة
خاصة إذا كانوا يدينون بدين مخالف .. وللأسف لم تنجح
الديانات الكبرى حتى الآن ، في تغيير ذلك الأثر المزعج الهائل
المبنى على مجرد اختلاف " المكان " أو " الجنس " أو "
العقيدة " .. ويبدو أن الشوط لا يزال بعيداً أمام معتنقى
الديانات المختلفة وبين الالتزام بسيادة المودة والأخوة مع

سواهم من البشر ، ولو كانوا من أهل الأديان الأخرى ما
سالوهم .. لا يزال البون شاسعا لتحقيق هذه المودة بغض
النظر عن الاختلاف فى الأرض والجنس واللون والعمر
والذكورة والأنوثة والغنى والفقر - ربما اقترب البعيد إذا
أدرك البشر أنهم جميعا عباد لإله واحد هو خالق كل شيء
وكل حى واهتدوا إلى جوهر الإيمان والتزموا بذات الإخلاص
فى السيرة والسيرة !.

هل أفلحت الأديان فى نزع التعصب ؟

نقطة البداية فى تجاوز أى عقبة أن نواجهها ونراها كما
هى بغير خداع للنفس ، أو سقوط فى خدرا التهوين أو
الخوف من التضخيم !.. نعم ، علينا أن نقر بأن الأديان بعامة
قد أخفقت حتى الآن فى نزع ما بين أبناء كل منها وأبناء
الديانات الأخرى من توجس ناهيك بعدم سيادة المودة والإخاء
- أو بالقدر اللازم - بين أهل الأديان .. ولم تنجح الأديان
بعامة فى الالتفات إلى الأصول الواحدة للديانات السماوية

قبل أن تزحف عليها مصالخ أو تحريفات الناس ، ولم تتجح
 فى اقتلاع أسباب الكراهية والتعصب والعداء بين جماعات
 البشر ، بل كثيرا ما أشعل التمسك المتعصب بتلك الأديان ،
 حروباً ومجازر دفع بسطاء الناس ثمنها من أرواحهم ودمائهم
 ومصائرهم .. هذه المجازر العمياء صارت عللاً وأسباباً - أو
 تعللات ! - لبقاء العداوات فى قلوب وعقول البشر ، تلك
 العداوات التى لم ينج منها حتى المنتعمون إلى نفس الدين .
 ذلك أن الخلاف على الأرض أو على السطوة والسيطرة ، قد
 حجب عن العيون والقلوب معنى الوحدة فى العقيدة الدينية ،
 مثلما غطى العداء الأعمى للإسلام - فى عيون أعدائه - على ما
 ورد فى قرآنه المجيد من أن الإنسانية قد انبثقت من أصل
 واحد ونفس واحدة (النساء ١ ، الأنعام ٩٨ ، الأعراف
 ١٨٩) ، وأنهم مع هذا خلقوا مختلفين ، وسيبقون مختلفين فى
 عقولهم وقدراتهم ، وفى فهمهم وعقائدهم .. عن هذه السنة
 الكونية تحدث القرآن فقال : (وَأَوْشَاءَ رَبِّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً
 وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) "هود ١١٨" .. فلا يقابل

الإسلام هذا الاختلاف بالازدراء والعداء ، وإنما بالهداية والإسماح .. آيته الكبرى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) «الحجرات ١٣» (.. ومنهاجه الواضح أن الأديان لا تعتنق بالقسر والإرغام ، وإنما بالهداية والإقناع ، وأن النبوة دعوة للعقل والوجدان والضمير .. بالإبلاغ والإرشاد ، لا الفرض ولا الإجبار .. (إن عليك إلاّ البلاغ) «الشورى ٤٨» (إن أنت إلاّ نذير . إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) «فاطر ٢٣ ، ٢٤» .. (ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء) «البقرة ٢٧٢» .. وأن الأديان أصلها واحد .. (أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) «البقرة ٢٨٥» وفي آية أخرى : (لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) «البقرة» .. بيد أن روح الكراهية التي شاعت بين أهل الأديان قد حجبت عن العيون والقلوب " السماحة " ومعنى

الوحدة فى العقيدة الدينية التى أرشد إليها القرآن المجيد ،
فانطلقت العداوات بين أهل الأديان حتى لم ينبجُ منها أبناء
الديانة الواحدة فيما بينهم !!

ولكن ذلك ليس غريباً على المتأمل - لأن أهل الأديان
الكبرى مع اختلاف الأزمنة وتعاقبها بالأحداث المتغيرة على
الأمكنة التى عاشت فيها تعاليم وعقائد هذه الأديان ، قد
حولوا تلك العقائد الدينية إلى عقائد اجتماعية مكانية خاصة
بكل جماعة أو مجموعة جماعات باتت كل منها - نتيجة لذلك -
لاتبالي إلا بالمصالح القريبة الخاصة بها التى تهتمها أو يظن
المهمون فيها أنها تهتمها هى بالذات قبل ما عداها ، وتقدمها
على سواها أحياناً بتعصب وعنف ، غيرةً منها على المكانة
الحاضرة والمستقبلية !

والناس ومن سبقهم من الأجيال التى ابتعدت عن جيل
الرسالة - يخافون أن يسلموا بهذا الواقع الذى لا ينقطع
صياحه فى الوعى والعقل والعاطفة والعادات .. يخافون على

قدسية تعلقهم بدينهم وانتمائهم الحميم إليه ، وهو تعلق تجاوزوا واقعه بفراسخ .

ولو أن واحداً أو أكثر من الذين أسسوا الأديان الكبرى - بعث في وقتنا هذا لما أمكنه أن يتعرف على أحد ممن ينتسبون الآن إلى الدين الذي بعث به وحمل رسالته من قرون ، لأن المتدينين إنما ينتسبون لأديانهم - من هذه الزاوية - على المجاز والعاطفة فقط .. ولما أمكنه - أى ذلك المؤسس - أن يرد أيا منهم - متعصباً أو معتدلاً - إلى ما كان هو عليه فى الماضى البعيد من نوعية ومطالب ومعالم التدين والحياة التى كانت فى ذلك الأوان البعيد ، إذ إنه مهما بالغنا فى هذا الأمر إلى أى حد ، لا نستطيع إنكار أن الأديان الكبرى التى ننتمى إليها اليوم ، جزء لا يتجزأ ولا يمكن فصله من حياتنا الحالية فى عصرنا الحالى وحضارتنا الحالية .. يسير معها أينما سارت فى مسارها هى .. أردنا ذلك أم لم نرد !

فإصرار بعض أهل الأديان على تجاهل هذا الواقع

الصارخ عناء وعناد لا طائل وراءه ، إلا إضاعة الأوقات
والجهود والأموال فى محاولة للعودة إلى بعض ما كان متبعاً
فى ماضٍ بعيد جداً لم يعد فى حياتنا الآنبة مايمكن إزائه
أن نعود إلى ما ساد هذا الماضى وعاش فى حنايا ونسيج
السابقين !

ذلك أن من طبيعة الأدمى تغيير اهتماماته مع تغير ظروفه
وزمنه ، لكى يمكنه مسايرة ما فرضه ما تغير وما يتوقع
حصوله فى مستقبله القريب ، أما تغيير اهتماماته الحاضرة
الموافقة لحاله وحال أمثاله فى عصره الحالى للرجوع بها إلى
ما كان عليه أهل الماضى البعيد ، فعجبة إن حدثت لا يمكن
لأدمى اليوم أن يصبر على معاناتها بإخلاص واستمرار ،
ولا أن يسايره كثيرون غيره فى ذلك الصبر والإنسحاب
العجيب .

الأضداد المتعاقبة !

وفى طبيعتنا ما نسميه بالأضداد المتعاقبة فالتعب يعقبه الراحة ، والحزن يختفى مع الوقت أو بمجىء السرور ، والجهد ينتهى بالاسترخاء وتعود الساقية فى الاتجاه العكسى، وهكذا تسير حياتنا طرداً وعكسا وعكسا وطرداً - لأننا كما سبق أن قلنا نحيا حياة مؤسسة على الاحتمال والتوقيت واستمرارهما معاً عطاء وأخذاً وشداً وجذباً وزيادة ونقصاً .. لا يوجد ثابت فى حياتنا إلا الحياة نفسها مع تغير أنواعها وأنماطها وصورها " مسيرة " الزمان والظروف وتنوع الأمكنة والأجواء ! .. وقد تتدهور أو تتقدم وتتطور حياتنا دون أن نفارق بشريتنا ، وصور التدهور أو التقدم لا تتكرر لأنها صور تحمل كل منها أثارها وظروفها المتغيرة ، فلا تتشابه هذه الصور إلا فى المعالم فقط - تدهورا وتقدما - لأدميين مختلفين أفرادا وجماعات فى عصور مختلفة . فإغضائنا عن ذلك الاختلاف الأساسى - وهو وليد الاعتياد ونتيجة لنوام التوالد ولحاق الأجيال بعضها ببعض - هو الذى

يسر تصور بعضنا إمكان العدول عن عاداته ومشاربه ومعارفه وأنواقه الحالية إلى ما كان عليه أباه في الماضي البعيد ، وربما كان شيوع هذا التصور الواهم - قليلا كان أو كثيرا - راجعا أيضا إلى بقايا الطفولة حين يحاكي الطفل أبويه في كل جيل لأنه غير قادر على المقارنة والنقد ، ولا تتعرض هذه المحاكاة الآلية المتتابة الجزئية دائما للتأثر كما يتأثر غيرها من نواحي الحياة بالتغيرات البارزة التي حدثت في البنية وأحدثت آثارها الأخرى الواضحة في حياة الجميع، وذلك دون أن تمس لديهم ذلك التصور الواهم الذي كان نائما ثم استيقظ فجأة لسبب أو آخر في المحيط وذكرهم بضرورة المحافظة على مقدساتهم كما تصورها اليوم ، وليس كما كانت عليه في الماضي البعيد جدا الذي لم يوجد منه في وعيهم إلاّ خيالات غائمة - فهي في واقع الأمر محاولات إحياء لبعض أمور الدين ممن لا يعرفونها على حقيقتها الفعلية ، وذلك بأمل ساذج في بسط سلطان تلك الأمور على حياة الأدمى الآن في كافة نواحيها !

وفى بحار الظنون والتصورات والتخيلات التى يفرق فيها
باستمرار وعلى الدوام ، كل جيل إنسانى ، يرتع الوسواس
الخناس فى صدورنا وعقولنا . ويدعونا الدين والعقل إلى
الانتباه لذلك الوسواس وإلى أن نتعوذ بالله تعالى من تأثيره
. إذ يندر جدا أن يوجد وراء الظن وحده أو التصور وحده أو
التخيل وحده واقع يصح أن يثق فيه عقل العاقل ويطمئن
إليه!

الظنون وأصولنا الفطرية !

لعل جاذبيتنا للظنون وأمثالها واعتماد الكثيرين منا عليها ،
يرجع مرجعهما إلى أصل فطرى فى الأحياء جميعا ومنهم
البشر . وقد اتسع هذا الأصل بالنسبة لنا مع اتساع وعينا
ولغاتنا وذاكرتنا خلال تقدم الجنس البشرى . وترقيه واتساع
نطاق الاحتمالات والأبحاث إلى غير حد فى حياة البشر
جميعا أفرادا وجماعات . فكل ما نسميه تقدما أو تطورا
أحرزناه أو نحزره ، ينطوى على سلبيات لا نلتفت إليها فى

أول الأمر ، ولكن تذهلنا السلبيات فيما بعد بمشاكلها ومخاطرها وأحداثها ونواتجها التي تكلفنا حتما متاعب وهموما وخسائر ومصاعب فى الإصلاح والعلاج .. فلم ينجح البشر قط ولا يمكنهم أن ينجحوا فى حياتهم كجنس أو كجماعة نجاحاً صرفاً خالياً من العيوب والمآخذ الحاضرة أو المستقبلية ، لأن حياتنا بأسرها مبنية على الاحتمالات وليس على المؤكدات والتيقنات ، ولذا فقد اعتمد البشر فى التبصر والنظر إلى المستقبل القريب والبعيد على الإحصاءات ودرجة إحكام وضعها وقراءتها !

واستخداما للقدرة الواسعة على التصور التى لا حد لها لدى البشر - اعتاد البشر من قديم الزمان على المبالغة فى أهمية ما يسمى بالعام والكلى والمطلق والأزلى والأبدى والفانى والباقى .. ويتعلقون تعلقاً شديداً بهذه المعانى وأمثالها ويستخدمونها فى بناء جماعاتهم وحضاراتهم وما يروج فيها من معارف وعلوم وفنون وآداب وديانات ، وأنشطة اقتصادية واجتماعية !

وفيما يبدو أن البشر قد استعانوا على ذلك ، ببيت الحياة
الآدمية فى تلك المعانى ومعاملتها معاملة الأحياء بل وفوق
الكائنات الحية ، فتخلوا وجود إرادة بل إرادة متفوقة للتاريخ
والشعب وللأمة والطبقة وللأرض وللملة وللتقدم وللتطور
وللقدر، وتصوروا أنها إرادة ماضية قاهرة لا تُغلب ولا
تموت ، واستقر ذلك فى النفوس والعقول وبات لدى المنظرين
والناس بديهيا لا تجوز الممارسة ولا الجدل فيه ، وينبغى من
ثم أن تكون له الكلمة الأخيرة إذا اختلفت الآراء والأصوات !
وقد يبدو أن البشر فى عمومهم ، لا يعنون كثيرا - فيما
يقولون وما يفعلون - بالصدق واحترامه ، إنما يعنون
بالنهايات والنجاحات !! .. وقد سهل ذلك كثيرا بناء ما بنوه
وحققوه من التطورات والحضارات .

ما بين أيدينا !

إن ما بين أيدينا من حاضر ومن بقية ماضٍ ومن تصور مستقبل قريب أو بعيد ، ليس غراس فضائل فينا ، بل هو مزيج مختلط أشد الاختلاط لاتعرف نسب مقاديره ولا يحفل أحد بمعرفة نسبة هذه المقادير من فضائل وغير فضائل ومن راجع ومحتمل ومرجوح ومحض خيال !! .. وكلما زاد التفاتنا لمخاطر ذلك المزيج زاد تطورنا قوة وثباتا ، وزاد جنسنا أمانا وابتعادا عن الكوارث التى نشهد اليوم بوادرها التى تهدد الحضارة الحالية بالزوال !!!

على أن الغيب ، وما يخبئه ذلك الرصد الشامل الغامض المحير الذى يحيط بحياة كل حى ، يمثلان عبئا ثقيلا وتحديا هائلا لرؤية الأدمى للحاضر أو للمستقبل الملىء بالاحتمالات .. أغلبنا يهرب إلى ظنونه وتصوراته وخياله يحاول بها وفيها إبعاد الغيب عن حياته والتخلص من قبضته !

لكننا نضطر لأن نحنى الرقاب استسلاما لحكم الغيب
والقدر ، لاسيما أمام الموت وأمام العجز البدنى أو العقلى ،
وأمام الهزيمة التى لا تعويض ، وأمام الفشل المصحوب
باليأس ، وأمام الفاقة المزمنة المستحكمة !

أما المتيقظون الفطنون من الآدميين فيستعينون للتخلص
من عبء الغيب وثقله على كاهلهم بالتسليم لمشئته الخالق جل
وعلا ، والتوكل عليه وتفويض الأمور كلها إليه مع الانصراف
بجد وإخلاص لأداء واجباتهم ومقتضيات حياتهم وعلاقاتهم ،
وهذه إحدى مزايا الدين الهامة ، على الرغم من خلوها من
الجرأة والمغامرة اللتين يجتذب بريقهما ويريق نتائجهما
الناجحة على قلتها ، كثرة أطماع العاديين من البشر !

لاتساع مدى الظن والتصور والخيال لدى البشر لم
يعرفوا - عملا أو اعتيادا - معالم الممكن وغير الممكن بوضوح
كاف ، فتأهوا لذلك بين راجحهم ومرجوحهم وواقعهم
وخيالهم، وباتوا خلال عصور طويلة جدا يظنون غير الممكن
ممكنا واجب الاجتهاد فى الإيجاد والتحقيق بلا جدوى ،

يمضون فى هذا التيه جيلا بعد جيل ومازالوا واقعين فيه ،
وأنساهم ذلك الالتفات إلى كثير مما بين أيديهم من الممكن
القابل للتنفيذ مع القليل أو الكثير من الانتباه والعناية -
وضاع مع فوات تنفيذ الممكن فرص الاستفادة والانتفاع به
فى تحسين أحوالهم المادية والمعنوية وزيادة ثقتهم فى قدراتهم
على الإنجاز والنجاح !

وهذا الخلل أو النقص المزمع فى إدراك الممكن والتعرف
عليه والسعى الجاد إليه للانتفاع المستمر به - قد ساق
البشر بعامة إلى التماس الصدفة وخطاب الحظوظ بالمغامرة
أو المقامرة مع التماس المأمول بلا جهد حقيقى انتظاراً
لنفحات الغيب الذى ربما أغنم الأمل بالفوز بما يتمناه
ويتمنى معه التميز على الآلاف من أمثاله دون بذل ولا جهد
ولاعناء ولا كدح ولا كد !!

هذا وقد بلغ الأدمى فى تجواله بسعة ميدان ظنونه
وتصوراته وتخيلاته ، إلى حد تصور وإمكان مناقشة وجود
الخيالات والأوهام ، لا يبالى عادة فى هذه الظنون

والتصورات بما نسجه فى خياله بالصدق والكذب ، لأنه لا يتحقق ولا يدقق فى توقعاته التى لم تحدث بعد أو التى حدثت نون علمه ، مرتاحاً فى هذا كله إلى ما مال إليه ظنه فرضيه وأثره على سواه ، واعتقد أن له فيه مصلحة عاجلة أو أجلة ، فيباعد بهذا الخدر المريح بينه وبين أخذ الأمور بالجد والاحتياط والتجربة والاختبار !

قوة الأعماق .. أين ؟

ما من آدمى إلا ويخضع لناموس الحياة التى تتغير ويتغير معها ، فنحن جميعا بغير استثناء نغير معظم معالم حياتنا كأفراد وجماعات تغييرا جذريا ، لا نلتفت إلى حصوله فى كل جيل ، ولا نشعر بطروء هذا الواقع الفعلى (المادى الشأن) ، لأن كلا منا يتجاهله فى تيار حياته تجاهلاً يعبر عن تمسك لا شعورى ببقاء الجنس ، سواء فى " الوحدة " الواحدة من وحداته ، أو فى عدد قليل أو كثير من وحداته .. كالامة أو النوع أو القوم أو القبيلة أو العشيرة أو العائلة أو الأسرة .. هذا التمسك رمز أو معنى - فى كل فرد منا - لاستمرارنا وتتابعنا وتواترنا ، فيه إصرار ضمنى كامن على نوع من البقاء والتواجد لم يمنعنا - ولا يمنعنا - من أن نغير بلا انقطاع معالم الفرد والذات والأسرة والمحيط ، والمسكن الذى نعيش فيه ، والأرض التى تجمعنا .. نغير ذلك ونغير معه باستمرار النظرة والتصور والتفكير والرأى والحكم

والاعتقاد والنشاط والعمل ، والمأكل والمشرب والملابس
وظائف الأوقات نهارا وليلا فيما نسميه جدا وهزلا ، وخاصاً
وعاماً ، وراحةً وتعباً ، وحركة وسكوناً ، وسروراً ونكداً ، وأملأ
ويأساً ، وصفاء وعداء وخليطاً منهما ، وخيراً وشرأ !

معنا - مع هذا التغير الدائب الذى لا ينقطع - توجد "
القوى " و " الأعماق " والطيبات وغير الطيبات وغير ذلك مما
يجرى عليه الاصطلاح .. معنا قوة البدن وقوة الفطنة وقوة
الحافظة ، وقوة الذكاء والفطنة ، تصحبهما قوة الرجاء
والأمل ، وقوة الأقرباء والعزوة والأنصار ، بل وقوة اليأس
والهدم والإفناء والزوال ، والمقت والكراهية والعداوة !

لكن ليس معنا قوة الأعماق ، إلا لدى أقل القليل منا ، لأن
هذه القوة - قوة الأعماق - تتخطى - بأطاييها ومثالبها - دنيا
العاديين من البشر .. وقد يفتن الأدمى العادى إلى بعض
معالم تلك الأعماق ويحاول الالتصاق بها محتفظاً بدينه
بصورة يتصورها هو لا تبعده عن غيره !

قوة الأعماق التى أعنيها ، لا أقصد بها أكثر من التعبير
عن محاولات بشرية جادة جدا إلى حد الإنهاك ، تتجاوز كلية
- سيطرة وسطحية حياتنا اليومية المعتادة .. هذه المحاولات
الجادة طريقها التأمل المتأنى المزمّن ، الطويل الحبل والصبر ،
الدائم الملاحظة والمقارنة ، والانتفاء والإقصاء .

هذا التأمل المزمّن الطويل يقرب للآدمى غير العادى ما
يبو للآدمى العادى بعيدا ، ويقصى تماما ما قد يظنه حاصلا
متفقا عليه مسلما به ! .. نشهد هذا النوع من القوة لدى
أفذاذ المفكرين ونوادير وقمم أهل العلم والفن . هؤلاء لا
يبالون إلى غير حد ، بما نبالى به نحن العاديين من مفانم
وخسائر ، وسعادة وشقاء ، وملذ ومكاره ، وارتفاع
وانخفاض ، وصحة ومرض ، وغنى وفقر ، وأمن وخطر .. هذه
" الحالات " التى يبالى بها العاديون ، لا تمس من قريب أو
بعيد ، الالتفات للأعماق ولقيمتها وقوتها لدى المغرمين بها
المتفانين فى الحرص عليها إلى أن يفارقوا الحياة !

وقد يصل إلى أيدينا نحن العاديين ، كما حدث ويحدث وسيحدث - نواتج وآثار وصنيع لآراء وأفكار وضوابط وقواعد وأحكام معينة لأولئك النوادر والقمم ، لكنها لا تتجاوز فى الأغلب الأعم قدرات الفهم البشرى السائد الذى لا يتعاطى التعمق ولا يرحب به أو بالكد والكدح فى التدبير المضمنى الطويل الذى يصاحب " النوادر " غير العاديين إلى نهاية الحياة ..

على هذا الفارق الجسيم ، وإلى يومنا هذا ، عاشت الجماعات البشرية .. تجمع وتضم مع الكثرة الغامرة - القلة النادرة وأثارها .. قد يسأل من يسأل منا : هل تنتظر البشرية فى زمن ما - فى المستقبل القريب أو البعيد - أن ينعكس هذا الوضع ؟! وكيف يمكن أن يجرى هذا الانعكاس؟

نسبية الأعمال !

كلمة " أعماق " - جمع فيه بعض وليس كل الدقة ، لأن العمق نسبى تختلف درجاته إلى ما لا حد له ، باختلاف

العقول والأفهام والمواهب ، وباختلاف الأجيال والعصور ،
وباختلاف الثقافات والحضارات التى عاش فيها هذا أو ذاك
من المتعمقين النادرين الأفذاذ .. وأولئك النواذر الأفذاذ هم
بشر ، ليس معهم إلا بشريتهم ومواهبها ، رؤيتهم رغم الندرة
والتميز - نسبية ، فلم يروا كل ما فى الإمكان رؤيته وفهمه
بدقة مطلقة إلى آخر الدهر ، وإنما رأوه فقط وفهموه بمزيد
من الدقة النسبية عن عامة وخاصة الأدميين فيما تعمق فيه
هذا أو ذاك منهم فى الأمور التى تعمقها على منتهى جهده
.. لذلك فإنه لا يقيد بفهمه ما انتهت إليه عقول جيله أو ما
بعد جيله ، اللهم إلا إذا أجذبت الساحة ولم يصادف الناس -
فى جيلهم أو ما قبل جيلهم - متعمقا فذا أكثر عمقا ووضوحا
لأفهامهم وأنواقهم فى جيلهم !

أعود ف أقول إننا فى الإطار العام لكل جماعة - نحصر
على قوانا البشرية التى أشرت إليها ، ونحصر بها ومعها
على فردية كل منا ، كما نحصر على دورها فى جذب
الأفراد بعضهم لبعض ، وفى إبعاد بعضهم عن بعض

تبعاً للظروف والأحوال الماضية والحاضرة بين المتزاحمين على الحياة - أينما وجدت ووجدوا - بقوى الأمل واليأس والمضى والحاضر موجوداً أو مفقوداً ، تبعاً للقيم المفترضة احتياطاً أو ظلماً لما نسميه القواعد والضوابط المقررة لدينا ، المليئة بالخلط والوهم والكذب المتعمد خلال اندفاعنا الذي لا يهدأ فى الإقبال على الجدة والحداثة وعدم المبالاة بغيرهما ، إعراضاً منا عما نسميه : القديم أو المتخلف أو الرث أو البالى أو المهجور المتروك !

مضاربة دائمة !

فحياة الأدمى فى دنياه ، يقظا كان أو نائماً ، هى دائماً مضاربة لا تنتقطع نهارة وليلاً منذ أن يولد إلى أن يموت ، - يحكمها ما لاحصر له من الاحتمالات ، يتداخل بعضها فى بعض بغير توقف . وقلما يفتن الأدمى إلى جانب منها فيحاول تعديل مسارها أو تحريكه أو إيقافه كما يظن أن فيه خيره فى الحال أو المال ، أو يلهمه أحياناً لأمدٍ ما - نجاحاً

يستحيل دوامه فيه أو في نسله من بعده . لأنه في استعداداته وإمكاناته وظروفه التي وجد فيها لا يتخطى عادة دنياه الظاهرة التي تتداوله وأمثاله بأطاييبها ومثالبها ، إلى ما وراءها من الأعماق ، فإن نجح في الوصول إلى معالم بعض هذه الأعماق ، فإن جهده قد لا يقوى على محاولة الوصول إلى القرب منها ، فيستغنى عن ذلك الوصول بالالتصاق الخارجي الدنيوى بفذ أو أكثر من أفذاذ المتعمقين السابقين أو المعاصرين أو لمن يعتقد أنهم كذلك من المهتمين بالعلوم والفلسفة والآداب والفنون والصوفية والتصوف ، يتلمس في أعماقهم ما قعدت به أعماقه - إن كانت - عن الوصول إليه !

أطوار الزمن !

المتأمل في أحوال الجماعات منذ كانت ، يلحظ أن الجماعات القديمة قد ثالت عليها صنوف متنوعة مختلفة من الأحداث ، ما بين الأمجاد والمحن ، والعزة والذل ، والقوة والضعف ، والثراء والحاجة .. وغير هذه الأحداث وما أحدثته

من ندوب وحفائر تأصلت واستحكمت فى نفوس الأجيال ،
إلى الجيل الحالى رغم ما بلغه من تقدم وتطور ، أصول
وعروق لإحساس دفين - يختفى ويظهر - بالتشاؤم وتوقع
الخبية أو الإخفاق وانتظار الهزائم أو المبكيات !!... وهذا كله
معالم ليأس متجمع مزمّن ، عميق وغائر .. لم يعد فى الإمكان
اقتلاعه من أعماق الحاليين برغم أنهم لم يعيشوا بنواتهم ولم
يشهدوا بأنفسهم ذلك الماضى السحيق أو البعيد أو القريب
بما كان فيه من تعاريج وأحداث ، ومع ذلك وجبوه فى طيات
عواطفهم ومخاوفهم التى انتقل اليهم بعضها عبر طبقات
متتالية من الأجداد والآباء ، فصار الراقد فى هذه الأعماق
كالغريزى .. هذا الشعور الغريزى بما يحمله من يأس عميق
مزمّن ، تشهد به لغات البشر واعتقاداتهم ومشاربهم
وأمانيتهم وأخلاقهم وطباعهم ، وتورى به إليهم آثار هذا
الماضى فى معظم مدنهم وقراهم وحقولهم وحصونهم ودروبهم
وأنهارهم وشواطئهم .. يحمل كل ذلك علامات وحكايات
الماضى فى تشكل مجارى الأنهار أو تكوين طرحها ، وفى

تأكل الشواطئ وما أصابها من نحر عبر أجيال ، وفي آثار
ومتروكات الماضي التي انتقل بعضها إلى المتاحف والمعابد ،
وتغلغل في فنون الناس وأدابهم وتقاليدهم وتواريخهم .. فما
كانت هذه الطبقات المتراكمة لتختفي تماما من دنيا الحاضر ،
وإنما ستبقى ويبقى أثرها مع الناس وفيهم إلى مستقبل ما
.. فمن المحال أن ينقطع حاضر الناس كلية عن الماضي
وأثاره .. لا يغير من ذلك طغيان الحاضر المائل على صفحات
وعى الناس ، ولا انشغالهم بهمومه أو تفاهاته .. فليس في
إمكانهم أن يعيشوا حاضره اليوم من فراغ ، وبلا ماض
يتذكرون بعضه ويتمسكون بجانب منه ، وليس في إمكانهم أن
يعزلوا حاضره بأطاييه ومثالبه عن تاريخ مجيد في أعينهم ،
ينظرون إليه في اعتزاز يصاحبهم في صعودهم ، ويعزيمهم
دائما - عما يمكن أن يصادفهم أو يحتمل أن يصيبهم من
إخفاقات أو مرارات !

لقد اعتدنا إلى يومنا هذا فى الجماعات كلها ، على رؤية وجود الفقر والشقاء والحاجة والعوز ، وعلى رؤية وجود الحياة الخشنة القاسية التى قد لا تسمح لمن يكابدونها بالتقاط الأنفاس ، ولا بشئ من الهدوء ، مثلما لا تسمح لهم بقدر معقول من الراحة يتيح أو يسمح بالتأمل والفهم والاختيار والتفصيل !

وقد اعتدنا - نحن البعيدين عن هذا البلاء المزيج ، وعن نصِّبه ومكابداته - على رؤية مكابدى هذا البلاء بتسليم مجبول بترفع موروث من قرون وأباد ، حتى بات ذلك كله فى نظرنا سرمديا طبيعيا ليس منه بد ولا مفر ، وأنه لا يحتاج إلى تفكير أو مزيد تفكير لأنه غير قابل للتغيير !! وقد يتصور بعضنا أن ما يحتاجه هو الحرص على الابتعاد والنأى عنه ، وأنه لا بأس فى ذلك ولا تثريب ما دام الابتعاد مصحوباً بقدر من الإشفاق .. يبذله المشفقون من بعيد أيضا .. ولا يحبون فى إشفاقهم أن يواجهوا أنفسهم بحديث داخلى خفى دائر فى حناياهم يزين لهم أن ذلك ضرورى لنواميس الحياة ،

ويقصصون أنه ضرورى لخدمة مصالحهم ومشاريعهم
وإرافقهم وأسرههم ، ولا بأس من أن يكون لخدمة راحتهم أو
ترفهم أو لهوهم أو أحزانهم وأفراحهم !

هل تجديدنا وفرة المعارف ؟!

هذا " النظر " ينحل فى صفحة وجدان أصحابه إلى
اقتناع - برىء أو خبيث - بأن ذلك ضرورى لوجودنا كله .. فلا
يجدينا تبعا لذلك كثرة أو نمو وتطور المعارف والكشوف
والقدرات والمخترعات والآليات ! .. ينسل من هذا " النظر "
أن التقدم الحضارى الذى نشهده اليوم ويدين بكثير الكثير
إلى أهل الكفاف والحاجة ، يقتضى حتما وعموما - فى هذا
النظر "الأحول " !! - ضرورة انقسام البشرية فى كل أمة
إلى " محتاجين " دائمين غير قادرين فى الغالب الأغلب على
التخلص من احتياجهم ، وإلى " سادة " يستحيل أن
يتخلصوا من تسيدهم وتميزهم .. هذا " التسيد " الذى
تحقق لهم ربما بالغزو أو الفتح فى الزمن الغابر ، وربما

بسطوة الطبقة عبر أجيال ، أو بتراكمات الملكية ، أو بسطوة المال أو الوظائف أو القربابات والمصاهرات والعصبيات والتحالفات ! ..

ومع التسليم بأن هذا " الانقسام " حاصل إلى الآن ، إلا أنه لا يرجع - فيما يبدو - إلى حكم الطبيعة أو الغريزة ، بأكثر مما يرجع إلى سيطرة " الأنانية " كلما سنحت أمامها الفرص واتسعت لها - لبعض الناس ! - المناسبات والساحات التي عضت خلالها هذه " الأنانية " بالنواجز على ما أنجزته لأصحابها ، وتشبثت بغير حد بما وصلت إليه وجاوزته ، مع حرصها الشديد على زيادة ما أمكنها وبخلها الأشد على " التخلي " أو ترك " بصيص " للأغيار !.. لأن هذه الأنانية تشتهى وتطمع وتتمنى لصاحبها أكثر وأكثر ، لنفسه أو لمن هم في حكم نفسه ؛ ولأن الاشتهاء والطمع والتمنى من خصائص " الذات " أصلا ، تتضح وتطفو حين تتجمع " الذات " أو تنضوى في جماعة صغيرة أو واسعة!

وفيما عدا المتصقين بالأنبياء ، التصاقاً حقيقياً لا مجازاً - لم تعرف البشرية قط محاولة جادة لاقتلاع الأنانية أو للحد منها ! .. وربما كان ذلك فرعاً على تفادى " الذات " أو خشيتها من التضحية وفقدان المكانة أو الامتهان فى نظر الناس ! .. ومن المفارقة أن هذا ربما يؤدى إلى امتهان الأدميين للحياة ذاتها وزوال حرصهم عليها ، ومن ثم تعثر أو استحالة تكوين الجماعات البشرية إطلاقاً ، مع أنها هى التى تضمن بقاء واستمرار بقاء جنسنا !

مثالب الأنانية !

ومن الغريب اللافت ، ربما لغيبة أو نضوب أو ضحالة الأعماق ، أننا لا نفكر حتى الآن فى مثالب " الأنانية " الأدمية وأضرارها الجمة الحاضرة والمستقبلية ، وأخطارها الهائلة القادمة - تفكيراً هادئاً جاداً يلتفت إلى أصلها أو إلى توغلها واتساعها وانتشارها فى كل مكان من أرضنا !! .. كأن كلاً منا ينافس الآخرين بكل قواه على اقتسام الدنيا إن لم يكن

على التهامها !! وكأن هذه المنافسة العجيبة - الحديثة
والقديمة - لازمة لبقاء بشريتنا لا لفنائها !

هل يرجع هذا إلى اعتقاد " أحول " بحرية الأدمى المطلقة
تجاه الآخرين ، ما دامت هذه الحرية لا تتخطى حاجز
الجريمة أو تؤذى إيذاءً مستوجبا للمساءلة طبقا لقوانين أو
أعراف الناس ؟!!.. إن الوقوع فى هذه هذا " التحديد " -
الضرير - يتجاهل دور الأنانية المفرغة وتناقضها وإخلالها -
إذا تسلطت - بذات هذا " الاعتقاد " الطلى الجذاب الخادع
الذى تنطلق منه "متسرلة " - متجملة " بالحرية !!

يبدو أنه مع غيبة أو ضمور أو ضحالة الأعماق ، لا يقبل
أدمى أن يعترف بأنانيته التى رافقته منذ مولده ، ولا أن يقر
بأنها " المنجلة " التى تحصد ثمار عمل وجهد وتعب ونصب
الآخرين ، وأن إليها معظم العناء والتعاسة والشقاء ، وشيوع
الفاقة ومعظم الشرور التى أصابت وتصيب دنيا الناس !!

★★★

قليل وربما نادر ، من لم تطله " الأنانية " واعيا لذلك أو غير واع .. لم يشذ عن ذلك الصفوة المتميزون .. فقد طالت هذه " الأنانية " قليلا أو كثيرا - فى كل عصر - كل عالم وفيلسوف وحكيم ، ومكتشف ومخترع ، وباحث ومنقب ، ومؤلف وشاعر وفنان ، ورياضى واجتماعى ، وعسكرى وسياسى واقتصادى ومالى .. وهذه أوصاف ومسميات لمراكز ومواهب لدى الأدميين يتميزون بها على بقيتهم وكثرتهم الكاثرة .. فى كل أمة وشعب يتميز ويتمسك بها كل من كان من أصحابها أو منتميا أو منتسبا إليها - على عامة الناس ، وعلى نظرائه ومن يظن أنهم منافسوه ، يبرر لنفسه ذلك بما هو عنده - أو يتوهم أو يدعى أنه عنده - من النباهة والفطنة والقدرة والتميز !!

ومن قديم تميز عامة الناس بالسمعة المنتشرة أو الذائعة - بصورة أو بأخرى - من صورة ذلك التميز ، ولكن العامة قد تنكره على البعض مع من ينكرونه من الخاصة ، مجاراة أو استقلالا .. وفى ذلك الغمار الذى لا يهدأ قط ، تندس

«الأنانية» ولا تفلت فرصها التي قلما تخيب ، فترفع وتخفض، وتبنى وتهدم ، وتحى وتميت فى الانقسامات التي لا تخلو منها الجماعات فى كل جيل !

يبدو أنه قلما يشعر أى منا بذلك ، لأنه فى حالة التفات خاصة به ، ملتفت فيها - أول ما يلتفت - إلى ذاته ونصيبها من الدنيا . هذا الالتفات للذات لا مفر منه ولا بأس به إذا صاحبه إدراك واع أنه أوائل الطريق وليس كله أوغايته ، وأنه بدايات الحياة العاقلة المتطورة وليس نضجها وإزهارها وتامها ..!

لا يشك متأمل عاقل ، الآن وقبل الآن وفى آتى الزمان ، فى أن " الأنانية " بعد بداياتها الأولى لإيقاظ العقل ، تصير محض انحناء والتواء ينبغى على العقلاء التخلص منهما لا التمسك بهما - بالانحناء والتواء - على النحو المغرق الذى يجرى عليه معظم الناس فى اعتزاز واعتداد !

هل نترك ما اعتدنا عليه ؟!

كيف نتعود على ترك ما اعتدنا عليه نحن وأبائنا من تمسكنا الهائل بالأنانية ، ومن تصور كل فرد منا بأن " ذاته " مقدمة على كل من عداه ، وأنه سوف يوصم بالبلامة في نظره أو في نظر الناس إذا انساق إلى الحكم والأوبد والأمثال أن يحب للناس ما يحبه لنفسه ، فضحى بمصلحته الشخصية لأجل غيره أو لخدمة عامة لمن يستحقون أن تقدم إليهم من سنين وربما من قرون ! .. وربما ساقته تداعيات هذا المنطق إلى التساؤل متهمًا : لماذا هو بالذات يقدم ما ينبغي أن يقدمه - دون أو قبل غيره ممن هم أكثر بحبوحه أو قدرة ؟! - هذه وأمثالها تعلات مرددة غالباً في كل الجماعات ، متطورة وغير متطورة - لم يستطع من يمقتونها إسكانها فضلاً عن إخمادها ، لأنهم للآن وسيبقون إلى ما بعد الآن ، قلة قليلة لاتوجد للأسف أمارات جادة واضحة على تكاثرهم أو علو صوتهم وصيتهم ونفوذهم !!

لم يكن فى بال الناس ، حين أقبلوا على الحضارة الحالية وعلى الحضارات الغابرة - إلا المنافع الدنيوية المادية الحاضرة، وهى بطبيعتها " وقتية " تخدم وترضى "أنانية " الأفراد ثم " أنانية " الجماعة منظوراً إليها (للجماعة) كوحدة واحدة يفوز بخيرها أفرادها على حسب مستوياتهم الاجتماعية ، وما قد يتسرب هنا وهناك لبعض الأفراد من خلال تلك المستويات !

نقص التعلم ، أم غياب الفهم والتأمل ؟!

لم ينقذنا تعليمنا خاصاً أو عاماً ، عالياً أو متوسطاً - من حدة أنانيتنا ، بل لعله زادها ويزيدها فينا ، لأنه عادة يزيد فى التفات كل منا إلى ذاته أولاً وإلى أرجحية وتميز هذه الذات - قبل التفاته للآخرين قريين أو بعيدين ! .. فكم تروى القصص والروايات والأفلام عن جحود أبناء - بالآثرة - إزاء آباء وأمّهات فقراء حرّموا أنفسهم من لقمة العيش ليتيحوا لأبنائهم الجاحدين (التعلم والتميز) ؟! .. هذا الإغراق

أو الاستغراق فى " الأنانية " مرده فى الأغلب الأعم - فيما يبدو - إلى غياب الفهم والتأمل غيابا مجبولا بحب الذات والتوصل فيها وربما الإيمان البالغ حد العقيدة بأنها تعلو على كل من سواها وماسواها !! .. وذلك يؤدى إلى غرور وتعميم ساذج ينفصل عن الواقع، ولا يدرك فى هذا الانفصال أن هذه الذات التائه بها صاحبها يمكن أن تطنطى للضرورات والمطامع والشهوات ، وللمحن والخطوب والفواجع والنكبات ، أو لسطوة نوى القدرة أو الشوكة من حكام وغير حكام !

قليلون جدا من يتأملون بإمعان وتقوذة وعمق فى دور الذات الأدمية فى ذلك الخضم الهائل الذى يحيط بها من لحظة أن يولد الأدمى إلى أن يفارق الحياة .. هذا الخضم الحافل بعديد العديد من القوى المتضاربة العاملة المتفاعلة التى لا تنى ولا تهدأ .. قليلون جدا أصحاب الأعماق - الذين يصلون إلى درجة من الاتزان المتعادل الدائم أو شبه الدائم ، الذى يكفل لهم حماية الذات من شطط الغرور أو ذلة الهوان والتعرض للهلاك فى هذا الخضم الهائل الذى فيه يتضاعل

فعل وأثر " الذات " " الواحدة " تضارفا يدعو العقلاء
للالتفات إلى " نوات " الآخرين !

إلى يومنا هذا ، لم تعتن الجماعات البشرية ، متطورة
وغير متطورة ، بوظيفة " الذات " وفهم دورها على حقيقته ..
لم تفهم " الذات " ووظيفتها قدر ما فهمت أنوار المعرفة
والعلم والأدب والفن والفلسفة والدين والمهنة والحرفة
والصناعة والتجارة ، ولا قدر ما عاشت فى الرواج والكساد
وفى الأمان والسلام ، ولا قدر ما كابدت من القلاقل
والاضطرابات والثورات والحروب .. هذه " المفارقة " فى
نضوب فهم الذات ووظيفتها بالقياس إلى غيرها ، مرده فيما
يبدو إلى أن فهم الجماعات لما حصلته وعاشته وكسبته وعانته
وقاسته - من خلال الحضارات التى مرت بها وما زالت ، إنما
كان خاليا ولا يزال خاليا من الالتفات الجاد لفهم الذات
البشرية والاهتمام بحاجتها إلى ذلك " الاتزان " الذى يكفل
للذات اتساع الرؤية وعدم التحوصل ، وبقائها من شطط
الغرور وتوابعه !

اختلال اتزان الذات !

إن عدم اتزان الذات لدى الأدميين بعامه ، عادة مغرقة
إغراقاً شديداً فى القدم .. هذه العادة ترجع فيما يبدو لسبق
إحساس الأدمى بذاته على التفاته لعقله وقيمه . التفات
الرضيع ومن ورائه الطفل ، لإشباع نداء الجوع والفرائز -
يستدعى الإحساس بالذات قبل العقل !

وما صاحب الفرد صاحب البشرية فى بداياتها التى
امتدت دهوراً بالغة الطول قبل وجود ما يسمى بالحضارات .
ولذلك فإن " عدم اتزان الذات " آفة مزمنة فىنا صاحبينا
أفراداً وصاحبت جماعاتنا وحضاراتنا بلا استثناء !

ليس يمارى عاقل فى أن هذه الآفة - باتت تهدد البشرية
بعواقب وخيمة ، وأن علاجها واجب .. هذا العلاج وإن كان
بالغ الصعوبة ، إلا أنه غير مستحيل مع ما لدينا الآن من
انتشار وكثرة وبراعة وذكاء علمائنا ومفكرينا ، وسهولة
الاتصال والانتقال التى تتم الآن فى لمح البصر ، مع غزارة
معاهد العلم والتعليم بما لم تعرفه البشرية من قبل ،

وقدرة وسائل الاعلام على تغطية كاملة لكافة انحاء المعمورة،
نهارا وليلا ، وفى كل لحظة بلا توقف ولا انقطاع .

الفاقة والبطالة !

لا يشك العقلاء فى أن الفاقة وما يتبعها من بطالة قد
صارا وباء .. هذا الوباء هو أب لجميع الأوبئة الاجتماعية
والعضوية والنفسية .. وهو وباء عضال ، يستحيل أن يقاومه
مرضاه مهما بذل كل منهم للخروج من دائرته أو قاعه !..
مهما تعدد الناجون من وباء الفاقة والبطالة ، فإن " الوباء "
باق ما بقيت مساحة المصابين به كبيرة .. الالتزام بمقاومة "
الوباء العام " هو التزام " مجموع " وليس التزام فرد أو
أفراد ! . لن يتأتى الإبلال والشفاء من " الوباء العام " ما
لم ينفر له أصحاب الأعماق ، وما لم يستنفروا لمكافحته جميع
القادرين المعافين حكاما وغير حكام .. هذه المقاومة فرض
عين على كل فرد من أفراد أولئك القادرين ، لا يقبل منطق
العقل والبصيرة الانسانية - أن تعفيه منه أنانيته

وعنايته بذاته التى تموت فى النهاية ما لم تكن ضمن محيط
تنال فيه " نوات " المجموع ما ينبغى لكل منها من قسط ومن
اتزان تجاه الآخرين !

دنيا المغامرات والمقامرات !

لا يحتاج أصحاب النظر والأعماق ، إلى جهد كثير
ليتبينوا أننا لازلنا إلى اليوم نعيش فى جو مغامرات
ومقامرات القادرين التى تدور حامية فيما بينهم وبين بعض ،
يتطاحنون على المكاسب والخسائر التى لا تنقطع وتجرب
معظم البشرية إلى وباء الفاقة الذى يأكل الأخضر
واليابس ويدمى كثرة كثيرة من البؤساء والتعساء
والمطحونين !! ولم يعد فى وسع المسكنات أو المعونات
العامة أو الخاصة علاج ذلك الوباء المنتشر ، إلا بإبدال الفاقة
بالضعافة والغضب ، وإبدال البطالة بالبلادة والوقاحة . إذ
لم ترد هذه المعونات للمحرومين كرامة الشعور بالاستغناء أو
تعطيهم ثقة الواثق فى قدرته أو عمله - على كسب

معاشه ورزقه ، أو أنه حىّ حقيقى نافع ، سواء أمام نفسه أو أمام الملا !

ولأن أحكام آدميين - خاصة وعامة - هيعادة أحكام مندفعة بنت أو صنع وقتها أو لحظتها وظرفها ، خالية فى الأغلب الأعم من التأمل والتأنى والتبصر والمراجعة ، فإنها تكون فى كثير من الأحيان عرضةً للمبالغة أو الخطأ أو الوهم أو المجازفة أو الشطط ، وفى أحيان أخرى لعدم المبالاة وربما للزيف أو المخاتلة والخداع لمجرد إسكات رأى العام وتهديته . يشجع على ذلك أن رأى العام هو نفسه وقتى بل يومى وعرضة على الدوام للتغير وإعادة التشكل وأيضاً لذات تلك الدوافع السيئة أو الخبيثة التى تتحكم فى أصحاب التصاريف !

وربما تاه من رأى العام - أو اكتشف متأخراً - أن المعونات العامة الموجهة لعلاج البطالة والفاقة ، أغلبها شكلى سطحى يفقد معظم قيمته مع مضى الزمن والتضخم وارتفاع الأسعار وانخفاض قيمة النقود مع استمرار الكساد !

لم تنقلص الفاقة التى بناها ولا يزال بينها المقامرون
والقادرون على اغتنام وانتهاز فرص الكسب الطارئ بلا
تخرج أو مبالاة على عادتهم منذ أجيال إلى يومنا هذا دون
أن تفلح فى إثنائهم دعوات الأديان إلى التزام القصد
والاعتدال أو البر والإنفاق فى المعروف والخيرات والخروج
من الانغلاق فى دائرة " الأنا " إلى الإحساس بالمجموع
والتكافل الطيب معه.. تغالبهم " الأنا " المتحكمة فيهم فلا
يرون ولا يقدرن على رؤية سواها !! ومع أن هذا السلوك
المألوف الأنانى الجائر ظل مصدر ثراء لا ينقطع للقادرين ،
فإن أحداً لا يلتفت أو لا يلتفت بالقدر الكافى إلى ما
يحدث ويتراكم فى داخل الأغلبية البشرية التعسة من رفض
أو حقد أو غل متوارث ومتجدد سار على النوام فى نفوس
ملأتها المرارة التى تسرى - بسهولة الاتصال والانتقال - إلى
بوائر ومستويات لم تعرفها البشرية من قبل . لو تأمل
الغافلون لأدركوا أن هذا الرفض أو الحقد أو الغل المكبوت
تحول ويتحول إلى صراع علنى يأخذ شكل الأزمات

والاضطرابات الثورات هنا وهناك من أرجاء المعمورة ، وهذه
وتلك رجات عميقة شديدة الالتها ب تتوالى فى عالمنا الحاضر
وتهدده بأخطار لا يمكن التنبؤ بحودها !

وهذه الرجات ، الشديدة العمق والالتهاب ، وليدة
حضارتنا بلا شك ، ولكنها لا تبالى على الإطلاق بهذه
الحضارة ولا بما بلغت من تقدم وتطور ، ولا بما حققته فى
مجالات العلوم والفنون والآداب والاكتشافات والرياضيات
والاختراعات والاقتصاديات ، أو ما أسفرت عنه من عمائر
ومدن وعجائب فى كل غرض وكل اتجاه . وهذا فيما يبدو
مصدر فزع العقلاء ، لأن هذا التقدم بكامله وزخمه ووجهه
لم يمنع من عمق والتهاب تلك الرجات التى تهدد الحضارة
البشرية نفسها بأوخم العواقب !!

هل باتت حضارتنا كالعالم المصاب بإدمان المخدرات
والخمور ؟ . وما هو - ياترى ! - الباقى من عمر هذه
الحضارة إن كانت عاجزة عن الإفاقة من هذين البلاعين !!؟

الاعتكال ولفف المقادير !

هنا ربما يحسن أن نتذكر ما نحن عليه من الاعتكاد العام على الاعتكال على " لطف المقادير " ، وهذه العادة أو اللطف المتكل عليه - على درجات تتزايد أو تتناقص بحسب نقص الفطنة وكثرة العدد ، أو زيادة الفطنة وقلة العدد ! - وهذه العادة أو هذا الاعتكال بقيا مع مسيرة الحضارة والعمران البشرى ، وقد يختلف الأمر أو يزيد اختلافا فى الأيام المقبلة غير البعيدة نتيجة التراكم الذى بات هائلا دون أن تتفطن إليه البشرية أو تقاومه بما فيه الكفاية للحفاظ على ما أحرزته من الفناء الذى يمكن أن يطول البشرية نفسها بفعل هذا التراكم وأثاره المدمرة التى لا يعرف أحد لها حدا!!

ومن اللافت أن الاعتكال على " لطف المقادير " يصاحبه دائما ما يصيب كل نجاح بشرى من شدة تفاؤل الناجحين أو الفانمين تفاؤلاً يقارب التخدير ويصل بالمختورين بسكر

النجاح إلى شبه غيبوبة تنسى الناس فطنتهم والتفاتهم
الواجب لحساب عواقب الأمور !!

دنيا البشر الآن ، بكل ما نعرف من رقيها وعظمتها
وضخامة حركتها الهائلة الدائبة ليل نهار فى البر والبحر
والسماء - هى فى أكثرها دنيا أحلام مبهرة مشجعة وقد
تكون مسكرة تتجاهل وتغضى عما فى الواقع الحاصل من
حزن ومرارة وقسوة وتعاسة وهلاك !

يخشى العقلاء المجربون ، أن يدفع البشر جميعا ثمن
هذا التجاهل الفادح الضريع ، ذلك التجاهل الذى يتخفى فى
أضواء تلك الأحلام الوردية أو المخدرة ، لا يريد فى تخفيه -
بمنطق النعامة ! - أن تراه عيون لا حصر لها ، من بينها
المفكر والباحث والمنقب والمكتشف والمخترع والمؤرخ والعالم
والمتعلم ، ومن بينها الاقتصادى والمالى والسياسى والإدارى
والعسكرى ، وحول هؤلاء وأولاء الملايين بل البلايين من
العاديين الذين يقبلون وكثيرا ما ينتقون ما يلتقطون فى
تلقائية أو عفوية لا تقطن فيها ولا التفات !!

الحياة الصائرة !

إن المبادئ العامة ليست حقائق أبدية ، ويستحيل أن تكون ، لأن البشر - كأحياء - أبناء الزمان والمكان ، يستحسنون ويتبعون أحكاما جرت بها العادة على نحو فيه توافق ونظام وثبات لا يمنع من حلول مبادئ محل مبادئ باتت قديمة في نظر الجيل الجديد ، وهذه إحدى ظواهر الحياة الصائرة الدائبة ما بقيت على التغير نموا وتأخرا دون جمود كامل ، لأن هذه الحركة والتغير في ذلك الكون الصائر دائما ، هي علامة الحياة في الأحياء ، بل هي الحياة نفسها التي لا ينبغي لوعى وأعماق الأدمى أن ينصرفا عن فهمها وفهم ما يمور ويموج فيها !

الذات وشعورنا بالحياة !

نحن جميعاً ، كبيرنا وصغيرنا ، قوينا وضعيفنا ، ثرينا وفقيرنا ، عاملنا وعاطلنا لا ننسى قط - ومن المحال أن ننسى - أننا أحياء .. ويبدو أن شعورنا بالحياة فينا يلزمه انحصار

كل منا - نون أن يشعر - فى ذاته ، يوليها اهتمامه أولا
وأخرا ، ويقدمها على كل من وما عداها فلا يتقدمها قط أى
وزن لأى حياة أخرى لزوج أو ولد أو قريب أو حبيب أو
صديق .. بيد أن هذا الشعور الفطرى يتوارى وراء ما ألفه
كل منا ولاحظه عادة فى الناس بعامة وفى نفسه - من
احترام الأصول والأعراف والعواطف الأسرية والاجتماعية ،
وهذه المنظومة هى التى تخفى أو تخفت الظهور الزاعق
للإحساس والالتفات للآنا ، وتوارى - بقدر المستطاع ! -
الانحصار فيها وتقديمها على أى ذات أخرى .. ذلك أن أصل
الأصل فى الوعى بالحياة لدى كل آدمى هو " الذات " .. هذه
" الذات " هى صانعة الأنانية الفطرية ونبعها الذى لم يجف
ولن يجف فيما يبدو !

ربما يظن الظانسون أو نوو القلوب الخضراء ، أن المتوقع
- أو كان ينبغى - أن يهتم البشر مع تقدمهم وتطورهم
ورقيهم بتهديب تلك " الأنانية " التى تكاد حتى الآن لا
تفارق فطرتها لتحس بقيمة حياة الآخرين وترى نواتهم ،

بيد أن ذلك فيما يبدو لم يتحقق قط - أو لم يتحقق على نحو جاد - فى الأفراد أو المجتمعات وإلى اليوم !

ربما تجاوزت القلة النادرة هذه الحواجز ، والتفتت بقدر أو بآخر إلى " النوات " الأخرى فى الآخرين ، إلا أن أحداً من البشر بعامة لم يرتق إلى حد أن يعتبر ذلك فرض عين أو أى فرض على الإطلاق ، بل تنظر الأغلبية إلى ذلك باعتباره عبئاً ثقيلاً ، لا يكلف به آدمى العادى ، لأنه لا يكلف إلا بالتزامه برعاية نفسه ومن فى حكمها دون غيرها من خلق الله ! اللهم إلا أن يكون تبرعاً من باب البر فى معونة ضحايا الفاقة والبطالة قريبين إليه أو بعيدين !

والاعتذار بأعباء الذات ومن فى حكمها ، للإشاحة والإعراض عن الفاقة والبطالة الشائعة فى الآخرين ، يتلبس لدى المعتذرين أثواباً كثيرة من باب الحيل والآلات الدفاعية فى مقدمتها حيلة التبرير ، وهى كذب ولكن فى اللاوعى ، يبرر به آدمى لنفسه ما لا يستطيع أن يواجهها به من جنوح لا تقره الشيم الفاضلة . وفى بحبوحة هذه الحيل التى تتفتق عنها النفس

الإنسانية ، تتجاهل فى احتيالها أن ما يلزم النفس ومن فى
حكمها ويعز أو يحرم بالتالى على الغير - إنما هو
الضرورى النافع وليس الفاخر المعترف فى الفخامة والأبهة
ومجاعة لوازم المنزلة والمكانة فضلا عن الاستعراض وشهوة
الترف والظهور والكيف واللهم واللعب والمجون !
هذه الكماليات الوقتية والمناعم الدنيوية والاتلافات
المشثومة ، قد زادت للأسف فى أيامنا ، وصارت ملازمة
لإقبال الثراء ، ومالت إليها زمرة قد تدعى الثراء أو تبالغ
ادعاءً فيما لديها ، لأنها تحب أن تلتحق بالاثرياء فتتحو نحوهم
وتقبل - استعراضا وطلبا للسمعة ! - على ما يقبلون عليه
من مناعم وكماليات وإتلافات !! وقد كان أن أخذت هذه
الآفة تسرى كما يجرى فى الأوانى المستطرقة حتى شملت
فيما شملت حياة العامة حتى لم يعد هذا الملوك مستغربا من
أحد اللهم إلا القلة القليلة من العقلاء وأصحاب الأعماق !

غروب وانزلاق !

لم تعد جماهيرنا تحب البطولة والإقدام والشجاعة ،
ولم تعد ترى فى عالمنا الحالى إلا الحرص على الذات
والجربى وراء المال وابتغاء الراحة واللذة والاستمتاع ..
انزلقنا دون أن نشعر معظمنا إلى دنيا غير حقيقية وغير انسانية
تسودها الأثنية المسعورة ويحكمها المكر والخديعة والحيلة
وعدم المبالاة ..! لا نكف نهارا أو ليلا عن الكلام والحديث
ولا عن القراءة والمشاهدة بأنواعها وألوانها ، ولا عن الكتابة
بكل لغة وفى كل ميدان وعن كل موضوع ، ولا عن النشر
والبث والإذاعة ، ولا عن الوعظ والخطابة ، ولا عن عقد
وإدارة جلسات اللجان والمجالس بأنواعها والمؤتمرات بمختلف
أغراضها فى كل ربوع المسكونة ، دون أن يدعونا شئ من
ذلك كله إلى الالتفات إلى ما أشحننا بالقصد وبالإلصاق عنه ،
فأخذ يزيد وينتشر ويتضاعف فى العمق وفى الاتساع !

من حق الكائن الحى الذى راقب ويراقب البشر ،
فى ماضى من مضى وحاضر من حضر أو لم يحضر بعد —
أن يشكك فى كمال استعداد الماضين والحاضرين والآئين
للقصد والانصاف .. أفراداً أو جماعات .. هؤلاء إنما يرجون
" الإنصاف " لأنفسهم — بعضهم من بعض ، فإن فاتهم
الإنصاف طلبوه وأملوه فى الحظ الحسن من الأقدار
والنصيب ، مادام الانصاف فيما بينهم قد صار غاية صعبة
نادرة جداً حتى الآن !

لا تكف الأديان ودعاتها ، عن لفت الأنظار إلى وجوب
التكافل والتضامن ، وإلى البر والإحسان ، وإلى مكارم العطاء ،
ولا تقصر فى استدعاء كل المعانى الطيبة التى تورى بالفضل
لمن يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ولمن
يؤمنون بالكل ويرون الذات محض عنصر فى الأسرة
الإنسانية الكبرى .. ومع دعوة الأديان التى تربي أعماق من
يتجاوزون التريد الببغائى للصيغ إلى النفاذ للمعاني واكتفاء
لباب الدين .. نقول ، إنه مع دور الأديان وما توقظه فى نفوس

المتأملين ، ينتشر العلم والتعلم فى زماننا ، وهو رغم جموحاته وفواجهه قد عمق فى معظمنا التفكير والقدرة على التحليل والقياس واللواز بالمنطق والعناية بتتبع الظواهر الطبيعية وغيرها والاستخلاص من كل ذلك ، بما يلتئم مع الحنين والشوق الدينى فى تربية وإثراء أعماق الأدمى !!

نعم إن الإذعان لتسلط " الأثانية " قد بات للأسف بشعا فى انتشاره وتمكنه وتحكمه ، ولكن العلم قد فتح أمامنا — مع دعوات الأديان — الأبواب الواسعة لإدراك فواقع هذه " الأثانية " ووجوب التكاتف الجاد على نقلها وتهذيبها وردها إلى العقل والقصد والاتزان ! هذا الاتزان الذى يمثل الأصل الأساسى الذى قامت عليه كل أنواع الحياة !

التعاسة الحقيقية !

شقى تعيش تعاسة حقيقية من لا أعماق له ، تلك الأعماق التى تتشكل من طول النظر والفهم والتأمل الجاد ، ومن تراكمات المعارف والتجارب والقياسات والإدراك ،

وتكون بوحداتها وبمجموعها " داخل " الأسمى الذى يصاحبه
فى صحوه ونومه ، وحركته ومكونه ، وتعبه وراحته ..
لا يفارقه مهما أظلمت الدنيا من حوله ، ويصاحبه صحبةً تفنيه
عن التقاهات ، وتشده دائما إلى المعنى الكلى .. أعماق
الأسمى هى زاده الحقيقى فى المقسوم له فى هذه الدنيا ،
تتيح له الالتفات إلى ما معه من للنضج الفاهم الواعى لأبعاد
ومسافات الأمور البالغة الاتساع والتنوع ، وفى منحه فرصة
الإدراك والرشد الذى يعمق نظره ويشحذ بصيرته ويقوم
طريقه فى هذا الكون الفسيح الهائل المعجز للأفهام !

العمالة وصناعة النجوم !

أصيب الرأي العام ، فى مصر والعالم العربى بعمامة ،
بصدمة هائلة حين تسربت أنباء من كانوا يقبضون فى
الكواليس من صدام حسين !! زادت الصدمة غورا ، ليس فقط
بسبب اتساع المساحة الجغرافية التى غزت فيها أموال صدام
هذه الشخصيات وكانت تشمل كل أقطار الوطن العربى ، وإنما
للحجم الكبير الذى ظنه الناس لكثير من هذه الشخصوس التى
اعتقدوا أنها تجسد البطولة ، ورسوموا لها فى خيالهم صورا
سامقة شامخة ، تعلق بها البسطاء وربما غير البسطاء ،
وتوهموها الأمل وقاطرة العرب أوطانا وشعوبا فى هذا الزمن
الكسيح ، ثم إذ بهم يقجاون بأنهم " عملاء " حتى النخاع ، وأن
صورة البطولة الزاغة والنجومية الجانبية لم تكن إلا مستارا
تتحرك من ورائه دى تجرعت " العمالة " حتى الثمالة ، تبذل
نفسها وخدماتها لمن يدفع ، وتتحدر فيما تبذله إلى القاع ،

وتتمنطق أمام الناس بأثواب البطولة التى يصرفون بها الأنظار
عما يجرى فى التحوت والأسافل !!

شملت القوائم المتسربة زعماء وأبناء زعماء ،
ورؤساء ونواب رؤساء أحزاب ، وبرلمانيين ونقباء ، ورجال
أعمال وفنانين وفنانات - لبسوا أثوابا كبيرة وبدوا للناس
أشواوس يتقدمون الصفوف لقيادة الهوان العربى نحو الخلاص
المنشود !! يزداد استسلام الناس للصورة الكاذبة التى يبنونها
إليهم كلما اتسعت نجوميتهم وامتدت طولا وعرضا ، وسيطر
بهرها على البصائر فلم تعد ترى ، وعلى العقول فلم تعد
تفهم ، حتى تبعثر الإنسان العربى بين ضغوط القوى العظمى ،
ووطأة الاحتلال العسكرى والاستعمار الاقتصادى ،
وبين أنظمة جائمة ، ثم نجوم زائفين هم فى الواقع عملاء
فى الخفاء لهؤلاء أو أولاء ، يصرفون للبسطاء عن حقيقة
ما يجرى وراء الستار ويشدون أنظار المخدوعين إلى حيث
يراد للناس أن ينظروا ابتعاداً بهم عما يجب أن يروه
ويتأملوه ويعوا ما فيه !!

لم تخجلهم فضيحة الجعول التي انفجرت بعد أن أميط
عنها اللثام ، فلم يجدوا غضاضة في مزيد من التَّبجح يسددون
به بعض الفواتير المدفوعة إليهم مقدما ، ويدرأون في الوقت
نفسه — بخطّة وأسلوب السداد ! — وصمة " العمالّة " التي
عرتهم أمام شعوبهم !! أخذوا يستغلون بخبث غضب الأمة
العربية للهوان العربي الذي جسده غزو واحتلال العراق
والقبض المهين على رئّيسه ، ليخلطوا خطأ خبيثا بين صدام
والعراق ، وشتان بينهما !! .. العراق هو حبة القلب لكل
عربي ، بينما صدام الطاغية الذي جرّع العراق وشعب
العراق ، وأشعل حربا مجنونة أهلكت الحرث والنمل مع إيران
الإسلامية ، أتبعها — لمدارة الخيبة والهلاك الذي بثّه —
بغزو مجنون آخر لقطر عربي شقيق أشعل بآبار بتروله
النار والتي ظلت مشتعلة لسنوات !! ، وأحدث فلّقا في الجدار
العربي لا تزال تداعياته جارية بعوامها إلى الآن .

نعم حزن الناس واكتأبوا للقبض والأمر المهين ولكن
ليس لشخص صدام الذى بغى وتجبر ، وإنما إلى ما يرمز
إليه الحدث عن السقوط العربى الذى كان صدام نفسه
أحد معاوله ! .. لا يريد " النجوم " " العملاء " أن تتكشف
أبعاد المستور الذى افترض ، فتتابع إيقاعاتهم فى إلحاح وقح
للدفاع عن صدام وتجميل صورته ، أو بالأحرى مداراة
بشاعة عمالتهم !! بينما تتسرب الأنباء عن مبالغ أخرى تدفع
من أسرة صدام إلى " النجوم " الذين يتقدمون لاستعارة أنوار
البطولة للدفاع عن " الطاغية " المتجنى عليه !! ولا تتخرج ،
صحيفة كبرى من أن تورد لواحد من هؤلاء عموداً يلفو
ويهرج فيه ويتحدث إلى رئيس التحرير عن البطولة المرتقبة
التي سيتولاها لقيادة الدفاع عن صدام — كيف ؟! — ليس هذا
هو المهم ، وإنما أن يجد هذا " التهريج " سبيلاً إلى جماهير
البسطاء أملاً أن يكون الناس فى بلادنا قد نسوا أفاعيل صدام
للإساءة إلى مصر والنيل منها تبريكا للزعامة التي كان ينشدها
صدام بلزاحة مصر ودم الشعوب وجثث الضحايا والأبرياء !!

العمالة لعبة تمارسها الأنظمة ، و تمارسها الدول ،
تختلط أحيانا بالجاسوسية والتخابر ، وتتخفى أحيانا فى صور
براقة مصنوعة تساعد على دفع الرياح إلى الاتجاه المرسوم ..
أخطر أنواع العمالة خداعا للناس والشعوب ، تلك التى يضطلع
بها نجوم خرجوا قصداً من معامل ومصانع النجومية ..
فالنجومية والنجوم ، ليسا فى كل الأحوال طرحا تلقائيا ، وإنما
تدخله أحيانا ، بقدر كثير أو قليل ، صناعة مقصودة ،
قد تحسن نواياها ، وقد تمضى بها مآرب إلى بعيد بعيد
لا يظهر فى الأفق لمعظم الناس وربما للمراقبين والمتابعين من
أهل الفكر والنظر !!

وقد لا يبالى الناس بصناعة النجوم ، ولا بأس فى ذلك
ولا تثريب حين تستهدف النجومية المصنوعة ، ترويج الفنون
أو اللعبات الرياضية أو جلب الجماهير أو الترويج للشركات
السينمائية التى كانت تتبارى لصناعة " نجومية " للممثلين
والمخرجين والفنيين الذين تحتكرهم .. ولا بأس ولا تثريب فى
عدم الانتباه أو الالتفات إذا كانت صناعة النجم مستقيمة النوايا

والمقاصد .. وكثيرا ما تصالف الصناعة فى مثل هذه الحالات " مقومات " حقيقية لا تفعل " الصناعة " إلا صقلها وإيرازها وتقديمها وترويجها وإضافة " رتوش الصورة " المطلوبة إليها .. بيد أن الخطر يأتى حين تمارس هذه الصناعة فى لعبة الدول ، لاختلاق نجوم محليين تعدهم القوى الغالبة — كالاستعمار أو الاحتلال أو الاستيطان أو الهيمنة — للقيام بأدوار مرسومة وإحداث تأثيرات مطلوبة قد يبتعد زمان تحقيقها فتزداد الحجب التى تغطى على هذه الصناعة كثافة ، فتضى صناعة النجم إلى مأربها وغايتها ، وتتطلى على الناس الأنوار المعدة التى يقوم بها النجوم ، دون أن يدرك البسطاء القوى الخفية التى تنفع صورة هؤلاء لأعلى ، وربما انخدع ذات النجوم المصنوعين باستسلامهم المخدور النابع من ميل الفطرة البشرية إلى العظمة والصدارة والقيمة والصيت والوجاهة ، إلى غير ذلك مما يصاحب تشكّل النجومية — الطبيعية أو المصطنعة — من استسلام إنسانى للتيه والزهو ،

وانصراف بهما — قليل أو كثير — عن تأمل الأشياء وسبر
الأغوار والبحث عن الجنور الراقدة فى الأعماق !
لا أريد بهذه الكلمات أن أزيد صدمة الناس ، ولا أن
أعزى نجومأ صنعتهم " العمالة " والقوى المدبرة المنيرة لها ،
وإنما أريد فقط أن أدعو العقل العربى للتيقظ والانتباه إلى ما
يجرى فى الزحام ، فلا تخدعه الأصوات الزاعقة فى كل
الأحوال ، ولا يستهين بالوقار ، أو يسحب الإخلاص عن
الحكام الجادين .. فكم تتخفى " العمالة " وراء الصرخات
العنترية ، وكم بذل حكماء من أرواحهم وعصير حياتهم
لأسمهم فى إخلاص نادر وجد ووقار ، لا يتصدرون الصور ،
ولا يصطنعون الأمجاد ، ولا يعرضون أنفسهم أو أعمالهم
على الناس .. إن غاندى قد أقام الهند بغير صراخ ، وأقضى
ببساطة نادرة مضاجع الإمبراطورية البريطانية .. الخطر أن
ينخدع الناس عن الجد الوقور ، وأن يجروا وراء
الصرخات العنترية وتهاويم النجومية المصنوعة والبطولة
الزائفة ، فنتبهم الحقائق ، وتضل البوصلة ، ويمضى العرب

في تيه طويل لا يرون فيه بصيصاً حقيقياً يمسون به وسط
الظلام الذي تمرح فيه الخفافيش وتصادر الألباب والأفهام !

بل غياب العربية .. وفي غير ساحة القضاء أيضاً !

أحسننت صفحة الأدب بالأهرام ، حين طرحت قضية المناقشة تحت عنوان : ' لماذا غابت العربية من ساحة القضاء ١٢ .. ولكن ذلك يطرح سؤالاً أوسع : هل العربية هي التى غابت ١٢ أم أن ساحة القضاء هي التى غابت عنها العربية ١٢ .. يطرح هذا التساؤل ما قد يبدو للمطالع لما قيل من آراء تفصل الجزء عن رحم الكل ، وتتصور ' الطفح ' الموجود فى ' ربع ' بمعزل عن المرض العام الذى أصاب العربية فى إيماننا وغايتنا بها وحرصنا عليها وعلى قواعدها ومفرداتها وروحها ومواطن الجمال فيها !

مهما طال غياب العربية فى ساحة القضاء ، مراقبة أو كتابة للأحكام ، فإن هذا الغياب فرع على كل ، وطفح لمرض ضارب فى الأصايق يدهس العربية فى كل مكان ، ومن المحال أن تتعمق دراسة ظاهرة ما فى فرع ، دون أن ترد أسبابها إلى الكل أو المحيط الواسع الذى تتعكس أمراضه

على فروعه وأعضائه .. وأزمة العربية أزمة طفحت من قديم
وتتوالى تداعياتها حتى صارت تهدد بغياب عام يهدد اللغة
نفسها وينذر بتداعيات سوف تصيب بالحتم قدرة اللاحقين على
إدراك وتنوُّق وتمثُّل القرآن المجيد !!

تسرب العامية واللهجات المحلية !

تواجه العربية من قديم تعدد اللهجات المحلية ،
وتسرب العامية المحلية إلى استعمالات الناس قراءة ثم
كتابة ، وهي قضية شغلت — من زمن — أربابنا الكبار انشغالاً
حميماً جاداً ، بحثاً عن أسلوب وسيط يحفظ العربية الفصحى
ويقرب من لغة الناس ، ويراعى فيما يراعى دواعى العصر
أن تكون اللغة أكثر دقة وإحكاماً وانضباطاً ، وبعداً عن
الميوعة والسطحية والمجمع اللفظي والعقلي والمحسنات
البيعية الجوفاء .. ولكن من يتابع محاولات هؤلاء الكبار
يدرك مدى الجهد الجهد الذى بذله جيل الرواد مجدولاً بحرص
حريص على العربية والتزامها فى جدية مشهودة .. تلمس هذا

— على سبيل المثال — فى كتابات يحيى حقى الذى مع دعوته إلى أسلوب جديد فى محاضراته التى ألقاها بجامعة دمشق ونشرت فى كتابه " خطوات فى النقد " ، كان أحرص الحرصاء على العربية حتى أنه كان يمضى الساعات بين المعاجم ليختار أو ينحت كلمة عاشقاً حتى النخاع للغة العربية .. ولكن ما جرى الآن طوفان من الإيغال فى السطحية تذرع بالبحث عن لغة وسيطة توفيقية ، ليفارق الفصحى ويوغل فى مفارقتها ويستسلم " للعاميات " المحلية حتى باتت اللغة الفصحى بعيدة عن استعمال وربما عن فهم كثير من الناس ، واجتاحت الساحة اللهجات العامية مطعمة بألفاظ هابطة صارت تصافح عيون وأذان الناس فى الأعمال المسرحية التى تركت المسرح وقواعده وتقاليده إلى الرقص والزمر ، وفى الدراما التلفزيونية والإذاعية ، وأخذ هذا الزحف المستمر — يجور شيئاً فشيئاً ، حتى تسرب إلى كتابات الأدباء (١٢) والشعراء (١٢) — يتعلل بعضهم مداراة بمقتضيات واقعية ما يجب أن يدار من حوار على لسان الشخصيات

فى العمل الممرحى أو الدرامى أو الروائى أو القصصى
— بيد أن طوفان العامية والهبوط لم يلتزم بهذا الحد ،
ومضى لا يلوى على شىء حتى ابتعد عامة الناس عن اللغة
الأصل ، وصارت العربية الفصحى غائبة غريبة أو شبه
غريبة فى وطنها !!!

هذه الأزدواجية ، بين " الفصحى " و " العاميات " —
فهى ليست عامية واحدة ، شكلت وتشكل تحدياً حقيقياً ناحراً
للغة الفصحى ، ركب على ذلك عمق وتعقيد وجفاف أسلوب
تدريس اللغة فى مراحل التعليم المختلفة ، وتزواج ذلك مع
هبوط المستوى التعليمى العام الذى هجر من زمن ، الكيف
إلى الكم ، ثم جار الكم على أى اعتبار للكيف ، حتى صار
خريجو الجامعات يخطنون فى أبسط قواعد الإملاء ، ناهيك
عن الإمام بقواعد اللغة ومفرداتها ومتراجماتها وروحها وثرائها
— ذلك الذى دعا العقاد لأن يخصص كتاباً لها بعنوان : " اللغة
الشاعرة " — لأنها بثرائها تعين الشاعر على نظم القصيد
المحكوم بالجرس والمعمار الموسيقى ، والبحور والمصاريع

والتوافي ، إلى غير ذلك مما لا تقدر على إمداد الشاعر بأدواته فيه إلا لغة غنية واسعة الثراء فى مفرداتها وحركات إيقاع الألفاظ فيها تبعاً لموقعها من الإعراب بين السكون أو النصب أو الرفع أو الجر أو التثوين ، مما يتيح — مع غنى المفردات — بحراً زائراً من الجرس يعين الشاعر فى مهمته المحكومة بقوالب وضوابط وثقود لا تحكم كتابة النثر المرسل !

هجران الفصحى !

هجران الفصحى شائع الآن حتى النخاع فى كلام وأحاديث الناس ، وفى أغاني ومونولوجات المطربين ناهيك عن الزاحفين على الطرب والغناء ، وفى الحوارات المسرحية والدرامية والروائية والقصصية ، وفى معظم الكتابات الصحفية ، وزحف إلى لغة الآداب العامة بعد أجيال البنائين العظام ، ثم أخذ هذا كله يزحف إلى الإعلام المرئى والمسموع ، وزحف فى هذا المضمار يزحف بالحقم والضرورة على المجتمع بأسره .. كان المذبح قديماً يخضع

لاختبارات باللغة العمق والعرض ، تشتت فيه — فضلاً عن
الموهبة والصوت — ثقافة واسعة ، وإتقاناً تاماً للغة العربية
معرفة ونطقاً .. ولا مجال فى اجتياز هذه الامتحانات
لوساطات ولا محسوبيات ولا مجاملات ، فكنا فى صباننا
نضبط لغتنا العربية — نحواً وصرفاً ونطقاً — على مذيئنا
أمثال محمد فتحي وعبد الوهاب يوسف وحسن الحيدى
وصلاح زكى وعباس أحمد وفهمى عمر وسعد زغول نصار
وجلال معوض وفاروق خورشيد وطاهر أبو زيد وأحمد فراج
وفاروق شوشة — إلى آخر الباقية التى ظلت تحمى العربية
وتعربها بملاسة إلى وعى الناس ، فلما اتحدت الوساطات
والمجاملات ، بات علينا أن نحمل عربيتنا من أخطاء كثير من
الزاحفين الجدد الذين لا يعرفون اللغة ، ولا يهتمون بمعرفتها ،
ولا يهتم أحد باشتراط علمهم بها ، أو بتعليمهم إياها
أو محاسبتهم على الأخطاء الفاحشة فيها التى أخذت بدورها
تتمسك إلى وعى الناس ، فحلّ تعلم أو محاكاة " الخطأ " محل
ما كان من تعلم " الصواب " وضبط اللغة بالتلقى عن السابقين

العارفين ملتزمين بالعربية التزاماً دعا إذاعياً شاعراً متميزاً
كفاروق شوشة إلى المداومة لسنوات طويلة على بث برنامجه
الشهير : " لغتنا الجميلة " !

ندح المجتمع كله !

الندح الذى نراه هو ندح المجتمع كله ، وغياب العربية
هو إذن غياب عن المحيط العام ، وعن لغة وخطابات الماساة
والمسؤولين الكبار ، بل عن الواجب الثقافتهم بحكم تخصص
مواقعهم إلى حقوق اللغة وحدودها ، والاحترام الواجب لها
ولتقاعدها .. وهذا الغياب لا بد أن ينعكس بالضرورة على كل
ربع وعلى كل مجال ! هل نطمع فى عناية باللغة فى كليات
الحقوق المزحمة ببرامجها القانونية وبأعداد طلابها الهائلة ،
مع تواضع القماشة التى تأتىها بحكم تسعيرة مكتب التنسيق ؟
وماذا إذا كانت " البارومة " أصابت - وقد أصابت - كثيراً
من القائمين على التدريس بالجامعات ، فهل فاقد الشيء
يعطيه أو يمكن أن يعطيه ؟ .. لم نسمع عن لجوء العقاد وطه

حسين وأترابهما إلى مصححين لمراجعة وضبط ما يكتبون ،
بينما يكاد لا ينجو الآن كاتب ولا أديب ولا أستاذ عن الحاجة
الماسة للتصحيح والمصححين ، وإلا خرجت كلماته إلى الناس
بجرائر كبرى فى حق اللغة العربية لفظاً وبناءً وصرفاً
ونحواً !!!

ساحات القضاء !

نعم كانت ساحات القضاء ، مرافعة أو صياغة
للمذكرات والأحكام ، ميداناً فصيحاً ثرياً للعربية ، ونهض على
ذلك أسلاف عظام فى المحاماة والقضاء ، وكان ذلك حقيقةً
أن يمتد لو استمر التواصل ولم تنقطع أجياله .. ولكن الحال
تقطعت بفعل ندح المجتمع كله والضعف والوهن العام ، ثم هى
قد ساهم فى قطعها ازدهار القضايا وجورها على وقت
ومزاج القاضى من ناحية ، وعلى فرصة المحامى فى
" الأداء " من ناحية أخرى !!.. كانت الأحكام فيما سلف قطعاً
أدبية رائعة ، يكتبها القضاة بمزاج عال وشغف ملحوظ باللغة

وإمام بقواعدها وأسرارها ، ولا يزال هذا التغم الرقيق محفوظاً
فى صياغة أحكام المحكمة الدستورية العليا يساعد عليه عدم
تسرب " طوفان " القضايا إليها مع شيوخ لحقوا وأخذوا من
الزمن الجميل ، وفى أحكام محكمة النقض التى يجاهد شيوخها
للحفاظ عليه موصولين بتراث عبد العزيز باشا فهمى وأترابه
— يعانون نصيباً هائلاً إزاء ترايد طوفان طعون النقض التى
بلغت أرقاماً فلكية ١ ..

جميل أن نتحدث عن " المخضرمين " فى القضاء
والمحاماة ، الذين امتلكوا العلم وامتلكوا ناصية اللغة ، بيد أن
امتداد هؤلاء مرهون بتواصل الأجيال ، والتواصل قد تحفظه
المدونات ، وتنقله إلى الأجيال ، ومع ذلك بحث أصوات
العارفين دون جدوى — لإعادة طبع العمل الجليل الذى نهض
عليه فى الخمسينيات المرحوم محمود عمر " باشكاتب " محكمة
النقض حين جمع فى " مجموعتى " القواعد القانونية — أحكام
محكمة النقض المدنية والجنائية من بداية عمل المحكمة حتى
عام ١٩٤٩ حاملة النصوص الكاملة لدرر الأحكام الرائعة

المجدولة بلاغةً وأدباً فى تلك العصر الذهبى الذى مهد
وعبّد طريقه هؤلاء الأسلاف العظام .

القضية الحيوية التى أثارتها صفحة الأهرام الأدبية ،
تستوجب أن نطلق صيحتنا فى جميع الأرجاء أن نعيد إحياء
لغتنا العربية فى التعليم والإعلام والأدب والثقافة ، وأن نجند
لهذه الغاية حملة جادة بخطة قومية شاملة تعيننا إلى لغة
الضاد !.. يومها سوف تعود العربية (الغائبة) إلى ساحة
القضاء وإلى الدنيا بأمرها !

حياة الأدمى بين عقله ومطالبه !

زيادة مخ الأدمى زيادة هائلة عن مطالبه كنوع من أنواع التثبيات العليا هي زيادة مشهودة مشهورة ، يكفيها بياناً أى نظرة ولو عاجلة لقوة الشحن والدفع والحركة والنمو والبحث والنظر والتجربة والمراجعة التى يدفعها مخ الأدمى ، والتى لا مثيل لها فى باقى التثبيات والكائنات بعامة التى لم تجاوز قط طلب الطعام والشراب .. وهذه الزيادة الهائلة فى مخ الأدمى معناها أن حياته معقدة جداً وأن تعقيدها هائل ، وأن هذا التعقيد الهائل طبيعى وحتمى فيها ، وأن محاولة تبسيط هذا التعقيد أو وقفه — محاولة غبية تعارض الطبيعة ومصيرها الفشل حتماً .. ومع ذلك لا ينقطع فى أى عصر من يحاولون للتبسيط ووقف التعقيد لأن هذه المحاولة وراءها الخوف والحرص على الأمن والراحة من القلق ، والاقتصاد فى المجهود والتعب .. وهذه نوافع موجودة فى عالم الحيوان ، ولكن الذى يزيدها حدة وشدة فى عالم الإنسان

هو الإمكانيات الهائلة لمخ الأسمى التي لا تكف عن إثارة هذه
 الدوافع بشكل أو بآخر .. فى كل لحظة حتى أثناء النوم !
 والعزلة هى إحدى هذه المحاولات لاختزال
 حياة الأسمى أو تبسيطها ووقف تعقيداتها . نجدها حتى الآن ،
 فى المبالغة فى التأمل والسكون ، وفى الاعتكاف والخلوة
 للعبادة ، وفى النسك وفى الرهينة ، وفى معامل الأبحاث
 والمراسد ، وفى المثابرة على البحوث الطويلة فى دراسة
 حياة الحيوان والنبات ، وفى الطبيعة وما تحفل به فى البر
 والبحر والفضاء .. وفى المهن والحرف التى تقتضى قدراً
 من الانفراد — كالخفارة والصيد والرعى .
 ومن العزلة ظهرت وتظهر ألوية القناعة ومحبة
 الآخرين والرضاء والسلام .. وظهرت وتظهر قيمة الكل
 والكون والعالم ، وحاجة الأسمى إلى رؤية عريضة عميقة
 لوضعه ووضع نوعه ومحيطه إزاء الكل أو الكون والعالم ،
 وما يفرضه عليه هذا الوضع من الالتزامات لكى يتحقق له

الرضاء والسلام والأمان خلال حياته الدنيا أينما كانت هذه
الحياة !

ومن العزلة وتأملاتها ، يتحرك ويدخل إلى عالم
الأمى خياله وتصوراته تلك التى لا حد لها فى مسيرة وعمل
عقله وعواطفه ونسيج حياته كلها - واعية وغير واعية .
وعلى مدار عمر البشرية انتفع الأمى ولا يزال ينتفع بهذا
الخيال وهذه التصورات ، فصعد وهبط وقفز وسقط وتقدم
وتأخر .. لذلك ظل الأمى يتحمل دائما احتمالات الخطأ
والصواب ، والفشل والنجاح ، والخسارة والكسب فى تطوره
وتغيره الدائمين ديمومة نوعه منذ بدأت حياته على هذه
الأرض !

وفى رحم العزلة ينمو جنين الأصول والمبادئ الكلية
العامة ، لأن عقولنا تفرغ وتنتج فى العزلة وفى الاعتكاف ،
تعاف الزحام والضجيج الملازم له .. نلك الضجيج الذى
يحجب انتظام خيط الفكر بكثرة المناقضة والخلاف - ولذلك
مست الحاجة عند استخلاص وتطبيق الأصول والمبادئ

الكلية ، إلى الشرح والتفسير والتأويل لمعناها أو لنطاقها ،
وعندئذ يكون الأصل أو المبدأ قد صيغ وقوى وأصبح قابلاً
لاعتراك العقول والمصالح عليه ، وللانتفاع بتأييد وإمداد
الأذهان المؤيدة المحبذة له ، والانتفاع أيضاً بنقد وتعديل
الناهدين والمعدلين .. حينئذ خرج من بساطته في عزله إلى
تركيبه وتعقيده المطرد في جماعة حية تواجه تغيرات ظروف
المكان والزمان التي تتلاحق بلا توقف ولا انقطاع !

والعزلة مرحلة توالد وحضانة فقط .. لا غنى عنها
لاستمرار الحياة البشرية على الأرض ، وهي حياة معقدة
شديدة التعقيد .. يزداد تعقيدها مع طول العمر وزيادة فرص
التواصل والتقابل والتأمل سواء على صعيد السلام أو في
ميادين المواجهة والكفاح والمنافسة والمحاربة والصراع ..
ويمتدحيل وقف تعقيد هذه الحياة أو ردها بعد تواجدها في
محيطها الخارجى الحى إلى البساطة الأولى ، لأن وقفه هو
وقف لنمو الحياة البشرية ، ومحاولة إيقاف نمو الحياة تشبه
محاولة رد الطفل الذى رأى الوجود الخارجى إلى الرحم

أو إعاقة نمو المولود لكى يظل عمره كله طفلاً كعملية
" البونساي " اليابانية فى الأشجار !

فالفاسك والراهب - من هذه الزاوية - بونساي بشرى ،
وكذلك العاكف فى حياته على البحث والدراسة فى مختبر
أو معمل أو كلية ، أو المتأمل فى تجوال بالمكان أو الزمان ،
أو الباحث فى حقل أو غابة أو جبل أو صحراء أو بحر ..
وأولئك موجودون فى كل جماعة فى كل عصر .. وهم دائماً
قليلون عدداً ، وهم يختلفون فى الانعزال باختلاف الأغراض
والتنظيمات والميول والاستعدادات ، وبإختلاف الزمان والمكان
والمواهب .. ويختلف تأثيرهم تبعاً لاختلاف تطوّر المحيط
فيشتد فى المحيط العاطفى التصديقى والأيدىولوجى ، ويقل فى
المحيط التجارى والصناعى العلمى أو البراجماتى ، وربما
كان ذلك سبباً من أسباب ندرة ادعاء النبوءات فى القرون
الخمس عشرة الأخيرة - ومفسراً لمحدودية نفوذ البهائية
والتديتائية والأحمدية فى القرنين الأخيرين !

ولأن اشتداد تركيب وتعقيد حياة الإنسان حتمى ولازم
يتزايد ويتطور مادامت حياة نوعه تنمو وتتطور — لزم أن
يتوازى الإنسان بما يكافئ ويساير ويواكب ذلك سابقاً تارة
لاحقاً عليه تارة أخرى . كيما يكون على معرفة بمعالمها
وطرق العيش فيها وشبكات وروابطها الحاضرة والماضية
والمحتملة فى المستقبل وخطوط الاتصال وفرص النجاح
والفشل فى ممارستها وبيان مساقطها وأخطارها ومحاذيرها فى
الحال والمآل .. وتبعا لذلك نشأت وتطورت معارف البشر
بأنفسهم ومجتمعاتهم ومحيطهم ومآلهم ، ونشأت وتطورت
العلوم والآداب والفنون والتقنيات والصناعات والحرف
والأعراف والقوانين والحقوق والواجبات والأخلاق والأديان ،
وأقيمت ونمت القرى والمدن والأقاليم والدول والحضارات ..
وذلك كله أية أية على التركيب والتعقيد الذى تتميز به
حياتنا عن حياة أشقائنا فى عالم الحيوان ، وعلى أن فقد
أو إضعافه أو محاولة إيقافه رجعة واردة إما إلى البدائية أو إلى

الحيوانية تعارض الطبيعة ومآلها إلى التحلل والفشل
والإخفاق !

إن زيادة مخ الأسمى زيادة هائلة على مطالبه كنوع من
أنواع التثبيات العليا ، يجب أن يضاف إليه ميل الأسمى كفرد
إلى الاجتماع بأمثاله وأن هذا الاجتماع فرصة متاحة دائما
لأن يضاعف الإنسان هذه الزيادة الهائلة — إلى غير حد —
ومن هنا نفهم مصدر قوة الحضارة البشرية وضخامتها
غير المحدودة !! هذه الضخامة التي تشهد على رقى الإنسان
بعقله فى عالم المخلوقات ، وقدرته بهذا العقل — مع الاجتماع
— على أن يصنع الحياة ويبنى ما بناء ويتطلع إلى مزيد من
البناء ليقوم عمران الحياة التى حضت الأبيان على عمارها !

فكرة للتأمل !

يعتمد الأسمى إذا لاحظ تفوق قدرته على غيره ، على
هذه القدرة فى تأكيد تفوقه وزيادته وتكريسه ، ويعطى له ذلك
ثم يراه حقا له على الآخرين يجب عليهم التسليم له به ،

ويطيب له هذا التسليم ويرضيه أن ينتشر ، فإذا انتشر أحس أنه
أسمى من الآخرين ، وربما سرى هذا الإحساس منه إلى
عشيرته ، فيحس وتحس هي الأخرى معه بامتيازها على
غيرها ، وتجتهد في تفسير ذلك الامتياز لقطع الجدل بشأنه .
وكل تفسير مقبول مادام يستهدف تحقيق هذا المقصود ومسامح
يجد من يقبله !!!

الندرة والوفرة ، والاحتياج !

يقول علماء الاقتصاد إن الاقتصاد هو علم " الندرة " ،
يشيرون بذلك إلى المشكلة الاقتصادية الناجمة عن كثرة
وتنوع " احتياجات " الناس أفراداً وجماعات ، وبين " ندرة "
أى قلة ومحدودية الموارد وعدم كفايتها لإشباع هذه
الاحتياجات ! .. ويقول علماء النفس والإنسان ، ومن قبلهما
تقول كتب الأديان إن حب المال والاقتناء خاصية آدمية ،
أفصح عنها القرآن المجيد ونبّه إلى أن الناس مزين لهم حب
الشهوات والمال .. والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة
ومظاهر الثراء .. معظم الناس — فيما عدا القلة النادرة ،
لا تكتفى بما يحل المشكلة المزمنة بين الحاجات والموارد ،
وإنما يجاوزون ذلك إلى طلب الثراء والإمعان فى السعى إليه !
كل آدمى يشتهى الثراء المادى اشتهاً قديماً قدم
البشرية ، فالمال فى زماننا كما فى الأزمان السابقة — يتسنى
قمة مصادر القوة المادية ، لأنه عبارة عن قوة مركزة يسهل

للأسمى أن يستعملها في تحقيق آلاف الرغبات والأغراض ،
من أجل ذلك تعلق الناس ولا يزالون يتعلقون به ،
ويدركون في تعلقهم أن الثراء امتياز لا يتميز به إلا فريق
محدود العدد ، يتميزون بالمال والثراء على الكثرة الكثيرة ..
لأن المال في حد ذاته مزية كبرى في نظر الأسمى تتيح له أن
يقتنى ويحوز وينال ما يتمناه أو يرجوه أو يرغبه من الأشياء
والممتلكات ، ومن الخدمات وما يجري نحوها مما يريد
الأسمى إشباعاً لرغباته المادية أو الحسية أو الأدبية أو المعنوية
.. تنصب في هذه المزية - مزية المال - كل أو معظم
رغاب وأغراض " ذات " الأسمى وتوفر له ما يريد
دون احتياج - فيما يراه ! - لأي سند آخر علمي أو اجتماعي
أو سياسي أو ديني أو أخلاقي !!

يندر لذلك ألا يكون الثرى مشغولاً عن ذاته ، فكل
ثرى - كريماً في الاصطلاح أو غير كريم - أناني
بواقعه ، لأن الكرم - إن كان ! - لا يذهب الثراء الذي يتميز
به الثرى على أغلبية خلق الله ، سواء كون نفسه هذا الثراء

بالكد والعمل ، أم تلقاه ميسورا بالميراث بلا نصيب
ولا تعب !! .. فهذا الثراء أيا كان مصدره - يفضل الثرى
ذاته على " جمع " الكثرة التى تخدم الأثرياء أو تروم نوال
هذا المراد فلا تبلغه ، أيا كانت أنواع هذه الخدمات وقيمتها
النوعية أو الكمية .. فكل أولئك مفضولون أمام ذات الثرى
الملققت إلى ما يتميز به على الناس من ثراء !!
والثراء فى زماننا هائل .. لم يشهد مثله زمن سابق
سواء فى كثرة الأثرياء أو فى ضخامة الأموال .. كما لم يشهد
زمن سابق هذه الأغلبية الغالبة من أهل الفاقة والبطالة ،
والياس والحقد المتأججين مع الشقاء والتعاسة ، تكتسح هذه
الإحباطات - الجموع المروعة بهمومها المتراكبة المتواكبة ،
فلا تجد أمامها من سبيل إلا محاولة أن تنقاسها - فى الخمر
والمخدرات الرخيصة ، وفى التسكع والتجمع للمشاهدة
والشغب تنقيساً لما يغلى فى الصدور دون أن يصانف ما يبرده
ويريحه مما لدى الأقلية الغنية أو من بعض ما عندها !

وقوة الثراء المالى معترف بها منذ وجدت الجماعة ..
يشعر بهذه القوة من هى فى حوزته ويطمع فى زيادتها ، كما
يشعر بها المحروم منها الذى يتمناها ويدبرها فى خياله
وأشواقه ويشتهيها ويأمل أن يقتنصها إذا لاحت له فرصتها
أو فرصها .. ففيماء عدا الأنبياء والزهاد والرهبان ، يرى
حائزو قوة المال أو المتمعنون لها ، أنها من العوامل الحاسمة
دائما فى ترتيب وتحديد الطبقات الاجتماعية من قمتها إلى
قاعها ، وأن السيادة فى الجماعات البشرية هى سيادة الأقوياء
والأغنياء ! .. منذ وجدت الجماعة لا يسود فيها القوى الفقير
إلا نادرا جدا ، مثلما نجد فى نبوات الديانات الجديدة التى
انتشرت وانتصرت وكونت جماعاتها الأولى القادرة على البقاء
والانتشار بقوة عقيدتها وكفاحها الناجح المنتصر . فالركن
الركين فى وجود أية جماعة بشرية هو وجود السيادة التى
تجمع مع القوة الفعلية (أيا كان أساسها) - قوة المال الذى
تستخدمه فى تنفيذ أغراضها الذاتية والعامة !

و' السيادة ' نفوذ سائد على مسؤولين ، يستحيل بدونها أن توجد جماعة بشرية تبقى وتعيش حياتها، وهى تفترض وتفرض لنظامها ولأداء أعمالها وأغراضها التى يقتضى دوامها. (!!) وثباتها (!!) — وجود الترتيب (!!) والتحديد (!!) للطبقات الاجتماعية فى الجماعة المحكومة بهذه أو تلك من أنواع السيادة !!

فلم تستغن أى جماعة فى أى زمان ومكان ، عن سيادة تبرز وجودها ' داخليا ' لمن تشملهم ، وتبرز وجودها ' خارجيا ' للجماعات الأخرى وأفرادها ، وتمثل وتضبط وتسير وتضمن السياسات العامة والنظام العام والأمن وسلامة الاقتصاد والأمان الاجتماعى والحماية المادية من العدوان الخارجى . فلا تستطيع أية جماعة أن تعيش دون سيادة تنهض بهذه الأغراض فعلا أو افتراضا ، وهى دائما فيها مزيج مما هو فطرى وفكرى تقضى — وفرضى وفعلى ووقتى ومستمر ومطرود ، وفيها الذكاء والدهاء والعناية واليقظة والفساد والنسب والبلادة والإهمال والبناء .. ونادر فى إعمار أى سيادة

وجود " العبقرية " الفذة واسعة الرؤية والتصوير والاقدام
والمثابرة والصبر ومواجهة الأزمات بالحنكة التى لا تنقصها
الحيلة !

غياب الفطنة !

وجمهور الناس فى الجماعات لا يظن غالباً لهذه
الفروق ، ولا يعرف عنها إلا ما يصل لسمعه أو يقرؤه من
الشهرة الحسنة للحكام والقائدين أو القالة المبيئة التى تجرى
مجرى الشائعة أو الحقيقة ، لا يلتفت للتغاضى مدركاً إلا إذا
أيقظته الأزمات أو المحن أو الكوارث التى سرعان ما يتقاعها
ببث الاتهامات بالفساد والإفساد والتقصير والعجز — وأحياناً
الخيانة !

والجود والسخاء والكرم والعطاء والمروءة والشهامة ،
وكذلك السماحة وحب الخير والنجدة والتبرع فى النكبات
للمنكوبين والمساكين ، كلها مزايا وفضائل منذ القدم ،

محصورة — حقيقة أو ادعاءً — في السادة الأغنياء والأثرياء ،
على أهل الفاقة والحاجة !

وأصحاب هذه الفضائل — كثيرة كانت أو قليلة —
لا يفتقرون قط — للتمرد أو قلة الولاء أو النكران —
من جانب الأخنين المحتاجين ، لأن هذه الكثرة من نوى
الفضائل " المنعمين " (١٢) تتوقع من هؤلاء المنعم عليهم —
الشكر والحمد والثناء والعرفان والدعاء والولاء على النعمة
التي أسبغت عليهم والعطف الذي تلقوه والحنان الذي فاض
عليهم نون فرض يفرض أو إلزام يلزم الموسرين المنعمين
الرحماء المتبرعين الخيرين بهذه الإنعامات !

مرد ذلك كله فيما يبدو ، أن الموسر لا يتمتع حياة من
حوله من الناس وما فيها من جفاف وخشونة وضيق وقسوة
وحرمان وكد وتعب وإذعان وتسليم وآلام وأمراض وعجز
ويأس وتعامية وغير ذلك مما يصاحب أصحاب الاحتياج
والفاقة حتى يختفوا بانتهاء الحياة !

• • •

لا تكتفى الغالبية الغالبة للآميين بمقاومة " النذرة " واستيجاد الحلول للخروج من وهنتها ، وإنما ترنوا إلى نشدان " الوفرة " وطلب الثراء ، لا يقتصر هذا على الأغنياء دون الفقراء ، غاية الأمر أن الثرى نال المراد ويطمع فى المزيد ، وأن الفقير يتحرق شوقا إلى مراده راجيا إن فاتته قطار الكد والعمل ، أن يحالفه الحظ والنصيب ليعبر من عنق الزجاجة ، ويغادر شرنقة الاحتياج ، وينال الوفرة والثراء التى يدخل بها " جنة " الأغنياء ودنيا التميز والسيادة !!!

سطحية البصار !

حب المال قاسم مشترك إذن بين الأغنياء والفقراء ، ولم تستطع الأديان حتى فى عنفوانها أن تحطم مكانة المال فى قلوب القلة الغنية أو الكتل الفقيرة ، بيد أن الكتل الفقيرة ليست هى التى تعطى المجتمعات طابعها عبر الزمان ، وإنما تستمد المجتمعات طابعها من الطبقات التى تعلو القاعدة كما هو حال الأبنية بعامه .. فطبقة الأغنياء التى تعلو القاعدة —

لا تعاني باستمرار ضغط الاحتياج والفاقة ، ولديها من
البجوحة ما يتيح لها أن تقف من المال موقفا هادئا متأملا ،
يعمل النظر والمقارنة بين المال وبين غيره من القيم ،
والانتفات إلى أضرار المال وأخطاره وأثره الشيطاني في
التسرب إلى الروح والضمير وإصابتهما بالضмор وربما
بالشلل !

بيد أن سطحية المومنين قد غلبت أى استعداد للتأمل ،
وشوهت هذه السطحية في الجماعات المتقدمة — كل معالم
التقدم والتحضر .. فهذه السطحية هي التي أطلقت العنان
لشهوة الثراء في جميع الطبقات !! فلم يعد ذو الفاقة أو الفقير
يسلم ويعتقر للموسر يماره ، ولم تعد فكرة الإذعان للأقدار —
التي ركبت نفوس الناس في الماضي — قادرة على بث التسليم
أو الغفران في وجدان تعمساء الفقر والفاقة والاحتياج !
واكتسحت هذه المشاعر الدفينة المتمكنة أى رؤية موضوعية
لطلب الثراء بأدواته المعقولة ، وصار الاحتياج والفاقة حافزا
لتعجل قلب الأوضاع الحالية الظالمة والطمع — بأي أسلوب !

— فى مشاركة الموسرين يسارهم إن لم يكن الحلول محلهم ..
وتداعيات تنامى هذه الأحاسيس بالغة الخطر على الجميع ،
ومن المحال أن يحاصر أحد مشاعر الأسمى حين تحاصره
الفاقة وتضيق منه البوصلة وتحتويه التعاسة والشقاء وضيق
الأمل .. ومع ذلك فإن عين الموسرين المصابة بأمراض
السطحية غافلة عن كل ذلك ، أو هى لا تعطيه قدره من
الاهتمام والعناية الواجبة للنظر إلى معاناة الفقراء وأهل الفاقة
بنظرة عاقلة تخرج بالمسألة من وهدة " المن والصنقة " إلى
دوحة " القيمة " التى لا تستوى صفحة الإنسان بغير
الإحساس بها !

فليس يكفى صاحب الفاقة الذى يعانى إلى جوارها
الإهمال وعدم الالتفات وفقدان الإحساس بالقيمة ، أن يتلقى
" المن " و " الإعانات " التى غالباً مالا تلتفت إلى أن المتلقى
كائن حي ، صاحب إحساس وشعور ، وأن إحساسه بقيمته
وجدواه فى الحياة شعور مشروع يتعين النظر إليه بعين
الاعتبار ، وإفلاؤه حقه من العناية ، وهى عناية ليس حسبها

أنها تطفئ نار التعاسة فى الفرد ، وإنما هى تفتح للمجموع
أفاقا تنبئ فى إحساس مفرداته بالقيمة فى أنفسهم وفى الحياة !
ربما يخدع " سطحية " المومنين ما يتلقونه هنا وهناك
من علامات الاحترام فلا يلتفتون إلى أن الكترة الكثيرة
لا تبذله عن اقتناع وصدق ، وأن ما يرونه هو قناع
" ظاهرى " يخفى مشاعر متباينة من الرفض أو الحسد
أو البغض أو الاستهتار ! .. هذا كله يجرى دون أن يكره أحد
اليسار فى ذاته أو يتوقف عن الرغبة الشديدة فى الوصول إليه
والحصول عليه !

الجماعات فى زماننا !

لذلك صارت الجماعات فى زماننا خالية تماما من
تبادل الإخلاص والتعاون والوداد والمحبة — لا يربط الناس
فيها بعضهم ببعض إلا الاحتياج والضرورة ، أو الكسب
والطمع والجمع للانتفاع أو الممغنم الزائل الوقتى الذى يحمل
أغراض التباعد والتفسخ والتفكك ، وبما قد يوحى أحيانا

للمتأمل أن الجماعة نفسها وقية لا يمكن أن يدوم لها هي
الأخرى بقاء (!!) مادام البشر على نضوب أعماقهم واحتياجهم
إلى الصديق والتعاطف والأمانة والتكاتف والتماسك !

يبدو أن أفة الثراء أو طلبه المحموم ، قد آلت بكثير
من الأكيمين إلى تفضيل الأمور السطحية والوقية والذنيوية
.. في هذا النظر السطحي يحل " الدهاء " محل " الذكاء " ،
ومن يتقنون الدهاء يبالون بالتزام الأمانة لدى أنفسهم ،
ولا يعينهم كثيرا أو قليلا أن تكون الأمانة وفروعها هي عدة
الساعي لإصباح الأبواب واعتقام فرص الكسب .. ومن يتأمل
منا أحوال الناس سوف يرى أن أغلب أنشطة الأكيمين الذنيوية
ظلت مصروفة في هذه السطحيات والذنيويات التي تحكى
بقصير أعمارها أن حصادها كثمار النبات أو إنتاج الحيوان
— أو يكاد !!

أكثر أنشطة الأكيمين قديما وحديثا — مشغولة مستفرقة
في الاتجاه الأتاني السطحي ، وهي إن حققت نفعا أو انتعاشا
وقتيا هنا أو هناك ، فإنه بما يخلفه من سلبيات في عادات

ومسلوك الناس — يعوق فى الواقع مسيرة التقدم الإنسانى
بل ويعرض الجماعات البشرية بأسرها لللفناء !
معظم الناس كما كانوا فى الماضى ، بل أكثر وأعجل ،
يلتفتون أولاً وأخيراً إلى دنياهم السطحية التى يعرفها كل منهم
بطريقته كما تبدو له : إما كريمة واسعة يسعى لأن يزيدها
كرماً وسعة ، وإما شحيحة ضيقة ظالمة يوسعها رفضاً
واعتراضاً ولوما واتهاماً دون أن يفكر فى غيرها أو يبحث عن
آليات عاقلة تخرجه منها ، ومع ذلك يبقى فى خدره لا يفقد
الأمل فى أن تجود عليه الأقدار وتستجيب لأمانيه ! مثل هذا
يقضى عمره ابتداءً ولقهاءً دون أن يجاوز أمانيه وأطماعه
فيما بخلت به عليه الأقدار (١٢) وجادت به على غيره ..
يجرى ذلك فى تصور الأسمى ومنطقه لأن يقظته فى معظمها
سطحية عاجلة خالية من التركيز المتصل المؤدى إلى تعمق
الإدراك والملاحظة والفهم والتأمل الذى يفتح للأسمى آفاقاً
واسعة للاستمرار والنمو والازدهار !

* * *

يبدو أن السطحية ، وقلة التركيز وتفاوته ، فتحا ويفتحان المجال الواسع جداً لاختلاف النظر والاتجاه والتصور لدى الأفراد والجماعات ، ولإصدار ما لا حد له من القرارات والأحكام المبتسرة والمعرضة بالتالى لدوام التغير والتبدل .. ربما خفف من آثار هذا التباين والاختلاف ، دور الذاكرة فى الاحتفاظ بما سلف من قرارات وأحكام ، ما لم تتبدل الظروف أو الرؤى وتتبعاد الحاجة إلى إعادة النظر فيها فتتوارى من السلوك الإرادى الواعى وتتحول مع تراكمات الزمن إلى محض " عادة " نسلّم بها أو " عقيدة " نتمسك أو ننشئ بها دون أن نعى أو نلتفت إلى أصلها !

لماذا نميل جميعنا إلى تخطئة أو نقد أو لوم بعضنا بعضاً ؟! .. ولماذا ميلنا أحياناً للحط والاستعلاء والإحساس بالغيرة وربما الحسد والحقد على الآخرين ؟!

يبدو أن هذا ليس إلا إعلاناً عن شدة إحساس كل منا بذاته وتعلقه غير العادى بها وعناده بأنانيته للانتصار لها ما استطاع ..! شيوع هذا الميل فينا وفيمن سبقونا كان ولا يزال

حافزاً أو عاملاً من الحوافز والعوامل القوية فى أنشطة
وحركات الأميين ، دفعهم ولا يزال يدفعهم دفعاً لا ينسى ولا
يهدأ فى مساعيهم إلى جمع الثروات والأموال ، وإلى البناء
والهدم ، وإلى التقدم والمقاومة والشروع والتحدى ، وإلى
الإقدام والمجازفة والمغامرة ، وإلى الخجل والحياء والخوف
والقعود والانعزال والتوارى . لأن قوة إحساس كل منا بذاته
لا تحفل بنتائج هذه القوة وأثارها الخارجية ما دامت تحس قوة
الإحساس بقوة استجابتها إليه أياً كانت التداعيات الخارجية
أو الصورة الخارجية لهذه الاستجابة !

حقيقة اليقظة !

خلو يقظة البشر من ذلك التركيز والالتفات الواعى
لدرجته فى الأفراد والجماعات — أنسى الناس حقيقة اليقظة
وتركيبتها وتعقيدها .. فلم يعد لها مكان بارز المعالم فى الذاكرة
من قديم الزمان إلى يومنا هذا .. فصار كل آدمى يصحو بعد
نوم أو غيبوبة صحو لا يقترن باليقظة التى أعنيها ،

وإنما هى يقظة كسائر المستيقظين لا يصاحبها تركيز ولا التفات واع .. وهكذا غرق الحاضرون والماضون إلى الأبدان فى الوهم والغموض والمزج والخلط والتخبط والتشويه ، وفى نتائج وآثار ذلك كله فى حياة كل فرد وكل جماعة فى كل مكان وكل زمان ! .. قلما وجد أو يوجد من يعرف معنى اليقظة الكاملة أو حتى من يبتذل أقصى الجهد أو الجد المعقول فى معرفة معنى ما يحيط به ومعنى كل ما يسمع أو يرى أو يقرأ أو يكتب معرفة كاملة تعبر ولو عن جزء من هذه اليقظة الكاملة التى يرنو إليها ويتغياها العقلاء !

فنحن مخلوقات عاشت وتعيش حياتها منذ خلقت ، على "تقريبات" و "تقديرات" و "اعتقادات" و "تصورات" و "آمال" و "أحلام" ، مثلما عاشت وتعيش على "حسابات" و "تأمينات" و "احتياطات" و "مخاوف" و "مخاطر" — تتأرجح بين الرجاء والخوف ، والأمل واليأس ، وبين هذا كله وبين القضاء والقدر !! .. ومع هذا كله فإن فى هذه المخلوقات من جاهد واجتهد ويجاهد ويجتهد جاداً مثابراً

ومجتهداً فى رؤية وخدمة وتحقيق أقصى ما يراه من الصدق
والحقيقة والبر والخير .. هؤلاء — فيما يبدو — هم أعمدة
وجود البشرية وتقدمها ، ووجودهم ضرورى لبقائها الأمد
المقدر لبقائها !

ولو تصور أى منا مبلغ اختلاف درجات اليقظة فى كل
فرد فى كل يوم — لذهل من قدرة البشر على التعايش معاً
بفضل الاعتياد الدائم على المسطحية وعلى عدم التحقيق
والتدقيق — وبفضل إكتفائنا المفترض بوجود التماثل فيما
بيننا ، واعتقادنا المذهل فى عدم احتياج كل منا إلى التأكيد
من وجوده حقيقة فى كل مناسبة أو صلة أو مقابلة أو اجتماع !
.. إن كل صلاتنا وأغلب معاملتنا مبنية — دون أن نشعر —
على الإيمان بافتراض التماثل الذى لا محل لافتراضه ، بل
يورى النظر الصحيح أن هذا التماثل قليل إن لم يكن نادر
الوجود .. إننا نتكل على الدوام على عادات مساندة ننسى
أصلها بحكم قانون العادة ، وننسى أنها ثمرات لماض انقضى
ولمست واقعاً لحاضر جديد فى طريقه حتماً إلى مستقبل ..

فماضينا يدفع وجودنا أمامه لا خلفه ، يمر حتماً بالحاضر
الذى لا يتوقف تحركه فى كل لحظة إلى قابل هو الذى ينبغى
أن نتطلع وترنو إليه بصيرة وفطنة الأسمى !

يغيب عن سطحيتنا ، ويقتطنا المبتسرة ، أن حياة
كل منا تحتاج إلى التكاثر ، شعر بذلك أو لم يشعر ، وأن
استمرار هذه الحياة يتوقف على هذا التكاثر الذى يلزم غايته
إن لازم واتسق مع ظروف المكان والزمان ، وأنه إن زاد على
ذلك لقلة التفطن والالتفات ، ينقلب إلى عامل هدم وإزالة ..
شعور الحى بالحياة يتلازم مع الشعور بالذات ، وكلا
الشعورين بحاجة إلى الاتزان والاعتیاد على المراقبة ومراعاة
الظروف والعواقب بقدر الإمكان .. ويبدو أن هذا الاعتیاد على
المراقبة ليس هيناً أو ليس فى متناول أغلبية الناس ، فتمضى
بهم الحياة أو يمضون معها بغير نقطة واعية تتيج الاتزان الذى
يقدر به الأسمى خطاه ، ويختار طريقه ، كما يكون بما خلقه
الله فيه لبنة واعية فاعلة فى عمران الحياة !

تورى اليقظة والالتفات بأن المواضيع التى شغلت
وتشغل العلوم الوضعية ، فى زماننا وقبله ،
لا تتجاوز " ظواهر " الكون الذى نحن جزء ضئيل بالغ الضآلة
منه .. ومع تتابع المحاولات الإنسانية لدراسة ومعرفة
" الظواهر " ، والتى تراوحت بين التوكيد أو الترجيح
أو الاحتمال ، فيما نستخدم على تسميته باصطلاح المواد
والأجزاء والعناصر والمكونات والتفاعلات والمركبات
والجزيئات والذرات ومحتوياتها العجيبة ، وفى القوى
والطاقات التى قطعت فيها ولا تزال تقطع أشواطاً بعيدة ..
كل ذلك على جديته وعظمته بعيد بعيد عن أن يكشف ما نعبر
عنه أحياناً بسر أو أسرار حياة الأحياء .. ولم يغير
" عصر المعلومات " التالى لعصر العلوم الوضعية -
لم يغير شيئاً من عجزنا جميعاً عن الوقوف على أصل الحياة
الغامض علينا الذى ما زال دائباً فعالاً مسيطرأ على حياة كل
حى خلال حياته قصرت أو طالت .. مهما ظن الحى وتخللت
أحلامه بأنه امتاز ووصل وتفوق وترقى وارتفع اسمه وذكره ،

فإنه لا يملك ومحال أن يملك الكلمة الأخيرة في حياته الدنيا ..
لم يتنبه الإنسان إلى هذه الحقيقة على مدى عشرين قرناً
ولت والجميع في غفلة عن المعنى الكلى في غمرة
الانشغال حتى النخاع بأمور وتوافه حياة كل منهم ، فيما عدا
قليلين نادرين استطاعوا أن يخرجوا من اليمّ ييقظتهم
ومراقبتهم الجادة الخالصة ليتعلقوا بالمعنى الكلى ويتأملوا في
سر وحكمة الحياة !

إرهاب مَنْ .. هذا الإرهاب !!؟

لا أحد يحب الإرهاب أو ينشده لذاته أو يرضاه ،
ينطبق ذلك على ممارسى العنف مثلما ينطبق على المراقبين
والمشفقين وعلى الناس بعامة !! ممارس العنف — ما لم يكن
جائحاً جنوحاً مرضياً ! — لا يطلب العنف لذاته ، وإنما
هو رد فعل لظلم ساحق أو انسحاق ظالم ، بل إن 'رد الفعل'
بغض إلى ذات اللاجئ إليه ، فلا هو أحب العنف وطلبه
طواعية باختيار مريد ونشده وارتضاه ، بل هو مكره عليه
مقود برد فعل الظلم والانسحاق إليه ، ولا هو بداهة أحب
أو نشد أو ارتضى الظلم والطغيان والجبروت الممارس
عليه !! هى إذن ربود أفعال أقرب إلى التلقائية !! وهى
ليست أفراحاً لأصحابها — كما قد يظن السطحيون — وإنما
هى مكابدات مأساوية تجرعها التعساء حتى الثمالة إلى أن
صارت لهيباً مشتعلًا فى حناياهم ينتهى بهم إلى إفناء أنفسهم

ليسمعوا الدنيا وجيعتهم وصراخهم وأنينهم وأنين شعوبهم
وأوطاتهم !!!

إرهاب من !

فى الوقت الذى يحاول فيه العرب والمسلمون أن
ينتزعوا أنفسهم من عام الأحزان (٢٠٠٤) ، ليستقبلوا عيداً
أملين أن يمسح ولو لأيام بعض شجونهم ، وفى الوقت الذى
تختلط فيه أيام العيد برحيل وتوديع عرفات ومن قبله الشيخ
زايد ، وتعكف العقول والأقلام على النظر وإعادة النظر
لبحث ومراجعة وفحص أسباب الاتهامات الأمريكية العلوية
المتوالية بنسبة " الإرهاب " إلى العرب والمسلمين ، وتجاوز
التهم على الناس إلى الدين ذاته ، وتسعى لتعقيم الدين مثملاً
سعت وتسعى لتعقيم الشعوب والناس ، وفى الوقت الذى
يتجرع الكثيرون هذا الهوان ولا يكفون مع تجرعه عن محاولة
مراجعة الذات لمعرفة أسباب طفق الإرهاب ، وفصله عن
الخط المقصود المروم به إيباغ وصف الإرهاب على كل

دفاع مشروع للشعوب عن أوطانها وأراضيها .. هذا الخلط المقصود الذى أدى ويؤدى إلى عوار النظر الآتى من هناك ، والعزوف الضرير عن سبر الأغوار والجذور الحقيقية لأعمال العنف : إرهابا أتما كان أو مقاومة مشروعة ، وبالتالي ضياع الطريق الصحيح لتجفيف منابع العنف بتعقيم مسبباته !!

فى الوقت الذى تموج فيه العقول والقلوب والمشاعر بهذا كله ، لا يصرفها عنه عيد ، ولسان حالها يقول أثيرة الشاعر القديم : " عيد بأى حال عدت يا عيد .. بما مضى أم لأمر فيه تجديد !! " .. تحمل إلينا الصحف والفضائيات كوارث متلاحقة تنمى هنا ولا تمس شغاف قلب أحد هناك : فى ١١/١١ - ٢٨ رمضان : معارك شرسة فى الفلوجة والمقاومة تتحدى الاحتلال ! .. اشتباكات ضارية فى وسط الفلوجة وشمالها ! .. إدانة تركية لمهاجمة الفلوجة فى ليلة القدر !.. تحذيرات دولية من كارثة إنسانية وشيكة فى الفلوجة !.. الآلاف بالفلوجة يعانون نقص الطعام والماء والدواء ! .. الجثث تغطى شوارع الفلوجة والبنّاجون يتوقّع

معارك صعبة !! .. ، وفى ١١/١٣ - ٣٠ رمضان : القوات الأمريكية تدخل إلى معظم الفلوجة .. معارك شرسة بين القوات الأمريكية المسلحة وبين المقاومة بالقرب من المسجد فى حي الجولان بالفلوجة !! .. القوات الأمريكية تعلن السيطرة على معظم الفلوجة وتقوم بعملية عسكرية فى الرمادى وتستعد لمهاجمة الموصل .. ، وفى ١١/١٥ - ٢ شوال : الأمريكيون يعتزلون للعالم عن إعادة بوش إلى السلطة والحرب !! الفلوجة تواجه كارثة إنسانية مروعة والقوات الأمريكية ترفض دخول المساعدات الإنسانية !! التفود يتفشى بالمدينة والجنث المتحلة ملقاة بالشوارع والمكان محاصرون يموتون جوعاً وعطشاً !! مظاهرات احتجاج تنهم علاوى بالخيانة والباطل .. اشتباكات دامية فى بجى !! قوات المارينز الأمريكية لا تستثنى الأجانب ولا ترحم النساء والأطفال !! الخسائر حتى اليوم ١٢٠٠ شهيد ضحايا مجازر الفلوجة مقابل مصرع ٤ (١٤) جنود أمريكيين وإصابة ١٦ (١٤) .. ، وفى ١١/١٦ - ٣ شوال : تجديد

المعارك فى الفلوجة وقتال فى الموصل والرمادى وبعقوبة
وبهزر .. تساقط القتلى العراقيين !!.. القوات الأمريكية
دخلت مبنى مستشفى السلام فى الموصل ، وتهاجم بعقوبة
بهجمات برية وجوية عنيفة !! .. ، وفى ١١/١٧ - ٤ شوال :
جرائم حرب لقوات الاحتلال الأمريكية فى الفلوجة !! اقتحام
المساجد وقتل المسلمين وإعدام الجرحى العزل !! .. محطات
التليفزيون الأمريكية تفصح الجرائم ومنظمة العفو تطالب
بمحاكمة مرتكبيها !! مواجهات عنيفة فى عدة مدن وحشود
أمريكية لإقتحام غرب الموصل !! - ١٢٠٠ عسكري أمريكي
يستعدون للسيطرة على غرب الموصل !! معارك عنيفة فى
المعازل السنية !! .. الجيش الأمريكى يحتجز ١٠٥٢ فى
الفلوجة ويعتقل نائب رئيس المجلس الوطنى العراقى رغم
الحصانة !! .. منظمة العفو الدولية تكشف عن انتهاكات
خطيرة لقوات الاحتلال الأمريكية فى العراق !!.. العار :
جنود الاحتلال الأمريكى يعدمون الجرحى العراقيين داخل
مسجد فى الفلوجة !!.. شبكة تليفزيون أمريكية - نعم

أمريكية ١ - تنذع شريطا للمارينز أثناء إطلاق الرصاص على رموس المصابين بالمساجد بدلاً من نقلهم للعلاج !!.. المراسل الحربى يصف المشهد المفزع والبنّاجون ينفى علمه ومنظمة العفو الدولية تطلب التحقيق !! شبكة " م . إس . نيوز " التليفزيونية الأمريكية تنذع صوراً لجندى أمريكى من المارينز يصوب سلاحه نحو رأس أحد الجرحى ويطلق عليه النار وفى خلفية الصورة جنود المارينز يرددون : " الآن تأكدنا أنه مات !!.. قصف حى الشهداء بالأسلحة الكيماوية وإلقاء الجثث فى نهر الفرات لإخفاء الجريمة !! راديو لندن يؤكد أن الجريمة التى ارتكبها جنود المارينز فى الفلوجة تمثل فضيحة مخزية !!.. بث شريط للفيديو عن الحادث يفجر ضجة فى واشنطن تعيد للأذهان فضيحة سجن " أبو غريب " !! - هل تذكرن !!؟ .. هجوم أمريكى واسع النطاق على الموصل بعد اكتمال السيطرة على الفلوجة !! منظمات حقوق الإنسان تتهم أمريكا بارتكاب جرائم حرب فى العراق !!؟ .. وفى ١١/١٨ - ٥ شوال : حرب الشوارع فى الرمادى بعد

الفلوجة !!.. المقاتلات الأمريكية تتسف المنازل بالقنابل والصواريخ !! بلغ عدد الشهداء الآن ١٦٠٠ شهيد ضحايا مذبحه الفلوجة !! اعتقال ١٠٠٠ عراقي خلال ١٠ أيام من العمليات الأمريكية الوحشية !!.. تساقط القتلى العراقيين فى مواجهات دامية بالرمادى والموصل !! — مصور" إن . بى . سى" يؤكد أن الجنود الأمريكيين قتلوا ثلاثة جرحى آخرين داخل مسجد الفلوجة !! المنظمات الإنسانية الدولية تصف العملية بجريمة حرب وتدعو للتحقيق فى جميع الممارسات الأمريكية بالمدينة !! إسرائيل تقتل ٣ جنود شرطة مصريين فى رفح وشارون يقدم اعتذاراً ومصر تحتج دبلوماسياً !! ، واتصالاً بالمأسى التى لا تنقطع ، والجرائم التى ترتكبها إسرائيل كل يوم فى فلسطين فى إطار الممبح والتتمير والتجريف والإبادة والتفريغ — تحمل الصحافة فى ١١/١٩ — ٦ شوال منشورات تميظ اللثام عن المزيد من جرائم الحرب ومعاداة الإنسانية : "جنود الاحتلال الإسرائيلى يقتلون الأمريكان فى العراق !! .. مثلوا بجثث الفلسطينيين والتقطوا

صوراً تنكارية معها " !!! .تمضى هذه الوحشية محمية
بقانون " السامية " الذى أصدره الرئيس بوش وصار أداة
لتعقب كل من يقول " لا " لما تفعله وترتكبه إسرائيل !!!
إرهاب من إذن هذا الإرهاب !!!

هذا الإرهاب !

إرهاب الدول الذى طلقنا ببعضه فقط عبر أيام قلائل ،
بات إرهاباً عاماً يمارس ممارسة تكاد تكون يومية ، من
مدة طويلة !! وهو إرهاب أخطر بكثير وأعم أثراً وأكثر
بالتالى وبالأمر إرهاب الأفراد مهما اشتط وجمع !! .. وأكبر
المغالطات فى إرهاب الدول أنه يشن وبهذه الضراوة بدعوى
مقاومة الإرهاب ! .. فهل الحروب التى تشنها الولايات
المتحدة وأنبالها ، والمقترنة بأبشع أنواع جرائم الحرب
والعدوان ضد الإنسانية - هى حروب للقضاء على
إرهاب !! ، أم أنها لإثارته بإرهاب أشد وأبشع
وأجمع ؟! .. وهل قصد هذه الحروب الضارية والأعمال

الوحشية إلى تخفيف إرهاب لن يجف بل سيزداد بهذا الأسلوب ١٢! أم أن القصد تركيع دول وإهانة كرامة بل وأسمية شعوب ١٢.. وهل هذه " القصود " تؤدي إلى ما تنتج الحروب الحقاء بأنه غايتها الذبيلة وهدفها السامى للقضاء على الإرهاب ، أم تؤدي إلى نقيضه وتشعل ناراً عامة سيكتوى الجميع بنارها ويلهبها فإن لم يكن فيلقحها ١٢!

أسوأ ما فى إرهاب الدول ، أنه يمضى فى جموحه بلا أى آلية متاحة لإصلاحه أو محاصرته أو تخفيفه ١١!.. قد تنجح المواعظ ودعوات الإصلاح فى محاصرة أو تعقيم الإرهاب الفردى ، وينجح أكثر فى تخفيف مسبباته بتسريب العدل إلى ساحة غلبت فيها المظالم ، إلا أن إرهاب الدول يبدو مستعصياً على أى وعظ أو إرشاد أو دعوة أو تنوير .. مرد ذلك أن إرهاب الدول لا ينبع من تصرف إنسان يمكن أن يخاطبه ضميره أو ترده سلطة أسرية أو أبوية أو سلطان العقل والمنطق أو سلطات دولته ، أما إرهاب الدول فجموح أنظمة تكبره عن قصد لا ينفع فيه وعظ ولا إرشاد ، ولا يجدى فى

مخاطبتها اعتبارات العدل والإنسانية ، فهي تعرف ذلك كله ولكنها لا تبالي به ولا تأبه له ، فهي قد أقامت إرهابها على فلسفة مدروسة ارتأتها واعتقدتها ، دون أن تدرك أن أي حسابات تغفل أحاسيس الناس ورد للفعل الإنسانى ومقدار الزخم الذى يغور فيه من جراء غيبة العدل وإرهاب الدول — إنما هي حسابات حولاء لأفعال تزرع مرارات تتحول برد الفعل إلى إرهاب يجد مبرره فى تراكمات الظلم وحصار الإبادة وضياح قيمة الحق والاعتدال أمام عطرسية وجبروت القوة والأقوياء !!

المخيف إذن هو إرهاب الدول ، ليس فقط لأنها تملك القوة الكاسحة القادرة على التكمير والإبادة ، وليس فقط لأنها تملك الفعل الذى يغطى الكرة الأرضية طويلاً وعرضاً ، ونتج إرهابها ناتج هائل مساحةً وعمقاً وأثراً ، وإنما لأن هذا كله يصب " النار " فى الناس ، ويولد الانفجار الإنسانى هنا وهناك ، هذا الانفجار الذى لا يمكن أن يفهم فهماً حقيقياً دعوات التعقل والمصالمة والاحتكام إلى الحوار ، بينما يرى

الأقوياء يطأون الضعفاء بالأقدام ، وييقرون بطون الحبالى ،
ويعصفون بالأطفال والأبرياء ، ويرملون النساء ،
وييتمون الأبناء والبنات - وينتهكون الإنسانية انتهاكاً يستحيل
معه أن تكون لهم فى نظر الناس أى مصداقية وهم يتشدقون
بأن هذا الدمار المبرث هو لحماية الإنسانية والقضاء على
الإرهاب ؟!!!!

سياحة فى داخل الإنسان !

لا يستطيع الأسمى أن ينقطع عن اللجوء بخطابه إلى ربه ، مؤمناً كان هذا الأسمى أو ضالاً ، مستقيماً أو جائحاً ، راضياً أو متئماً ، مطمئناً أو قلقاً ، مرتاحاً أو مكوداً .. بيد أن خطاب البشر إلى الله ، غير خطابهم فيما بينهم .. يستحيل على البشر خطاب الرب تبارك وتعالى — إلا بما يسمى " اللغة " أو يسمى " الأكم " أو يسمى الدعاء أو الرجاء أو الضراعة أو الابتهاال ، وكلها بشريات .. واللغة هى اللسان المشترك فى جماعة أو جماعات يتداوله أفرادها ومن يحاكيهم فى حياتهم الخاصة أو فى الحياة بعامة ، يقظين فى ذلك أو حالمين !.

أما الأكم فهو إحساس وتعود ، قد تعبر عنه اللغة ، وقد يعبر عنه وجع الأكم .. وهو كثير الحدوث بالأتين والصباح أو بمحاولة التخلص من الحياة حين يشتد الإحساس بالأكم ، وتخبو العقيدة وتنطفئ روح المقاومة !

أما الدعاء والرجاء ، فكثرتهما كثيرة .. يترددان من وقت لآخر على لسان أو فى قلب كل فرد حين يطمئن ويأمن أو يستبشر أو يؤمل فى خير لنفسه أو لمن فى حكم نفسه .

واستجابات الرب عز وجل ، لخطاب المؤمن به ، استجابة محقة دائماً ، بيد أن تحديد ميقاتها هو إلى الله سبحانه وتعالى وحده .. المؤمن صادق الإيمان يطمئن إلى ذلك ويثق فيه ثقة اليقين ، لا يززع هذا الاعتقاد فى داخله أن يطول انتظاره لاستجابة وتلبية الرب .. يمد له أحبال اليقين اعتقاده وثقته فى الإله ، واعتقاده وتصديقه لما جاء بالكتب السماوية طمأنة للمؤمن أن كلمة الله عز وجل آتية لا ريب فيها .. وعده حق ، واجابته حق ، وهو سبحانه أقرب لعباده من حبل الوريد .. بل إن غير المؤمن لا يقلت منه يقين ما يدرك به — مهما كان إدراكه مبهماً أو مشوشاً — أنه لم يكن ثم كان ثم إنه لن يكون .. يعرف بهذا اليقين أنه ولد من حيث لا يعرف، ويمش إلى حيث لا يعرف ، وتنقضى حياته الدنيا بميعاد لا يعرفه ولا يمكنه أن يعرفه .. أجمل القرآن المجيد هذه المعانى

فى قوله : " أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ
 الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ *
 عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ " (الواقعة
 ٥٨-٦١) .. وفى القرآن المجيد : " وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ
 وَلَمْ تَكُ شَيْئًا " (مريم ٩) ، " أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ
 عَلَى قَهْرٍ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا " (مريم ٦٧) — وبرحيل الأسمى من
 الحياة الدنيا يرد إلى عالم الغيب والشهادة ، يقول عز وجل :
 " ثُمَّ تَرْجُونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ " (التوبة ٩٤ ، ١٠٥ ، الجمعة ٨) .

خالق هذا الكون العظيم الذى لا يحده حد — واحد ،
 يستحيل على مخلوق أن يحيط بمعرفته كائنة ما كانت أو تكون
 تلك المعرفة ، أو أن يحيط بمعرفة كل ما خلق ويخلق
 سبحانه أو سوف يخلق ، أو بمعرفة كل ما محاه أو يمحوه
 أو سيمحوه مما كان أو يكون أو سيكون ، ويستحيل على
 المخلوق — أي مخلوق — أن يحيط بشيء من علمه إلا بما
 شاء سبحانه (البقرة / ٢٥٥) ... هذه الحقيقة نسيها وينساها

وسينساها الأعميون بالغة ما بلغت فيهم القدرة على التذكر معة
أو عمقا أو ضيقا أو سطحية !

ما نسميه نحن البشر بعضنا لبعض من قواعد وأصول
وقوانين، ومن معقولات وإدراكات وحكم ، ومن معالم رشـد
وفطنة وبصيرة وما إلى ذلك — هي في نظر عقلائنا أنوار
نراها كل حسب طاقته. في مجرى إدراكنا ومبلغ فهمنا إن سلمنا
أمورنا جادين إلى خالق الكون .. نراها فيوضاً ونعماً إلهية ..

بيد أن هذا لم يعد حاصلًا خاصة في زماننا إلا لدى
أقل القليل من الناس ، فإن أغليبتهم الغالبة جداً قد باتت بغير
مواربة — عبيداً لهذه الأرض ! .. لا تنتظر إلى غيرها !.
يمشي الكل في كافة المجتمعات ، سادة وعامة — على
الرؤوس لا على الأقدام ، ولا يتطلعون قط إلى ما هو أعلى
وأصدق ، بل إلى ما هو أقرب وأدنى إلى الفناء !

بالغة ما بلغت عقولنا وحواسنا ومشاعرنا ، وأفراحنا
وأحزاننا ، وآمالنا وآلامنا ، فإنها لم تدر ولا تدري ولن تدري
ما هو داخل بناء كل منا — ماديا وغير مادي — من أجهزة

وقوى .. لأنه عالم آخر تماماً لاسلطان لأي منا على تركيبه وعمله ونشاطه إلا سطحياً وهامشياً ، هذا الجهاز العجيب فى داخلنا لا يعرف "الأنا" على الإطلاق ، ويؤدى وظائفه وقواه بقدر ما هو ممكن لديه فى كل منا !

لا أسماء لهذا الداخل لدينا ، ولا نخاطبه بلغاتنا أو إشاراتنا ، ولا نلتفت إلى ما يجري فيه وما يحدثه وما يتبدل ويتغير ويجىء ويخرج ويبدأ وينتهى داخله .. هذا العالم الهائل فى داخلنا يرتبط بكل منا ارتباطاً لا ينقسم مادامت حياته .. ومع هذا فإن أدائه أو حركته أو نشاطه لا يتوقف لحظة واحدة مهما كانت أحوال كل منا .. فى صحوه أو منامه ، وفى حركته أو سكونه ، وفى حبه أو كرهه ، وفى جده أو لعبه ، وفى صمته أو كلامه .. لا يبالى هذا الجهاز الهائل فى داخلنا بهذه الأوصاف والأحوال والمعالم الأسمىة الخارجية التى نتداولها من الميلاد إلى الطفولة والصغر والشباب والرجولة والكهولة والشيخوخة ، عاكف فى دأب عجيب على أداء مهامه ما استمرت الحياة حتى الزوال فى الموعد المقرر لها .. حينئذ

تتوقف تلقائياً كل أجهزة وحركة وأداء هذا الداخل لتؤوب
بسرهما المعجيب إلى خالقها الأعظم !

فكرة للتأمل !

من يتذكر الله — على أى وجه — يدخل الله قلبه وعقله
— شاء الأسمى أو لم يشأ ، وإذا دخل الله سبحانه عقل
وقلب الأسمى على أى وجه ولأى سبب واعتاد عقله وقلبه
دخوله أخصبهما وباركهما .. يحصل هذا للشاكر والمساخط ،
والمؤمن والمتشكك المتحير .. بل وللمعاند المكابر ..
بل للكاره المعادى — مادام لا ينقطع حضور الله فى ذهنه
ولم ينس الله على أى وجه — فالكفر هو عدم المبالاة
وعدم الانفعال وانعدام رد الفعل كلية بالتمسبة لله عز وجل عند
الأسمى . ولنذكر الله أكبر !

الآدمية وزحف التيه !

فرنسوا جوزيف ، إمبراطور النمسا منذ عام ١٨٤٨ وملك المجر منذ عام ١٨٦٧ ، والذي استمر إمبراطورا للنمسا وملكا للمجر حتى وفاته سنة ١٩١٦ .. هذا الإمبراطور المعمر في الحكم ، عرف عنه أنه — لنشأته العسكرية الصارمة — لم يكن ينام في قصره إلا على سرير من الخشب مما ينام عليه الجنود في التكنات ! .. واقتربت هذه الصرامة مع نفسه بالتزام شديد إزاء واجباته الرسمية بل والعائلية أيضا ، وبملازمته للأمانة والعدل إلى حد المبالغة اللافتة للنظر طوال السبعين عاما التي قضاها في الحكم ، ومع ذلك امتلأت أيامه بالهزائم العسكرية والسياسية والفن ، وفقد أملاك بلاده في إيطاليا ، ففقد " لمبارديا " في الحرب الإيطالية ١٨٥٩ ، والبندقية في الحرب النمساوية البروسية ١٨٦٦ ، وفقد مع فقد هذه الأملاك — ما كان لبلاده من مكانة ورياسة في ألمانيا ، وامتلأت حياته بالأمسى العائلية .. اغتيلت زوجته في سويسرا ، وانتحر ولده

فى تراجيڊيا حب مأساوية ، واغتيل ولى عهده هو وزوجته فى
سراجيفو اغتيالاً اعتبره عقوبة من السماء !
قالوا عنه إنه عاش ملكاً ومات ملكاً ، وقضى حياته
كلها حياة ملوك ، صوابها صواب ملوك ، وأخطاؤها أخطاء
ملوك !!

هل كان فى مقدوره غير ذلك ؟!

هل كان فى مقدوره أن يعيش أمياً ويموت أمياً ؟!
هذا السؤال لا علاقة له بالدين أو بالأخلاق ، وتكاد
علاقته بالفسيولوجيا والتشريح وعلم النفس أن تكون واهية
محدودة .. فلا نزاع فى أنه تشريحاً وفسيولوجياً ونفسياً كان
أمياً ، إلا أن هذه الأمية واجهت وظيفة اجتماعية فرضت
عليه وغشيت حياته بكل تفاصيلها منذ مولده أو صباه إلى أن
مات ، وهذه الحياة بطوقها ولوازمها تتفصل وتبتعد — شاء
المتقاد لهذه الوظيفة أو أبى — عن الأمية التى يمارسها
العاديون من الناس !! فهو قد وجد نفسه وهو طفل وهو صبى
وهو شاب فوق الأميين كلهم بغير استثناء .. يرى

هذه " الفوقية " المطلقة فى جميع ما حوله ومن حوله ، ويرأها محل اعتراف وتقديس وتسليم حتى من الأم والإخوة والزوجة والأولاد .. قد يتلقى أو يوجه إليه نصيح أو مشورة أو اقتراح وباحترام ، ولكن من المحال أن يتلقى أو يوجه إليه أمر من أى مخلوق حتى فى هذا المحيط الأسرى الحميم .. ذلك أن جوهر وظيفته أو جوهر الملك الذى اعتلاه أن يكون دائماً صاحب الكلمة الأخيرة النافذة فى مملكته ، وباسمه — لابس الشعب — تكون الحكومة وتدار الدولة وتسن قوانينها وتصدر وتنفذ فيها الأحكام وتصك النقود وتُجبى الضرائب وتقاد الجيوش ويتحدث الوزراء والسفراء والقناصل وتعلن الحروب وترفع أعلام الانتصار بل ويدون التاريخ !

وأمرض السلطة ، أو الاعتزاز والته والخيلاء بالسلطة ، أمراض قديمة قدم المجتمعات البشرية ، أصابت وتصيب غير الملوك مثلما تصيب الملوك .. لا ينجو منها — على اختلاف فى النسب والمقادير — الزوج والأب وشيخ القبيلة ورب العائلة وشيخ الناحية وحاكم المدينة أو الإقليم ،

ورب العمل ورئيس المرفق أو الهيئة أو السلطة ، ورؤساء
الوزارات والوزراء والقادة بعامة — بيد أن تمكن الداء من
الأمراء والملوك أعق وأقوى ، لأنه يبدأ معهم من سنوات
التكوين من خلال ما يتلقونه — حتى وهم فى سن الطفولة —
من مظاهر التبجيل والتوقير والتعظيم والإجلال ، يصاحبهم
ولا يفارقهم قط فى مراحل نمو أعمارهم وترقيهم فى سدة
الملك من الإمارات إلى ولاية العهد إلى أن يصير ملكا
أو سلطانا ، ويضطلع بعرش المملكة أو السلطنة !

هذه الوظيفة فوق البشرية — يبرزها ويؤكدها بقوة —
حزمة نظمها وأنظمتها وطقوسها الخاصة وألقابها وأوضاعها
وحاشيتها وحشمها وخدمها ومخصصاتها وقصورها وتشريفاتها
وأعيادها ومقابلاتها الدورية وغير الدورية ، وزياراتها
ورحلاتها الرسمية وغير الرسمية ومراسلاتها واتصالاتها
وروابطها فى الداخل والخارج .. هذه " الباقة " لا تكف
بمفرداتها وبمجموعها عن تذكير صاحب التاج بالتاج ،
ولا تكف أيضا عن تذكير جميع من يتعاملون معه أو يدورون

فى فلكه أو يسمعون به بهذا التاج وبأئه فوقهم وفوق جميع
من تمتلئ بهم مملكته بل وفوق من يمتلئ بهم أى بلد آخر !
ومهما يبنو للمتأمل أن هذه مبالغات غير معقولة
وأوهام وخرافات فاحشة التكاليف وقاذحة فى ذكاء وفطنة
الإنسان المتحضر ، لأن التاج لايحيل حامله إليها أو شبه إليه ،
ولا يبعد عنه الحمالة أو الغباء أو الغفلة أو يميزه عن آلاف
ربما بزوه بموازين العقل والعلم والمعرفة ! — إلا أن فعل
التاج واقع واقع كقيم جدا ، عريق الجنور والأصول ، يمسور
ويزحف كالرمال المتحركة ، لا يقلت من أثره أحد مهما علا
نجمه فى العلم أو الأدب أو الفنون !! فما زال أعقل العقلاء
وأعلم العلماء وأنبغ نجوم الفن والأدب ينحنى أمام ملكه
بل وأمام " ملوك " بلاد غير بلاده ، ليس فقط استجابة لمراسم
البروتوكول ، وإنما لفكرة نمت فى الأعماق تجعله يحس
بشرف أن يقابله الملك ويرحب بوفادته أو بدعوته على
مائدته أو أن يبعث إليه الملك ببرقية أو تهنئة أو مواساة
أو سؤال عليه فى حال مرض أو أزمة أو مأساة !!

إن البشر جميعا ، أو أكثرتهم الكثيرة جدا ، باق فيهم
ومسبظل — باقيا فيما يبدو — مساحة واسعة من البساطة يجب
أن يحسب حسابها في وضع نظم حكم البشر .. ففي هذه
المساحة الواسعة يتماثل سلوك العالم والذكي والفتن ، وسلوك
الجاهل والبليد والغافل .. هذه المساحة الواسعة التي استقرت
في أخلاق الناس من قديم ، قد قرنت التسليم بالملك أو القيادة
باحتراف وتزويه قد يصبح تأليها ، وحاصرت المتقلد سدة الملك
بمراسم وطقوس يشقى بها في الغالب ، لأنها قلما تساير
مطالب آدميته ، وتلزمه في الوقت نفسه بكثير مما لا يحتمله
الأنمي العادي ، في الوقت الذي تغمره بالتبجيل والتقديم
والمناعم والأبهة الظاهرية التي تدير رأسه وتستغفر في
الأخرين مشاعر دفينة تتناهر مع الظاهر المبدى وتتنامى بنزرها
متصنعة بأستار الخفاء !

فكرة للتأمل !

المعرفة تقرب البعيد ، لأنها اقتراب يلغى المسافة
المكانية والزمنية أو يختصرها ، يحيل الماضى حاضرا
والمستقبل حاصلا أو فى حكم الحاصل . ولأنك تحب الأسمى
الماضى أو يكرهه ، ويخشى المستقبل أو يتوجس منه ، يتواد
ويعترك على الماضى والمستقبل تولده واعتراكه على النماء
والحاضر وربما بدرجة أشد فى بعض الأحيان !
لأننا بالمعرفة نمد وعينا وبالتالي نطاق حياتنا ، فيصبح
ما نعرفه جزءاً من حياتنا ، وحياتنا تنغمرها " الأنا " ، والأنا
حاضرة دائماً ما نمنا على قيد الحياة !

المعقولية بين آدم وحواء !

المعقولية أقوى وأظهر فى عموم الرجال منها عند عموم النساء — وهذا لم يمنع ولا يمنع من تفوق نساء فى المعقولية على عموم الرجال ، ولا من هبوط رجال فى المعقولية عن عموم النساء ! فاختلف المستويات الفردية لا يتوقف هنا أو هناك ، ويفرز على الدوام نماذج متباينة تخرق العمومية وتورى بأن يداغ وتفوق الأسمى الفرد لا يقف عند حد ، ولا تحده قواعد عامة أو نواميس مفترضة ! فالناس لا تقيد — هنا — بالتفوق أو الهبوط ، لأن التفوق موهبة والهبوط نقص فى الخلقة ، والمعتقون للفوارق يعزون ذلك الفارق بين عموم النساء وعموم الرجال إلى أنه أنسب لدورهن الحيوى من حيث الحمل والولادة والإرضاع ورعاية الصغار والبيت والأطفال والأولاد ، وهو دور طويل لم يغطه الرجال حقه وفيه قال الشاعر : الأم مدرسة إذا أعدتها .. أعدت شعباً طيب الأعراق .. وهذا الدور

الطويل العريق جداً ملئ بمهام سلبية وإيجابية لها قيمة كونية
كبرى تستدعى طول الصبر — معقولاً أو غير معقول ،
وتستدعى الاعتياد على التكرار واحتمال الأملال وعربة
غير المقلاء ، فضلاً عن تحمل مخاطر غير متوقعة يبرر
تحملها أن تقع بآخرين !

هذا بينما قيمة تلك الأعمال بسالبها وموجبها ، قيمة
محدودة من حيث المعقولة والاعتیاد على تنميتها ، فضلاً عن
أن طول العهد بتلك المهام وقوابها بغير انقطاع منذ خلق
الأنس إلى الآن — قد غرس في الإنسان بعمق ، اهتمامات
لا تبالي بالمعقولة وصارت تميز جنسهن وينفردن بها أو كدن
ينفردن عن عموم الرجال ، كالاتفات والاهتمام المبالغ فيه
بجسم الأنثى وقوامه وأجزائه وحركاته والتلويح بجماله
أو بمفاتنه ، والاهتمام بالزينة الخارجية فيه وفي إيقاعه
وحركته ، وفي درجات الصوت ومخارج الأصوات ،
وكالاتفاح في الرضا وفي الغضب وكل ما يحتمل أن يسر
أو يحزن ، وكخلط المواقب والعواقب في الإحسان والإساءة ،

وكالإسراع فى الحكم تعجلاً بغير تثبت بل والاندفاع إلى تنفيذه ، مع قدر ملحوظ من الميل إلى التقليد والمحاكاة ، وإلى الغيرة التى لم تغلح تراكمات العلم والثقافة والحضارة فى نزعها من صفحة وجدان معظم بنات حواء !

والمعقولة التى تقصدها وتومئ إليها هذه الكلمات ، هى " الفطنة " التى يلتزم بها البالغ الرشيد التزاماً أخلاقياً فى كل ما يفعله أو يتركه وهو حر مختار ، وإلا تعرض للملامة أو المساءلة .. هذه " الفطنة " شئ غير الذكاء الذى يقصد به توقد جانب أو أكثر من جوانب الذهن ، وقد يكون الذكاء فى الكبير والصغير ، والذكر والأنثى ، والرشيد وغير الرشيد — ومع ذلك لا نجد فى هذا الذكى أو ذاك وزناً أخلاقياً .. وقد يكون الذكى فطناً وقد لا يكون فطناً على الإطلاق !..

والمدارس والمعاهد الحالية قد تنمى الذكاء وتوسع المعلومات وتعطى على أساس ذلك الدرجات والشهادات ، ولكن لا شأن لها بالفطنة أو بالمعقولة التى تعنيها هذه

الكلمات .. بل قد لا تلاحظ الفطنة أو المعقولة فى المتفكرين ، لأن الغايات من التعليم غايات نفعية بالدرجة الأولى فى الغالب ، تستهدف تحسين المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسعى إلى الترقى بين الطبقات أو الفئات ، ولا يقرن بالضرورة السعى للتعلم بالعناية بالتقطن وعناصره وغاياته !

وحين تضعف الفطنة ، سواء كان هذا الضعف فى الإناث أو الرجال ، تميل بصاحبها إلى استسهال الخديعة مع النفس ومع الغير ، وتخفى ما تفكر فيه وما تفعله مما يحرص الأئمة على ألا يعرفه الآخرون لأنفسه الدواعى ، بل لمجرد الأحلام والأوهام والخيال ..!

لا تدرى الفطنة الضعيفة دور ووزن الواقع ، ولا أبعاد الخيال فى قيادة الحياة المشوشة الخالية من أى تماسك لخلوها من كل الارتباطات الثابتة الوثيقة ! تنفجر إلى أبعد النتائج وأخطرها تنفجر العصافير بلا أى تردد أو ترو أو تحسر ، ولا تتحقق فى قفزها من وجود أسس صلب لما طارت

إليه بدافع النزق أو لفت الأنظار أو الغيرة أو الحسد أو الغضب
أو مجرد إساءة الظن والرغبة فى الاتهام !
تتدفق الفطنة القاصرة أو الضعيفة إلى تصديق
ما تستقر به النفس أو تشتهيهِ ، وما تردده الألسن أو تطالعهِ
الأبصار أو القراءات بغير تمحيص ولا تنقيح !.. لا تبالى
بترديده أو إعادته مع إضافة ما تتصور النفس ضعيفة الفطنة
أنه يزيده قبولاً لدى السامعين ، أو يزيد الإعجاب بسعة
الإحاطة والاطلاع الذى تعرض به الروايات المرددة ..
وفىما يبدو فإن هؤلاء أكثر ولعاً بالكلام والتكريد والإسهاب فيه
من غالبية الرجال ، مع ميل إلى الحكايات والشائعات والسير
والوصفات والروايات ، لأن هذا كله نحل خيال الأسمى
فى أحلامه منذ الدهر الأول .. هذه المادة كانت ولا تزال
" الحاضنة " غير الظاهرة — لمعتقدات ومصداقات وعادات
الإنسان فى حياته وأساطيره وبدعه ومراسمه ومواسمه !..
عبر تاريخ البشر منذ بداية الخليقة إلى اليوم !!

منذ بداية الخليفة — تضيف الأمهات والمربيات
والمرضعات والخادمات من المسهولة والتيسير والتقريب وخط
الجد بالهزل والصحيح بالعامى — إلى أخطر قضايا الأمنى فى
الدنيا والآخرة !

إن المزج والخلط الدائمين لازمان فيما يبدو لبناء النظم
والحضارات ، مثلما هما لازمان لبناء الكائن الحى ولبناء كل
شئ فى هذا الكون — ذلك تقدير العزيز العليم .

نداء الطبيعة والنسيان !

الصغار والنساء لهما قدرة هائلة على نسيان الأخطاء
والديون أى الالتزامات والمسئوليات .. والصغار والنساء أكثر
استعداداً للمعادة وحرصاً عليها واقتناصاً لفرصها من الرجال
بكثير . ربما لأن تذكر المسئوليات هم يضعف قوة الرغبة فى
الحياة ، وهى مطلوبة للصبي لينمو وتنمو الحياة فيه — وللمرأة
لتحمل الحياة الجديدة وتحفظها إلى أن تستطيع المحافظة على

نفسها بوسائلها هي . ففداء الطبيعة وراء سهولة نسيان الصغار
والنساء للالتزام والمسئولية !

فكرة للتأمل !

الشخصية الإنسانية محصلة عاملين كبيرين :
استعدادات ، وتراكمات ، والعلاقة بينهما علاقة صائفة
لا تنقطع طوال مراحل عمر الأسمى ، توري وتنبي
الاستعدادات بكمية ونوع وعرض وعمق التراكمات ، وتتفاعل
التراكمات مع الاستعدادات تفاعلاً دائماً لا ينقطع ، تضيف فيه
الاستعدادات أو تنخر فيها بقدر موازين ودقائق هذه العلاقة
الديالكتية التي تتراوح بين التأثير والتأثر .

لذلك فوهم كبير أن تعزى القدرات الشخصية إلى
افتراضات تفرق تفرقاً تحكيمياً بين الذكورة أو الأنوثة أو بين
الشيخوخة والشباب أو أن تعزو شيئاً يدين للشباب وتفقد
الشيخوخة أو العكس !

القراءة والمعرفة

قد يقرأ الآمى كثيراً أو قليلاً ، وقد ينقطع عن القراءة أو يكاد ، ونحن نقرأ على مدى أعمارنا المختلفة — واجبا أو عادة — بلا شعف وبغير قصد التعلم والاستفادة الجادة الباقية .. وقد نقرأ كتباً كثيرة وكأنا لم نقرأها قط ، لأننا لم نحصل من قراءتها إلا القليل ، وهذا القليل لم يكن مصحوباً فى تحصيله بشوق شخصى ، ولذلك لم يثبت فى ذاكرتنا فنسيناه ! ولا عجب أن يعيد المدرس أو الأستاذ على تلاميذه وطلبتة ما قرأوه مرات ومرات ، وأن يعيده هؤلاء بدورهم مرات ومرات ليجتازوا الاختبار فيه ، ولكنهم بعد ذلك ينسونه وينسون معظمه ، وكذلك قد يفعل المدرس والأستاذ نفسه فينسى معظم ما كان يعلمه إذا انتقل لتعليم فن آخر أو إذا فارق التعليم وانقطعت صلته بما كان يعلمه !!

فى عصرنا يقرأ القارئ وهو غير مؤمن بقيمة المعرفة كلها وأنها " قيمة مطلقة " فى كل زمان ومكان عزيزة عليه وعزيز عليه الأزداد منها مادام حياً واعياً ، وأن منزلته فى عين نفسه ترتفع باتساع ما يعرف عمقاً وعرضاً أو مساحة ..

إن القارئ يقرأ اليوم بغرض معين واستجابة لمصلحة حاضرة ماثلة أو منتظرة - فلا يأبه وهذا عرضه بكل ما لا يتصل بهذا الغرض وهذه المصلحة ، ولذا تنحصر جدوى القراءة فى حدود هذا النفع القصير الذى إن تحقق تترخص الذاكرة فى نسيانه ونسيانه. القراءة التى أحوج إليها القارئ ، فإذا تبقى من القراءة بقايا فى الذاكرة فإنها لا تلقى ما يساندها من اهتمام أو عناية أو زيادة أو استحضار ، فتتوارى بدورها هذه البقايا فى زوايا النسيان فلا يمكن تذكرها بل ولا يتذكر مرجعها !

وربما كان هذا سبباً من أسباب عدم تكامل وتساند المعارف لدى أى إنسان فى زماننا .. فالإنسان الحاضر لا يهتم قط بمراجعة " قائمة حساب " ما يعرفه فى أى وقت من

عمره كما يهتم بمراجعة " قائمة عدد " ما لديه من كتب ،
 أو حساب " قائمة " ما لديه من حسابات فى البنك . فنحن
 نستقبل المعارف ونودعها تقاريق بما يشبه استقبالنا ووداعنا
 للساعات والأيام والشهور والسنين .. هذه كلها نستقبلها
 ونودعها وقد نحتفل بمناسباتها الدينية أو الموسمية أو الطقسية
 أو الكونية - على نحو تلقائى مبهم غامض قليل أو محدود
 الخطر لا يسمح بتسائد وتكامل " المعارف " تكاملاً يمكن أن
 نعيه وننميهِ ونزعه ككل ، ولا يسمح بدوام مراقبة اتصال
 عناصره أو مكوناته بعضها ببعض وتصحيح بعضها ببعض
 وتفاعل بعضها مع بعض ! .. ونحن نلاحظ فى أنفسنا وفى
 غيرنا انعدام هذا التكامل والتسائد فى " جزر " معارفنا
 ومعلوماتنا .. هذه " الجزر " تشبه أن تكون جزراً فى بحر
 بدائى داخلنا ، زاهر بالتيارات الاعتقادية والعاطفية المختلفة ..
 فتلك الآلاف المؤلفات التى بيننا من حملة المؤهلات والشهادات
 فى مختلف العلوم الطبيعية والفنون والعلوم والصناعات
 والحرف ، والآلاف المؤلفات من المتقنين والمقودين والمفكرين

والمتصدرين للقيادة والسياسة والإدارة — هي آلاف لمفردات
أهمية يزخر كل منهم بالتأثيرات الاعتقادية والعاطفية
المختلفة ، فيه عدد يكثر أو يقل من " أجزاء " المعرفة .. قد
يتصل بعضها ببعض لمصلحة ، ولكنه لا يغير ولا يحاول أن
يغير من ذلك البحر لا نوعاً ولا حجماً .. وقد ساعد هذا وشجع
على الاندفاع نحو جوانب من المعرفة وانحصر أو حصر
الاهتمام فيها لا يتعداها ، وجرى هذا بصورة مذهلة فى
القرنين الأخيرين ، فتوالت العلوم والفنون إلى ما لا يكاد
يحصى ، وأمعن كل منها تعمقاً ودفقاً فى فرعه أو ميدانه
وأساليبه ، وفى تحديد تخومه وتخصصاته ، وكاد يفضى بها
ذلك إلى " عزلة " عقيمة غير معقولة ، ثم أخذت بضغط حاجة
المحاربين فى الحرب العالمية الأخيرة تتقارب وتتعاون ، وعاد
عليها ذلك بنجاح كبير ظهرت آثاره فى التقنيات الحديثة التى
تمكنت من استخدام الطاقة الذرية والليزر والكومبيوتر وسفن
ومراكب الفضاء والهندسة الوراثية ، ولكن ذلك لم يؤد قط
إلى تساند وتكامل المعارف لدى الإنسان بما هو إنسان وانتفاع

عقله كله بما يعرفه من هنا أو هناك وتخليصه من ذلك البحر
البدائي وتياراته الاعتقادية العاطفية الماتجة داخل كل آدمي ..
تتفصل المعارف إلى جزر تتلاطم على سواحلها تلك التيارات
في ذلك البحر المخيف ، فتهدد بتحويل تلك الجزر — بدلاً من
التضام لتكوين النظرة الكلية — إلى براكين ومار لايقف فسى
طريقه شيء !

المجازات في الفكر والعاطفة !

المجازات لها أصل في طبيعة الفكر والعاطفة .. وهى
طعام رئيسى لهما ، يكاد يكون نظيراً للحم والخضر والفاكهة
والسكريات بالنسبة للجسم .. من هذه المجازات يستخلص
العقل والفهم والروح — عناصر غذائية هامة جداً لبقائها
ونشاطها ونموها — مثلما يستخلص الجسم من طعامه غذاء
لا يمكنه الاستغناء عنه !

ويتخلف عن المجازات كما يتخلف عن أطعمة الجسم
— فضلات مؤنية للصحة — يحاول الفكر والعاطفة للتخلص
منها بوسائل بعضها طبيعي وبعضها مفتعل ، مثلما يفعل الجسم
حفاظاً على الصحة — وهى صحة الوظيفة وأدائها واستمرار
أدائها .

والمجازات ملحوظ فيها الميول التى على أساسها يعمل
الفكر والعاطفة ، وهو أمر ملحوظ أيضاً وبنفس القدر من
الأهمية فى أطعمة الجسم !!

والاستغناء كلية عن المجازات باسم الدقة أو من أجل
الدقة فى أى معنى إنسانى — أمر مستحيل !
والإنسان من قديم الزمان قد جعل المجازات موضوعاً
لكثير من فنونه وصناعاته ، مثلما جعل الأطعمة موضوعاً
لكثير من فنونه وصناعاته !

والإنسان من قديم الزمان قد جهل ويجهل حقيقة عملية
تمثيل المجازات إلى غذاء للفكر والعاطفة ، كما جهل ويجهل
حقيقة عملية تمثيل الطعام إلى غذاء للجسم !

فكرة للتأمل !

لما لا نشأ في شجرة عجوز ، وسواء نضجنا عليها
أو لم ننضج ، فكرنا أو لم نفكر ، عملنا أو لم نعمل ، تزوجنا
للإنبات أغصان وثمار أخرى أو لم نتزوج - فإننا سنسقط
ولا بد أن نسقط وتتخلص منا هذه الشجرة العجوز التي
نراها دائماً بعيون " الثمار " لا بعيون " الجنور " ، ونقيم
فيها أيام الثمار لا أجيال السيقان .. لا تحمل خشب الفروع
والتواءها ، لا أعشاش الطيور وحفر الجرذان والهوام !
يستحيل أن نرى شيئاً أو رأياً أو اعتقاداً أو ماضياً
أو حاضراً أو مستقبلاً - إلا بعيوننا نحن ومن خلال أغراضنا
ومصالحنا نحن ، سواء استعنا أو لم نمتنع بأجهزة أو وسائل
أو طاقات تزيد أو تصحح من كيفية إحصائنا أو طريقة
رؤيتنا !

الحاضر وحفائر الماضى !

يستطيع المتأمل ، أن يلاحظ بلا كبير عناء ، أن غالبية ما معنا حتى اليوم من المعارف أو من العادات ، يشكو القدم .. وللقدم فينا وفى آباتنا بل وفى أبنائنا آثار مئات من القرون تناقلتها الأجيال العديدة بعدد من التصورات والصيغ والإضافات والحنف .. ويبدو أن رسوبها هذا العميق فى وعى وعواطف البشر ، يكاد يتأبى على التغيير ويستحيل على التقويم والتصحيح !

فقد يبدو أن فى فطرتنا الكذب — فنحن نكذب للإيذاء كما نكذب للإخفاء كما نكذب للكسب كما نكذب لمحض الأذى والشر كما نكذب للزهو والافتخار . وما نسميه الكذب ليس إلا طائفة من قدرتنا المشتركة النظرية على التخيل والتوقع واستعمال ملكة الكلام — وهى قدرة ملازمة لحياتنا الواعية فى معاملتها لاحتمالات حياتنا ، وكلها احتمالات قابلة آتية تنوالى بغير انقطاع من مولدنا إلى أن نموت ، وكل منّا لا ينقطع

انتظاره وتطلععه فى نومه أو يقظته لشيء سيحصل قريباً
أو بعيداً على صورة أو أخرى يتعجلها قد تقع وقد لا تقع .
والكذب يتميز عن الانتفاع والمجازفة وسبق الأحداث
— أنه كذب معنى ومشمول بالقصد ، فالكاذب يختار ما يعتقد
أنه غير صحيح ليقدمه لمن يكذب عليه أو عليهم ، على أنه
واقع أو فى طريقه لأن يكون واقعاً ، إما بدافع الرغبة
فى الإعلان عن نفسه ، أو تحت تصور أنه يرضى السامع ،
أو من باب المباهاة والمفاخرة .. أو باعتباره نوعاً من الحسد
للمكذوب عليه ، وإما يكون الكذب بقصد إنزال الأذى والشر
بالآخرين بضمينة يحملها الكاذب عليهم أو ربح يطمع فيه من
وراء كذبه !

ذلك على حين أن المجازفة أو الانتفاع إلى التأكيد
والقطع من غير روية أو بحث — يكون خالياً من ذلك القصد
أو التعمد ، ولكنه ليس أقل ضرراً ولا أضيق رواجاً فى
الجملة ، وهو أسرع وأوسع خطراً فى المدى والمريان
والانتشار إزاء افتراض سلامة النوايا وحسن المقاصد ، يساعد

على ذلك إرتفاع الأصوات وكثرتها الكاثرة وسهولة اندماج
الانفعا والمجازفة فيما يتناقله الناس وتتوارثه الأجيال !
فبات فى خامة الأذى إلى اليوم الكذب والانفعا
والمجازفة ، وبات لهذا كله - فى تراث البشر ومألوفهم
وأعرافهم وعقائدهم ومصنفاتهم - أصابع ليست قليلة ، لم
يتها لتقويمها وتصحيحها على مر العصور - إلا علاج
جزئى نسبى فى مكان دون مكان وحين دون حين .. ومن هنا
كان تاريخ الأسميين مليئاً بالعثرات والنفرات إلى اليوم !
وبرغم ما بين البعض والبعض من تشابه فى المصنفات
والعادات والأعراف ، إلا أنه تمت فروق عاطفية وفكرية
عميقة جداً مازالت عصية على التسوية والعلاج ، وما زالت
من مصادر الخصومة والعداوة قائمة بين الأفراد والجماعات
.. وإلى الآن لم ينجح فى سيادة عالم البشر عاطفياً وعقلياً -
أى من أنماط للمعتقدات والمصنفات والأعراف بحيث يشكل
وحده نمطاً لا تختلف فيه جماعة عن جماعة .. ويبدو أن
هذا أيضاً له أصله فى اختلاف الظروف المكانية والزمانية

والمعيشية لكل جماعة وفي انفراد كل جماعة بما يسمى الآن
تاريخها وإقليمها وتمسكها بهما على نحو يتصل عندها بكيانها
نفسه !

فغالبية ما معنا حتى اليوم مازال يعاني من القدم ومن
آثار العزلة ومن التعصب لماضى الجماعة وإقليمها
باعتبارهما الأساسيين الرئيسيين لبقاء الجماعة اقتصاديا
 واجتماعيا واعية لذاتها حافظة ل تماسكها و وحدتها .. ذلك أن
مرتق و دخل الجماعة يتوقف على نتاج وحصار إقليمها
المباشر وغير المباشر ، وأن البوتقة التى انصهرت فيها
مصنقات الجماعة وأفكارها على الجملة هى حصيلة ما هو
سائد فيها بشأن ماضيها وحاضرها من واقع وضائع ، ومن
حقيقة و خيال ، ومن أمل وخوف !

يستطيع المتأمل أن يدرك من هذا الحكم أنه لم يخرج
عن كونه اعتياداً مزمناً متوارثاً على التسليم بالخصوصية
والانفراد والانعزال لكل جماعة فى بقعة الأرض التى عاشت
عليها متى أحست بوجودها المتميز وعرفت واعترفت سراً

وعلانية باختصاصها بإقليمها ورسب فى أعماقها واجب
الحرص على ذلك والمحافظة عليه بكل ما تستطيع .

جديد طارئ !

ويبدو أن شيئاً جديداً قد طرأ فى أيامنا على دنيانا ..
إذ يتنا نكاد نلمس ميل مكان عالمنا — إلى تغيير جذرى من
الانكماش القديم والتحوصل إلى الانتشار ، ومن التوجس
والحذر إلى الجرأة والانطلاق .. وصرنا نعتاد على رؤية
الأفواج من أهل الشرق الأقصى يقيمون فى أقصى الغرب من
العالم ، وعلى رؤية السود والصفر وأبناء المناطق الحارة
والصحارى يتركون مواطنهم القديمة إلى أقاليم البيض —
يؤثرون على أقاليمهم الأصلية سكنى البلاد الباردة حيث الثلوج
والصقيع . ولم تعد الأجواء والمسافات والتضاريس والوهاد
والصحارى وثمة الحر والبرد وخوض البحار والمحيطات
وتعقيد التكوينات والستراكيب والمجهريات وأنواع الطاقة
وضورها — . لم تعد تنفر أو ترهب الأدمى أو تصده أى كان

لونه أو أصل موطنه أو تلزمه بالبقاء فى مكان ما أو القنوع
بما وجود به عليه موطن ، أو النظر نظرة المرتاع الخائف
المتوجس إذا فكر فى الانتقال من أقصى الأرض إلى أقصاها ،
أو فى استعمال الطائرة بدلاً من الدابة للوصول إلى ما يريد
ويقصد !

هذه الجزأة العامة التى فى طريقها إلى المزيد عدداً
وكيفاً — لا نظن أنها قابلة للانتكاس والانتكاش ، وإن كانت
قابلة لإبادة النوع البشرى نفسه .. فالأميون الآن قد خطوا
بالفعل خطى لا إمكانية ولا مكان للرجوع فيها أو الانسحاب
منها ، وإنما فيها إما مزيد من التقدم والتطور ، وإما نهاية
تامة للنوع البشرى .. ذلك أن البشر وهم لا يشعرون قد
تمردوا بالفعل على معنى الجماعة وفكرة الإقليم وباتوا فى
محيط العالمية وقبضة الاقتصاد العالمى التى قد تنمر الجميع
وتخفق الكل . لأنها قبضة انفعالية دون أن تشعر .. قد توقظ
فى عامة البشر اليأس والتشاوم فيحلو التدمير والانتحار عند
الكلفة ، وعندئذ لن تجدى ما حرصت بعض الدول الكبرى

على جمعه وحفظه فى أماكن آمنة من ثروات أو من مآثورات
العلوم والفنون والصناعات والمخترعات لمواجهة التعرض
لتدمير ما هو قائم - بفعل الغارات والحروب المهلكة
المحتملة !!

وتلك الخطوات نحو العالمية التى خطتها جماعات
البشر فى أيامنا ، هامة وخطيرة إيجاباً وسلباً ، لأنها تستوجب
من عموم الأُمميين عملاً وفكراً توجبهما مقاصدهم وجهودهم
واهتماماتهم نحو المستقبل بسمعته وسعة العالم ، وتخلصهم فى
الوقت نفسه من الاستفراق المألوف فى ماضى كل جماعة
وظروف إقليمها المعهودة - اللهم إلا لمجرد العظة والمقارنة
والانقواء . لأن الاستفراق فى ماض على نية الهداية ويقصد
الدراية والاتصاق والتثبيت عبث كئيب وقعود يشبه الكمحاح
واضاعة للأعمار والفرص الثمينة تنتهى حتماً إلى ضياع
أو هلاك .

لا مكان للركون للمألوف !

التفرغ للمستقبل بسعة وشمول يستلزم الحرص والاعتدال على اليقظة والعزيمة والاعتدال والمثابرة عليها ، أما الركون المألوف إلى التراخي والاستخفاف والاكتفاء بأقل مجهود - فنهايته المحتومة هي الفشل وتبعية الغير لدى آمنين يتحكم في حياتهم اقتصاد عالمي في طريقه إلى الاكتمال لا اقتصاد إقليمي موضعى يخضع لعوائد وعلاقات وأعراف ومصنفات وعقائد هذه الجماعة المعينة أو تلك . هذا الفشل هو المصدر الأساسى الملبي في الخطى والتي يخطوها عالم البشر في طريقه إلى الاقتصاد العالمى الذى لم يعد أمام البشر سواء ، والذى ظهرت أمارته وشواهد في كافة بلاد العالم - في أصوات وغوغاء المسطحية المتكففة المزعجة المصحوبة بالادعاء والغرور والعناد والتعصب والعصيان ويتفشى الغش والحقْد وقلة النمة وبكثرة ما نشهده ونسمع به صباح مساء من صور عدم المبالاة وقلة الاثران والاتجاء إلى العنف

والإرهاب — مما تنتقله عقب حدوثه إلى جميع الأفاق الواسعة
الحديثة البالغة التقدم للاتصال والإعلام المرئى والمسموع
والنشر بكافة لغات الأكميين ، وهو ما لم يعد فى طوع أى
حاكم توقيه أو منع انتشاره فضلاً عن الحيلولة دون استقباله !
ثم إن ذلك الاقتصاد العالمى أياً كان ، هو نظام بشرى
كباقي أنظمتنا الواعية يعتمد على قواعد وعموميات بين
الأكمييين يركنون إليها زمنأ يطول أو يقصر ، لأنها عند التأمّل
ليست إلا محطات يقف ويرتاح عندها الأكميون فى مسيرتهم
المفروضة عليهم التى لا تنقطع ما دام الجنس موجوداً ، وهذه
الاستراحات ترخر دائماً بالأحلام والآمال والعواطف التى
تدعو غالبية البشر إلى التعلق بها بدرجات مختلفة برغم قلة
أو انتهاء جدواها عليهم لو أفاقوا وفطنوا إلى بطلان قواعدهم
وعومياتهم القديمة ، وذلك دائماً فرع على تغير الظروف التى
لم تعد تصلح للاعتماد عليها فيها ، ثم هم لا يلبثون مع ذلك أن
يركضوا إلى مثيلاتها على عقيدة أنها هى الأصح أو أنها عمل
أجدى وأنفع فى ظروف زمانهم !

ثم ما زال الاقتصاد العالمى فى بداياته التى وضحت وضوحاً جزئياً بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وهى كما قلنا لم تخرج عن كونه نظاماً بشرياً غير مسبوق سيبقى أمده طويلاً متقللاً بأحمال لا أول لها ولا آخر من التقاليد والأعراف والعادات والعقائد والتعاليم والوطنيات والأقليات والكيانات ميساسية واجتماعية وأخلاقية .. كل من هذه المصطلحات عنوان لفروق جمة متوارثة عميقة الجذور فى النفوس مرتبطة من قديم باللون والأصل والمولد والجماعة والتاريخ والدين والملة والتوطن ، وإذابة آثار كل هذه الفروق تحتاج حسب تقديرنا الآن إلى أحقاب من المعاملات والممارسات المتواترة تزيد باستمرار إمكانات وفرص نجاحها وجدواها بوضوح لعين الأسمى العادى ، كما تستلزم أطراف أزمئة الأمان والاستقرار ورجحانها بشكل ظاهر ، على واقع الأزمات والقلل والفتن والثورات والحروب ، بحيث يبقى فى ذهن الأسمى العادى على

الدوام أن السلام هو القاعدة ، وأن الاضطراب مجرد عارض
استثنائي يعترض مسيرة القاعدة دون أن يكتنبها !
ومع التسليم باستحالة إزالة الفارق أو الفوارق بين
الإنسان العادى وبين النابه ، إلا أن تضيق الفوارق بينهما
أصبح هم كل حكومة يقظة ، وهذا هو أساس اهتمام الدول
قاطبة بنشر التعليم والمتعلمين فى ربوعها وحرص
معظمها على التخلص من الأمية بين رعاياها وتشجيع المناقشة
على ذلك بإشراك الشعب كله غنيه وفقيره ، حضره وريفه ،
ذكوره وإناثه ، فى مساعيها الثقافية والفنية العامة .. يجرى
ذلك ويستمر فى الجريان برغم أن هذه المساعى وما أنفق فيها
من جهود وأموال طائلة لم يمكنها من القضاء على نزق وغفلة
واندفاع وموجدة وسطحية ملايين القارئین الكاتبين كثيرى
الكلام والاعتراض والجدل المترددين على نور الكتب
والمجتمعات والنوادر ونور السينما والتمثيل ومعارض الفنون
والعلوم المثابرين فى مسااتل الإعلام المقروء والمرئى
والمسموع . كأن هذا كله مراهقة ليس منها بد فى انتظار

النضج الذى يتوقعه الصابرون المؤمنون الموقنون .. وربما كانت هذه المرافقة وقتية — بالقياس إلى ما سبقها وما سيتلوها — تستنفد طاقاتها فى حقبة أو أكثر إلى أن يتم النضج لدى غالبية الناس ، فيتم النظام الاقتصادى العالمى ويستوى على ساقه وينمى ما كان يهدده ويعترض مسيرته ويأتى أكله وكلها خير وبركة لأبناء آدم جميعاً .

أعمار الجماعات والأفراد !

غالباً ما تنمى الجماعات لأنها أطول أعماراً من الأفراد — .. غالباً ما تنمى معاناتها لشدائدها ومآسيها وما شملته من هلكى وعاجزين ومشردين ضائعين ومن نمار للعامر وتخريب للجليل للمأثور .. تنمى ذلك الشقاء الهائل فور إفاقتها وإحساسها العام بتحمن حالها وهى تستر هذا النسيان الطبيعى بإقامة النصب أو الاحتفال بالذكرى أو بتشديد الجديد من المؤسسات على اسم الضحايا الذين لا يكاد يذكر أشخاصهم

ذاكر !

بيد أن الجماعات البشرية لا تتمتع أمجاد الحروب ، لأنها تذكرها على الدوام بضرورة الدفاع والاستعداد له ودوام وجود من يتخصص لهذا الاستعداد من الأُمميين ، وخلف ذلك دائماً نجد حرص غالبية كل جماعة على بقائها واستقلالها فى إقليمها الذى اعتادت عليه وصيانة موارد شعبها .. هذه الإقليمية ما زالت إلى اليوم شاغلاً أساسياً للشعوب ، وهى ضمن العقبات الكبرى فى طريق النظام الدولى لاقتصاد العالم يهدد اكتمال سيادته مقام الاعتبار الإقليمية والوطنية عن وضعها الحالى الفريد . ذلك أن سيادة الاقتصاد العالمى تقتضى من غالبية البشر فى كل جهة من هذا العالم — الالتزام بحرية الحركة والانتقال والاختيار والتعامل الموافق للقواعد والمعايير المتعارف عليها عالمياً — لجميع البشر فى جميع الأمكنة مواطنين وغير مواطنين بغير التفات لأى اعتبار آخر سوى سلامة التعامل دولياً .

وسيادة النظام الاقتصادى الدولى إذا تمت ستجنب
البشر بعمامة معظم دواعى الخلافات والأحقاد والحروب ، وهو
خير عظيم لجميع الناس ينجيهم من ضرورات الإذعان لدواعى
الأمستراك فى الفتن والصدام والحرب ، مع التسليم بأنه سيبقى
بعده بين أفرادهم جانب بسبب الأنانية والمنافسة وإساءة الظنون
والحسد وغيرها من أنواع الخلافات والخصومات التى ترجع
لتعلق الأنمى " بالذات " أو " الأنا " وانحيازه لها برغم
علاقته وروابطه بغيره مهما اتسعت !

وسعة واقع الاقتصاد العالمى الآن وسطوته وقبضته
التي تكاد تمسك بكل جماعة وكل دولة وكل إقليم كبير أو صغير
— ماثلة لكل عين تريد أن ترى وتعنى وتفهم ما فيه مما
بات عالمياً ولم يعد محلياً أو إقليمياً .. تراه فى كثرة البنوك
ودور المال والأسواق المالية والبورصات الخاصة بالنقد
أو الأسهم والسندات أو بالحواسلات أو بالبنترول أو بالمعادن ،
وفى مراكز التجارة والتبادل والنقل والموانئ والمطارات ودور
التأمين وحركات الاستثمارات والصادرات والواردات الهائلة

الخارجية التي لا تتوقف في ليل أو نهار ، وتراه في عدد
وضخامة المصانع والمعامل والوكالات وشركات التأمين
ومكاتب الوساطة والخبرة والدعاية والإعلان والأنباء وشبكات
الاتصالات العالمية سلكية ولا سلكية الضخمة الفائقة الكفاية
التي لا تهدأ في ليل أو نهار كذلك .. هذا كله وجد ويوجد
لمنوات ومنذ سنوات دون أن يشعر الأكميون بأنه يميز ويغير
كل يوم محيطهم ومستقبلهم ، فلم يعمدوا قادرين على فداحة
العودة إلى العيش في ضيق الإقليمية بعيداً عن العالمية وعن
اتساع تركيبها الفخم الضخم وإمكاناته .. هذه الإمكانيات التي
ليس لها حدود في تقدم الأكمي وتطوير حياته ومسارها الذي
انفتح الآن إلى غير نهاية إذا احتفظ الأكمي بفطنته ولم يهمل
بحماقاته في لحظات خبل — جميع ما بناء بمواهبه وإلهاماته
وجرائته وإصراره ومثابرته !

والمجيب أن ذلك النظام الهائل الضخم الفخم لم يقم
بتدبير حاكم أو حكومة ، بل قام تدريجياً وتلقائياً بروى
ومنارات ومشاريع بعض الأفراد هنا وهناك .. هؤلاء

لم يحلموا بأكثر من الزيادة فى الخير من فرص التبادل واتساعه ، ولذلك لا يكاد يجمع شتات ذلك الاقتصاد العالمى الشامل قوانين محلية أو دولية مدونة إلا أقل القليل لردع المختل والمتعصب والمخرب والضال والغاش والمزور والمفسر .. فهذا النظام الشامخ قائم أساساً وسيظل كذلك لأمد — على احترام الأعراف والاتفاقات وعلى الثقة والائتمان اللذين لا يعوض عنهما التشريعات والجزاءات ، ولذلك اشتملت معظم الاتفاقات والعقود الخارجية ذات الطابع الدولى المبرمة بين الشركات والمؤسسات وبعضها البعض أو بينها وبين الأفراد أو بينها وبين الحكومات والجهات الرسمية على شرط مكتوب بالالتجاء عند الخلاف الذى لا ينتهى ونياً — إلى حكم محكمين مختارين يكون حكمهم نهائياً تفادياً لبطء وتكرار درجات التقاضى العادى وكثرة النفقات فى الالتجاء إلى القضاء المحلى فى بلد الخصم المدعى عليه ، وقد أنشئت لذلك مراكز دولية متفق عليها لهذا النوع من التحكيم مثل محكمة التحكيم الدولية بالغرفة التجارية فى باريس ونظيرتها فى استوكهولم —

علماً بأن أحكام المحكمين مفترض أنها نهائية وهى تقابل بالاحترام والنفاذ فى كل بلد متمدين أو فى طريقه إلى التمدين ما لم يكن إلغائها فى أحوال استثنائية مقررأ فى قانون بلد التنفيذ .

* * *

مهما تعددت الإمكانيات والآليات ، فإن السيطرة على الاقتصاد العالمى أمر محال ، هذا ولظهور أعراض غير مستحبة بل مخرية للاستثمار بالأسواق الأجنبية وإغراقها بنواتج بعض البلاد مع حماية أسواقها هى من التعرض لمثل هذه الانتهازية البعيدة عن الإنصاف — كثرت فى السنوات الأخيرة صيحات الدول الكبيرة بضرورة وقف هذا النوع من السياسة الاقتصادية لحدود متفق عليها فى اتفاقات تلزم أطرافها ، بحيث تتعرض إما للأخذ بالتأثر وإما للتعويض عند الخروج على الحدود المتفق عليها .

ومشاكلنا كلها ترجع فيما يبدو إلى أن أفعالنا فى الغالب — بدايات فكر وليمت نهاياته ، فأفعال البشر وقراراتهم يعاصرها أول الأمر وفى أكثر الأحيان حماس الجرأة وحب التجربة والمغامرة .. وهذه بدايات فكرية وشعورية معاً غير محققة لم يشهد الواقع المستمر المستقر بسلامتها ولم ينته الفكر إلى مده فى شأنها — ذلك لأن النهايات الفكرية أحكام على واقع لا على فروض وأمارات وبوانر ومقدمات ومحاولات ومشروعات ، بينما الاقتصاد العالمى بوضعه الحالى ما زال يعبر بدايات وتكشف للآمنين مع مرور الوقت مزاياه الضخمة ومخاطره الهائلة مما يحتاج باستمرار إلى المواجهة والمعالجة واليقظة والتعاون الجاد بين جميع المشاركين كباراً وغير كبار — إذ يستحيل أن يعهد بصيانة الاقتصاد العالمى والسهر عليه إلى دولة أو مجموعة دول بعينها معرضة للانحياز إلى مصلحتها أو مصالحها هى بالذات بغير اهتمام جدى بمصالح باقى الجماعات الأخرى وحقوقها فى الاستفادة أيضاً من مزايا وسعة ذلك الاقتصاد الذى ينبغى ألا يكون

صورة جديدة لاستعباد أو استغلال أو الإفقار أو الحيلولة بين فريق من الأسميين وبين فرص ترفيهم وتطورهم .. فالتقسيم العائد اليوم — بين الدول المتقدمة أو الكبرى ، وبين دول العالم الثالث — لا يمكن أن يدوم ، لأنه لا يتفق مع مسار نجاح الاقتصاد العالمى ، إذ يستبقى أبغض معالم التعلق بالإقليمية والتصاقها غير المعقول بمصالح الإقليم والجماعة وأحلامه القديمة التى لم يعد يقبلها تطور الإنسان الذى يرفض أن ينظر أى آدمى من علٍ إلى آدمى آخر تبعاً لائتمائه إلى بلد غير كبير ، أو إلى حضارة أو لغة أو محنة مختلفة !!

على أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن كل اقتصاد وكل سياسة وكل إدارة ونظام وتكوين وقومية ووطنية وعقيدة وديانة — تبدأ وتنتهى دائماً بالتعامل مع الأفراد الذين لكل منهم ذات متميزة .. وطباع الأفراد وأطوارهم وردود أفعالهم ومشاربهم وأعرافهم وأخلاقهم وعاداتهم وأفكارهم وأهوازهم وميولهم منها ما ينعكس حتماً على تلك العموميات ويؤثر فيها بقدر يقل أو يزيد كما يتأثر بها ويمكن أن يغير

مسارها كما تغير مساره ، وهذا هو قدر البشر الذى يجتهدون فيه من أول الدهر ويسعون إلى تفهمه والتقاوم معه بنجاح نمبى فقط ! .. فنحن جميعاً بالغا ما بلغ رقبنا وتطورنا فى المجموع — معرضون لنكبات مؤكدة إذا حصر كل منا همه فى ذاته وحدها وما يعتقد أو يتصور أنه متفق مع مصلحته أو هواه أو أحقادها أو أطماعه . وسيظل السؤال قائماً ينتظر الإجابة الصحيحة : هل يمكن أن يشيد البشر أنظمة يحترمونها بجد وغيره على الدوام ؟ وهل يجىء يوم يفترض فيه عموم البشر أن كل تغيير فى نظام أو قاعدة أو مبدأ أصبح ملزماً للعموم من الأفراد بالاعتقاد أو بالاتفاق لا يجوز أن يتم إلا بموافقة صحيحة من غالبية الناس بعد رؤية خاصة فى المعاملات الدولية وحقوق الإنسان ؟ .. الإجابة الصحيحة صعبة — إن لم تكن مستحيلة — مع كثرة الجهل والجهلاء بين الأتَميين ، إذ تدعو شدة الجهل — العاقل الفطن إلى إهمال رأى الجهلاء ، وهذا هو ما وطد النظم الاستبدادية للحكم من أول الدهر فى الجماعات ، وهو هو الذى أدى إلى فشل نظم الحكم

حالياً فى غالبية الدول التى تتصف شكلاً بالديمقراطية والديمقراطية البرلمانية برغم أن هذا الفضل لم ينقل حالياً ولا يمكن أن ينقل كفة الحكم الإستبدادية الذى يسنده كثرة الجهل والجبين أو كثرة للكسب والنهب كما حدث ويحدث فى البلاد الحديثة العهد باليسار بعد طول افتقار .. حيث يشتد فيها التهاافت على الاقتناء والاستمتاع ، ولا يلتفت أكثر الناس لغيرهما ، ولا لما يفوز به الحكام وأسرهم وما يبدونوه بلا رقيب أو حسيب ، إذ الشعوب العام بالسمعة واليسار الطارئ يضعف الإحساس بالحاجة إلى النظام والاقتصاد والتدبير وتقديم الأهم على المهم والعام على الخاص والأخص والدائم على الوقتى العرضى !

ويبعد فى جيلنا أن تتخلى الدول الكبرى والكبيرة عن الإحساس بتميزها الذى يجب فى نظرها أن يخولها صوتاً أعلى وإرادة أقوى فى العلم والحرب والسياسة والاقتصاد الدوليين .. كما يبدو أيضاً أن الدول الأخرى لا ولن تتخلى عن شعورها الدفين العميق بمقت ذلك التميز وتوابعه ، ولا عن أن

تتخلى عن اعتيادها إيماناً بجميع مشاكلها العامة من افتقار
أو تأخر أو متاعب أو لزمات إلى ذلك التمييز المفقوت ..
ومعنى هذا أنه يستحيل إلى اليوم أن تتحقق وحدة خالصة
مخلصة بين أهل الأرض في ظل الإحساس بتمييز المتبوع
وحقد التابع وتبعيته !! أو في ظل إغفال أن البشر لكى
يتحقق لهم ترقّهم كواقع دائم — يجب أن يتحقق لهم تأخيرهم
فعلاً لا اسماً مع نسيان الفوارق الخارجية وانعكاساتها على
عقولهم وضمائرهم ونفوسهم !!

آلامنا الحاضرة ورؤيتنا لآلنا !

إن آلامنا الحاضرة تتسببنا آلامنا ورؤيتنا لآلنا —
ومع تلك الآلام نوزع ألوان الغضب واللغات والعداوات على
هذه أو تلك من الجماعات الأخرى ممن نظن — مخطئين
أو مغالين — أن لهم دخلاً في تلك الآلام .. وذلك دون أن
نلتفت إلى ما هو نصيبنا من أسباب شقائنا بدايةً ونهايةً لأننا
ننتظر من الغير أن يكون مثلاً للعقل والصبر وصدق الوعد

والاستعداد للمعونة والخدمة — وللإنصاف والائتزان
والاستقامة ، ولا ننتظر من أنفسنا مثل ذلك .. ولو انتظرناه
من أنفسنا وطلبناها به لاستقام أمرنا وأمر غيرنا ، ولما شقينا
وشقى الآخرون بسبب حماقة وقلة الصبر وإخلاف الوعد
والعهد والبخل بالمعونة والخدمة — والبعد عن الإنصاف
والائتزان والاستقامة .. فالكبار والصغار من جماعات
الأميين وأفرادهم يرجع ما هم عليه من تضاد فى الغنى والفقر
والاجتهاد والكسل والصبر والقلق والعلم والجهل والائتزان
والخرق والإنصاف والظن — إلى ما هم عليه من الأخلاط
والاختلاط وامتزاج المزاي والعيوب سائفة الذكر بنسب تختلف
باختلاف الجماعات وأفرادها واختلاف عهودها وظروفها
وأزمنتها وأمكنتها ، وهو اختلاف لا يتصور أحد الآن إلزاقه ،
إنما من المتصور والمأمول مع تضافر الجهود والنوايا — نقله
من حالته الراهنة المثقلة بالعشوائية والأنانية والوهم والتعصب
والعناد والجهل — إلى حالة أكثر فطنة ووعياً وفهماً واتزاناً

ومثابرة واجتهاداً وصبراً مليئاً بالأمل فى الوصول إلى ما هو أفضل وأكثر إنسانية وعدلاً فى يوم ما ليس بعيداً .

ومن قديم الزمان جرى البشر بعامة على أن ينكروا بمرارة سيئات الآخرين ناسين سيئات أنفسهم ، وهذا من أسباب التأخر العسيرة على العلاج فى ماضيهم أو حاضريهم .. ولو أنهم التفقتوا إلى نكر حسنات الغير ومزاياه وإلى محاولة محاكاتها بجد وإصرار — لتغيرت أحوال جميع الناس ، ولبلغوا فى عمومهم من الترقى والتقدم أضعاف ما هم عليه الآن .. وقد حققت شعوب شرق آسيا شيئاً كهذا فى السنوات الأخيرة ، وياتت مصنوعاتهم تنافس منافسة حامية إنتاج الدول الغربية فى بلادها وفى الأسواق الخارجية ، لأن الاجتهاد المنتج — المبني على بدايات من المحاكاة والتقليد ثم الانتقال منها إلى الابتكار والسبق — يطفى حتماً نار الحقد والعداء التى هى وقود حيرة وحاجة العاجز المنتظر لمعونة الآخرين ، وهى معونة لا تزيل فاقة الكسلان أو خمول العاجز الذى لا يكره

عجزه ولا ينمى قدراته على العمل بينما ينمى أحقادهم وشكاواهم
واتهاماتهم لزمانه وأهل زمانه !!

ويبدو أن الجماعات البشرية لا تستوى في القدرة على
العمل الطويل المجدد والانتكباب عليه واحترامه ، فوجود هذا
النوع من الأكميين في جماعة أماره على قوة تكوين وتركيب
أفرادها بغض النظر عن حالة الجماعة الراهنة من الفقر
والغنى والتفاخر والتقدم ، فإن كانت فقيرة ومتأخرة ، فهي
لا تنتظر إلا المرشدين المخلصين ليرى العالم منها نواتج
قدرتها غير العادية على العمل والالتصاف إليه ، وإن كانت
غنية فغناها لا بد باق ما دام لديها مثل هذا النوع من اليد
العاملة .. والذي ينضم إلى مثل هذه الجماعة ويعتاد عاداتها
ومشاربها يصبح منها وإن كان غريب الأصل طارناً ، ومن
ينتقل منها إلى بلد اعتاد أهله قلة الجد في العمل — يكون محط
طلب وموضع إعجاب ، ويصبح متميزاً على أهلها بمقدرته ..
وهذا ملحوظ فيمن هاجروا من اليابان والصين وكوريا وفيتنام
إلى الشرق الأوسط وبلاد الغرب .

فسيادة الاقتصاد العالمى إذا عمت وكملت لا يكون لها
فى الواقع معنى إلاّ المعاواة فى فرص العمل والكسب لجميع
البشر وتجميع الأجناس على حسب قدرات ومواهب ومعارف
كل فرد نكراً كان أو أنثى .. حينذاك وفى هذه المرحلة
المتقدمة جداً لن يكون الانتماء للوطن أو للجنس أو للون
أو للعنصر — له معناه الحالى ، بل يصير مجرد معنى
اجتماعى لا تأثير له على أبواب الرزق المنصفة التى تفتح
للإنسان أفاقاً لا محل فيها للتمييز بالأعراق أو الألوان ،
وإنما بالقدره الجادة على العمل المخلص المثقن ،
وعلى صناعة الحياة !

القوة .. تلك المضبوقة المحيرة !

.. محاولة رد الدنيا أو الناس إلى حضارة سابقة محلية أو إقليمية كانت ما كانت ، نوع من الحلم والوهم والردة .. هذا ولا يمكن أن تؤدي إلى شيء باق . موجات وتيارات الاسترابة والشك والغموض واللبس ، أو موجات القلق وعدم الأمان والشعور بفقد الاستقرار التي يشعر بها الكثيرون في زماننا .. إذ يستحيل أن يرد أبناء هذا العصر الذين ولدوا فيه وتشربوا من بحره ، إلى غير واقعهم وزمانهم ومكانهم ، لا في عين العقل ولا في نظر التاريخ !!

على أن ما نشهده الآن من محاولات للتقارب والتعاون والاتفاق على رؤى ومخططات مشتركة ، اقتصادية أو مالية أو اجتماعية أو علمية أو تعليمية أو بيئية بين الدول الإسلامية أو العربية أو الأفريقية ليس بالضرورة نكسة واردة إلى الماضي المنصرم ، ولا هي جهود أو محاولات لرفض المشاركة في الحضارة العالمية أو تحريض على الابتعاد عن

الاندماج فيها ، بل لعلها بالعكس صورة مختارة من صور
تركيز الرغبة على إبراز وإظهار الاشتراك في هذه الحضارة
والانتماء إليها بالسير في خطوطها العريضة الجامعة النافعة .
مثل هذه الرؤى والتخطيطات هي من معالم الحضارة
الحالية ، وهي تبدى للعيون اقتناع المسلمين بأن دينهم ليس دين
انكماش وعزلة وتعصب وتشيع لأهله ضد غيرهم من البشر ،
كما تبدى اقتناع العرب والأفارقة بأن الانتساب إلى العروبة
أو إلى الأفريقية لا يعنى تعصباً لجنس ضد غيره من
الأجناس ، أو يعنى كراهية أهل قارة لأهالى القارات الأخرى ،
إنما يعنى أولاً وأخيراً الانتفاع العاقل الفاهم بالصلات والروابط
المشتركة الموجودة فعلاً وواقعاً — فى تنمية الاقتصاد والأمن
العاملين على نمو وازدهار الوحدات القوية المشتركة فى تلك
الصلات والروابط .. وهذا من المقاصد الأولى للحضارة
الحالية التى يجتهد الكل فى وصفها بالعالمية .

ليست الحضارة التي تجمعنا الآن حضارة احتكار ،
يبقى فيها الخامل خاملاً والجاهل جاهلاً والفقير فقيراً ، لكى
يظل المتفوق متفوقاً وحده ، أو يبقى فيها المتعلم متعلماً بغير
منافس ، والغنى غنياً دون أن ينضم إليه آخر كان من قبل
فقيراً !

ولا ريب أن الاحتكار يصبح أشد مقتاً وإضراراً
وإمعاناً فى الجشع والأثنية والانتهازية حين يكون الاحتكار
من جماعة أو طائفة أو طبقة أو دولة أو عدد من الشعوب
والدول ، لأنه عندئذ يكون أفدح امتصاصاً واستنزافاً واستغلالاً
فى نهب وسلب مجاميع فقيرة غفيرة فى بلاد متأخرة قليلة
الحيلة والقدرة على مقاومة ورد أصناف النهب المنظمة
المحكمة التى اعتادت أن تقتربها من خارجها باستمرار
وانتظام !!

وقولنا إن الحضارة الحالية ليست حضارة احتكار ،
ليس معناه أن الاحتكار بصورة كلها غير موجود ، وإنما معناه
أنه بات غير مشروع فى كل أشكاله فى البلاد التى لا يحكمها

حزب واحد .. قبلاذ الحزب الواحد هى أساساً بلاد احتكر
من ألفها إلى يائها كائنا ما كان العنوان أو الوصف الذى تعطيه
لنفسها أو لمنظماتها ومؤسساتها أو لشرائعها وقواعدها
ومبادئها !

ويبدو أن واقع الأكميين مهما كان تقدمهم وترقيهم ،
لا يمكن أن يخلو من الأضرار والأضرار والأخطار ما داموا
مرتبطين ملازمين لهذه الأرض .. وهم لذلك لا يستغنون قط
عن حاكم وحكومة وخضوع للحاكم والحكومة ، وهذا الخضوع
حتماً خضوع من الكثرة العددية المشغولة بالسعى والكسب
وراء أرزاقها ، تصحبه دائماً " سلطة " أو " قوة " ممن يكون
بيدهم هذه السلطة القائمة على النظام والتنظيم والأمر والنهى
والضبط والربط والثواب والعقاب ، وهؤلاء دائماً قلة
يستخدمون أعواناً وأتباعاً وشرطة وعسكراً .. وهؤلاء بدورهم
يصيبهم بالضرورة شىء من تلك النفوذ إما من رؤسائهم
أو من أصداء تلك النفوذ بعامة !

جنب السلطة والحكام !

وجنب السلطة الحاكمة لأنظار العامة — مشهود منذ عرف الإنيمان معنى الحاكم والحكومة .. وهو جنب إما بهوى ابتغاء المشاركة فى الشعور بالتفوق مع المحظوظين بممارستها ثم بالترقى فيها اشتهاً للاستتار أو التفرد بها أو البقاء فيها — وإما اكتفاء بالاحتماء فى ظلها لاستعمال اسمها ونفوذها فى الفائدة أو النفع الخاص وإقناع العلبيين بالتميز أو المنزلة التى اختص بها ذلك المنتمى إلى الحاكم أو الحكومة !

ثم إن التقرب أو القرب من الحاكم أو الحكومة — أياً كان لونه أو نوعه — هو فى ذاته قوة لصاحبه الذى ليس حاكماً أو تابعاً لحاكم .. هذا التقرب يحرص عليه الكثيرون ، خاصة من يحرصون على أن يكونوا شخصيات عامة طلباً للأهمية والوجود فى دوائر يستعان فيها برأيها أو يسمع صوتها ، أو تسمح الأقدار يوماً ما بانخراطها فى الحكومة والحكم ، أو فى الحزب السياسى الذى منه الحكومة — فينفسح أمامها الطريق إلى المناصب وقضاء المصالح !

ودائماً ما يلزم سلطة الحاكم — أى قوته الرسمية —
قوة المتصلين به الناتجة من اتصالهم ، والمبنية على ذلك
الاتصال المتعدد الأسباب . . ذلك الاتصال الذى يجتهد أصحابه
فى المحافظة على بقاءه ونمائه لأنه صار عنصراً من عناصر
ما لديهم من قوة تميزهم عن سواهم من أفراد المجتمع !
وهذه القوى المتعلقة بالحكم والحكومة كلها فى الأصل
قوة اجتماعية صرف ، لكنها فى كثير من الأحوال تتحول
أيضاً إلى قوة مالية تدخل فى حوزة صاحبها وتبقى معه بعد أن
يفقد اتصاله بالحكم والحكومة قدماً تاماً .

ثم إن قوة الحاكم حتى وإن كانت ذات مصدر وراثى ،
ليست خالية صافية من الأفلاق والهموم ، إذ يداخل صاحبها
مع شعوره الغامر بالاعتدار والامتياز اللذين لا حدود لهما فى
نظره — .. يداخله ويلزمه إحساس لا يفارقه فى لحظة أو نوم
— بخطر غير محدود النوع على حياته وعلى مركزه ،
لتصوره الدائم لملايين الأعين التى ترقب مكانته الفريدة وقد
بات معها عزيزاً وحيداً فى مقامه بعيداً بعداً هائلاً لا سبيل

لنسيانه عن باقى الآميين العاديين ! .. فقرة الحاكم مثلها مثل
قوة ذى المال يمارسها صاحبها ومعها خوفه عليها وعلى
نفسه ، منتبهاً محاسباً حساب ما يمكن أن يهددها !!

إذ لم يعط أى أسمى قط قدرات مطلقة وإنما منح فقط
قدرات معها احتمالات مضادة .. فترى أسرة الحاكم يلزمها
بعد وفاته شيء من مكانته ، وقد يشعر به جمهور الناس على
نحو ما ، لكنه يتناقص بمرور الوقت ويختفى تدريجياً نتيجة
الانتقالات إلى الحاكم الجديد !

والحاكم عادة يمد قوته ويقلصها وينفرد بها أو يشرك
معه فيها غيره بحسب إحساسه بإمكاناته وتقديره لها وحكمه
على ظروف البلد التى يحكمها وكثرة أو قلة أطماعه
وشهواته ، ولما يباشر الحكام سلطاتهم باعتدال وحكمة -
لغلبة الميل فيهم إلى توسيع السلطة وإفصاح مدة بقائهم على
رأسها ، لأن ذلك إن كان مرتبطاً بنظام الحكم - إلا أن غالبهم
لا يتخرج فى الانتفاع ببسط سلطانهم المادى والمعنوى إلى
أقصى حد ممكن ، وقد يعرضهم ذلك للقالبة العامة

وتفشيها ثم تطورها إلى إتهام يبدو فى أول الأمر خافئاً
ثم يتردد على الألسنة والأقلام ! .. وقد يبقى الحاكم فى مركزه
رغم ذلك بالاستناد إلى كثرة إخوانه وأعدائه ونفوذهم ،
وهؤلاء يستغلون شدة احتياجه إليهم فى المزيد من التسلط
والاعتماد كل على مقدار ما يتاح من ذلك له !

ولأن نوام الحال من المحال ، فإنه غالباً ما يحرص
الحكام على أن يكون لكل منهم تاريخ يسجل أمجاده الفعلية أو
المفتعلة ، وهم يدأبون على ذلك ويصطفون من الكتاب
والصحفيين والإذاعيين لنشر وبث وإذاعة الآلاء ومستر
الأخطاء ، ولذا كانت تواريخ الحكام عادة مشوبة بالانحياز
المباشر المتعمد أو المشوه بالانخداع نتيجة الأخذ بما سبق
نشره وترديده وقت إقبال الدنيا !!

* * *

الرؤساء العاملون مع الحاكم أو فى ظله ضعفاء أقوياء
فى أن واحد .. ضعفاء أصاغر فى الاتجاه الأعلى ، وأقوياء
عثة بالنسبة لمن تحتهم وللعامه .. فهم يمارسون فى وقت
واحد الضعف والقوة حسب الأحوال ، ولا يخلطون قط بين
هذين الوضعين المتقابلين .. وهم من هذه الوجهة أوسع حيلة
وليعموا أقل شراً وخبثاً — إلا فى القليل النادر — من الأحوال .
وذلك لانتشار العدوى بين أولئك المتعديين الذين يرقبون
بعضهم بعضاً فى المناقع ، ويبالغون فى أحاديثهم عنها !
أما النفوذ .. فمصدره البشرى الصلات والقرايبات
بالحكام والرؤساء والزعماء والأكابر ، وهو أكثر وضوحاً فى
حاشية الحاكم أو الوزير أو الزعيم وفى أسرته ، وكثيراً ما
يمتد الامتياز والتفضيل إليهم تلقائياً من غير طلب صريح
أو ضمنى ثقة من صاحب اليد أنها ستعود عليه بالنفع العميم ،
وعند الاحتياج إذا طلب !! .. وكثيراً ما يدعى المدعون ذلك
النفوذ بالباطل من باب الاحتيال والاستغلال والاستغلال

لاقتناص مغنم ممن يريد أن يتقرب أو يتودد لدائرة الحاكم
أو حاشيته !

وحين يكون لجنس من الأجناس البشرية اعتبار
عام فى بلد ما لسبب سياسى أو اجتماعى أو دينى ، يكون لأهل
ذلك الجنس مكانة وكلمة وقوة تميزهم عن سواهم .. ولذا
يجتهد النصابون والمغامرون فى ادعاء الانتماء لذلك الجنس
أولاً منهم فى اغتيال الحقوق وكسب الحرام .. وكثيراً ما
ينتحلون الأسماء والألقاب والأصول ورد الأجداد القماء إلى
أشراف البلاد المقدمة عند ذلك الشعب أو ذلك ، بل ورد أولئك
المزعومين إلى قرابة الأنبياء وحواريهم وصحابتهم وتيه
هذا وذلك منهم بشجرة نسب الزائف التى افتعلها القمء
وأورثها لبنيه وحفنته ليزعموا بها أنهم من الأشراف
أو البكوية أو ما سوى ذلك من العبادة الأتيمين ، اتصالاً منهم
كاذباً بأصحاب القوى الروحية ومصادر النعمات الذكية وأركان
الديانات والعقائد الذين غادروا هذا العالم من قرون عديدة جداً
تاهت معها معالم أقاربهم وأسره على ذاكرة أحياء هذا الزمان

إلى غير رجعة — فما بين أيدينا من أنساب الأجداد الآن التى
يمكن التعويل على صحتها يستحيل عقلاً وفطنة أن يرجع
باطمئنان إلى ذلك الماضى الأبعد .. ولعل من أكثر ما نراه من
ذلك ما هو مدون على جدران الأضرحة العديدة المفتوحة
الأبواب لزيارات آلاف المعتقدين ونورهم وعطاياهم
وشكاواهم وسؤال مددهم ومعونتهم — وهذا عالم بأسره من
الوهم ، أقامه الأحياء وقيمونه إشباعاً لحاجاتهم الشديدة جداً
إلى الرجاء والأمل والعون والمواساة والعزاء !

فنحن الأسميين نصطنع دون أن نشعر ما يشبع حاجاتنا
الملحة دون أن نهتم كثيراً بصحة وواقع ما اصطنعناه ما دام
كافياً صالحاً لمسيل عواطفنا وتدفقها أفراداً وجماعات — وغالباً
ما يبنى فى طريق الضريح أو بجواره مسجد أو زاوية ليزيد
صلاة المصلين من وثاقة ولاية صاحب الضريح ويزيد
الضريح فى إقبال المصلين على زيارة الضريح واجتماع
المسجد مع الضريح فتح الباب لزيادة عدد الأضرحة بين وقت
وآخر يقصر أو يطول ، ويشمل للوافدين عندئذ إيمان عام

واحد يجمع أهل الأضرحة جميعاً فتأخذ حالتنا الملحمة
المنكورة أوسع فرصها وإمكاناتها .

ومن قديم الزمان يُختار عمد البلاد ومشايخها فى
الريف من الأسر الكبيرة - اعتماداً على قوتها وعزوتها فضلاً
عن استناد العمدة أو الشيخ لتلك القوة أو العزوة ، ولعل ذلك
بقية باقية من نظام الحكم القديم حيث كان السلطان أو الأمراء
أو الوالى يختار أحد كبار الأسر فى البلدة البعيدة ليحكمها
باسمه ولحسابه . فالأسرة الكبيرة قوة والانتماء إليها قوة أخرى
لصيقة بها دائماً فى الريف لا يعصمها افتقار الفقير عن الغنى
وإحتياجه إليه إذا احتاج !

ويبدو أن الأسرة تكون كبيرة إذا اعترف معظم أهل
البلد بذلك لقدمها النسبى وكثرة عدد المنتمين إليها ووجود
الأثرياء بينها - وعندئذ يحسب لها حسابها فى البلد ، ويحتسب
بها الأصهار والأثباع ، وتربطها فى الغالب علاقات مودة
برؤساء قوات الأمن وممثليهم .. وهؤلاء يعتمدون عليها مع
أمثالها فى فض الكثير من المشاكل المحلية .

والغنى المنفرد فى الريف بزوجة أو أزواجه وأولاده
— يحتاج رغم غناه إلى حماية أسرة كبيرة ، لأن الثراء وحده
فى الريف لا يستطيع أن يحمى نفسه ، إذ أهل الريف بخلاف
أهل الحضر — ينتصر بعضهم لبعض وخلافاتهم تتقلب غالباً
إلى خلافات جماعية تتواجه فيها الأسر والعائلات ، وهذه سمة
بدائية ما زالت باقية برغم تنافرها مع الإنسانية وحقوق
الإنسان ، وهى — أى حقوق الإنسان — من العقائد الحديثة
المتحضرة التى تعاق وتتغير فى طريق الأعراف والعادات
المتوارثة البالغة القدم التى يحتاج تغييرها إلى تعديل وتغيير
الكثير من أساليب الحياة السائدة لدى غالبية الناس !

فالبشر لا يتغيرون ولا يتطورون معاً بنفس الدرجة فى
نفس الوقت على نفس المكان ، بل يتلاحقون فى التغيير
والتطور .. هذا التلاحق متأخر دائماً ، ولكنه مستمر ويفصل
بين متقدميهم وبين متأخريهم عادة سنون وأحياناً قرون ، ومن
هنا لم تنقطع قط الخلافات فى المعتقدات والأعراف فيما بين
الناس . ولم يوجد بعد مجتمع بشرى متساوى الحضارة ،

نقيها يحسن يعضه دائماً فهم بعض ، لا يصف ولا يتعصب
ولا يتعادى ولا يتقاتل .. فالمجتمعات البشرية المتحضرة وغير
المتحضرة عكرة مليئة للآن بأسباب القلاقل والفتن .. قد تبدو
هادئة فى أوقات الرواج ، وتتقلب إلى عكس ذلك فى الأزمان
والكساد ، لأنها لم تعرف بعد قيمة ضبط النفس ولا حساب
المستقبل ولا الاعتدال فى الإنفاق والادخار .. فهى كمجاميع
أشد ميلاً إلى مسايرة شهواتها وأهوائها وأكثر اندفاعاً إلى
إلقاء أخطائها على غيرها ومساواة الغير عنها !!

أسر الاعتقاد !

إن غالبية الشعوب شديدة التمسك بما درجت عليه من
سلوكيات وأحياناً من حماقات ، لكن تقدم الجماعة أو تأخرها
يرجع إلى الأقلية التى تقودها ، فإن كانت عملية فطنة نشطة
سريعة إلى الإقلاع عن الخطأ حين اكتشافه وإلى تحسين
الأعمال ما ومعها ذلك - تقدمت الجماعة بتقديم تلك الأقلية
التي تضطر الجماعة إلى تقليدها فيما نجحت فيه ، وهو تقليد

آلى إلى أن يصير مفهوماً ثابتاً مع المران والتعليم - لكنه فى
الغالب ليس مصحوباً بنمو الفطنة النشط سريعة الإقلاع عن
الخطأ ، ومن هنا فيما يبدو كان تعرض الأغلبية للاهتراز
والقلق مع بؤادر الكساد والركود فى الأشغال والأعمال !

هذا وفى العادة يعتبر الأنميون التدبير من دلائل القوة ،
يسرى ذلك على رؤية الفرد لمصالحه الشخصية ومصالح
أهله ، مثلما يسرى على رؤية الشخصيات العامة من وصل
منهم إلى الحكم أو من هو فى سبيل الوصول إليه .

والتدبير فى حقيقته انشغال وهم يركب صاحبه ويتجه به
إلى طلب " القوة " بأى ثمن ، فإن وصل إلى مطلوبه
بعد ما بذل من عمر وصحة ومال هان فى نظره وعز عليه
إفلاته من يده بعد ذلك العناء ، أما إذا فشل فإن خيبته تكون
أنكى وأمر !!

ولذلك أسقط كبار الصوفية التدبير من حسابهم تماماً
تاركين الاهتمام بشئونهم الخاصة لله عز وجل ، وانصرفوا إلى
الاهتمام بتقواه وعبادته .. لذلك توقف فى عصر سيد

المتصوفة — نشاط العقل والفكر والعلم والمعارف الدنيوية
والفنون والآداب ، وركد التحرك البشرى الواعى ونفع بالتسليم
والاستسلام لقرون طويلة !! ، على حين أفاقنا من نعاسها
شعوب فى بلاد أخرى وفهمت وتدبرت ودبرت وبنيت على
أساس ذلك الحضارة الحالية !

سراب القوة !

ثم من معالم القوة التى يحرص عليها الأعميون
إلى جانب " التدبير " — السمعة والصيت والاشتهار والاسم
والمكانة ، وهذه عناصر تتقابل وتجتمع وتتساند فى تكوين
صورة الشخص فى عين الناس ورأيهم فيه ونظرتهم إليه ،
وهى صورة يسعى المغرم بالقوة لخلقها وتتميتها هو
ومريدوه ، مخلصين أو مخدوعين أو ماجورين .. يكسب
ويكسبون معه بها ثقة الجمهور وتأييده .. والمهم فيها
فاعليتها فى الناس لا صدقها أو واقعها المطابق
لما يعتقدون !!

القوة فيما يبدو كالسراب ، يرندها الأسمى ويتمناها ،
وقد يضيع عمره فى طلبها فى كافة صورها وأشكالها المادية
والمعنوية ، ويغرم بها غراماً لا يدرك معه أن قيمته الحقيقية
فى نفسه وفى أعماقه ، وأن هذه القوة الحقيقية الكامنة فيه
هى ملاذه ونوره وهاديه أيضاً فى هذا الكون الهائل الفسيح
الذى لا ثبات فيه لشيء ، والذى يستغرق بصيرورته وامتداده
السرمدى أعمار أجيال وحضارات دون أن يدرك أحد سره
المجيب !!

الإنسان ، والكون ، والحياة !

الأنمي كله — بقضه وقضيضه — كائن مستحدث نسبي .. لم يكن له وجود بتاتاً ثم وجد ثم لا يعود له أي وجود أو كيان ، وهو يستخدم فرضاً يسميه الزمان .. يستخدمه باستمرار ودون انقطاع استخداماً يسهل الذي كان منه والذي يكون والذي سيكون — وهو افتراض يمرّ له الوعي بوجوده أي بوجود ذاته كقيمة في عينه لا يشاركه فيها أحد سواه .. توجد هذه الذات مع وجوده وتنتهي بانتهائه .. يحس بأن لها حاضراً صار ماضياً ومستقبلاً سيكون حاضراً ، ويتصور أن يتكرر هذا في المستقبل على صورة أبقى وأدوم في آخره له تجيء عندما يبعث من مرقد بعد الموت !

فإذا انقرض الأنميون وزلوا — زالت معهم هذه النسبية الجوهرية والحية في تصورنا الحالي ، وعاد الوجود إلى خمود وجمود كما كان قبلنا !! وقد عرفنا ذلك معرفة

جزئية فيما نسميه الحفريات والجيولوجيا وطبقاته والأرض
والأجناس المنقرضة وغير ذلك من المعارف !!

وهذا الإنسان : الكائن المستحدث النسبى — يكاد يكون
مجهولاً جهلاً كلياً بالنسبة إلى ذاته ، فهو لا يعرف عنها
شيئاً حقيقياً سواء فى داخله أو فى خارجه ، ويغضى فى عينه
الشعور بهذا الجهل المطلق بما لا عدد له من الألفاظ
والعبارات التى تيسرها له لغته فى جماعته .. فالألميون
منذ وُجدوا دائماً مضطربون وهم لا يشعرون ، وشوقهم
إلى ما يسمونه الصنق والحق والواقع — أمل ورجاء واجتهاد
ومحاولة !

قبلايين وبلابين الأوهام التى عاشوا ويعيشون فيها
منذ أن وجدوا — لم يعرفوا حقيقة أمرها ولن يعرفوه ولا يهمهم
أن يعرفوه ، وسيظلون يتداولونها — أو ما لم يأكله النسيان
منها ! — بنفس الثقة أو الأكادة !

وقد تقبل باقى الأحياء ظواهر الحياة بالتسليم والإذعان التامين ، ولكن تميز الأنميون على هذه الأحياء الأخرى بتقطنه أحياناً إلى ما يسمونه الوهم أو ما يسمونه الحق أو ما يسمونه الكذب فى تلك الظواهر ، ثم بتقطنه أحياناً إلى عدم الثقة والتشكك فى الانقياد إلى الاعتقاد وحده أو إلى الفكر وحده ، وإلى ضرورة إشراك شهادة الحواس فيما يقره ويقرره الفكر إشراكا دائما مستمراً لا ينقطع ، وقد استوجب هذا دوام مراقبة الفكر ومراجعة وإعادة النظر فى مسلماته بحكم هذا الإشتراك أو الاشتراك .. وهذا هو أساس نجاح الحضارة الحديثة فيما نجحت فيه ، إذ جعلت اعتماد الفطنة واليقظة على الالتحام الدائم المطرد بين ظواهر الواقع المحسوس وبين الفكر . وهو اعتماد تمسك ويتمسك به الآن خاصة الخاصة فقط وعلى درجات متفاوتة ، وهؤلاء يسمون أنفسهم بالباحثين أو المشتغلين بالأبحاث فى المختبرات والمعامل والمراصد ومواقع الكشف والأعماق والتقيب ومراكب الفضاء .. وبين هؤلاء وبين جمهور البشر فجوة

هائلة يتجنب عبورها كل فريق ليمتزج بالآخر .. ومن الغريب أن أصحاب تلك التخصصات — فيما عدا ما هم فيه متخصصون — يعودون تلقائياً في الغالب إلى صفوف الجمهور ليتحدثوا حديثه ويشاركوه اندفاعاته وقل منهم من ينتقد تحركات الجمهور ويتصدى لمقاومة أهوائه .. وربما لهذا ونحوه لم يتم تحقيق الأمل الذى رجى قلة المفكرين أن يؤدى إليه التقدم المستمر فى العلوم والمعارف والاكتشافات والابتكارات مع اطراد حدوث تلك وتزايد الممارسين له والمنتمين إليه !

ربما احتاج البشر إلى شيء جديد أقوى جاذبية وأشد تسرباً من ذلك الزحف الهائل المكتسح للمعارف الوضعية ومنتجاتها الذى يكاد يشمل معالم حياتنا الخارجية لا يفرق بين جاهل وعالم وفقير وغنى .

يبدو أن مشكلتنا الأساسية كامنة فى أعماقنا ، هذه الأصاق التى تباعد الآن أشد البعد عن العلاج الحقيقى وعن المعالجين الموفقين .. لأنها فى أشد الاحتياج إلى التغيير المبكر الذى بات أساسياً جنزياً وضرورياً لكى يجنب البشر

عواقب المخاطر التى ليس لها حدود والتى حملهم إياها — دون أن يشعروا — قبولهم لنواتج الحضارة الوضعية التى قبلوها وامتصوها من غير أن يفكروا فى احتياجها الشديد للتوازن والتعقل والتأنى لتفادى خطورتها .. هذه الخطورة التى ليس لها آخر مع الاندفاع والعجلة والنزق الذى نرى عليه غالبية الأسميين اليوم ، كأنهم قد فقدوا الاحتياج إلى الصبر والرزانة والتؤدة مع ما اكتسبوه من التحضر الخارجى الذى يدعونه ويحتجون به كلما ارتفع لهم صوت !!

وفى الحضارة الحالية سمة عامة تكاد تكون جديدة غير مسبوقة من قبل لم يعرفها البشر — وهى توسيع العالم المتاح لنشاطهم إلى غير حد ومحاولة تقنين دنيا جديدة لا حدود لها بدلاً من الدنيا المحدودة التى اعتادوها .. دنيا جديدة سواء فى مداها أو أبعادها أو إمكانياتها أو فرصها أو معارفها أو معلوماتها أو وسائلها أو أنواتها أو أساليبها أو رواها .. فالكائنات ومكوناتها التى يعيها آدميو اليوم على درجات مختلفة من الوعي ، هى كائنات ومكونات هائلة الأعداد والأنواع

والأغراض والوظائف والمقاصد ووصلت إلى مستويات لم تبلغها من قبل قط أية حضارة سابقة ، وقد تاهت لذلك فى زحمتها المذهلة الأكتدة والعواطف والعقول والأهواء ، وفقدت أو كانت تلك الضوابط المشتركة التى اعتادت أن تجمع الناس على أشياء بعينها فى أزمنة وظروف بعينها كذلك ، وكثرت الأحداث المفاجئة الحمقاء حتى فى البيئات المفروض فيها المبالغة فى الانتظام والهدوء والحرص عليها !!

وهذه السمة العامة غير المسبوقة من قبل فى توسيع العالم المتاح للنشاط البشرى غير المحدود ، لم تشمل بعد إيقاف وعى البشر والثقافتهم الجاد إلى أن لقانون الذي يشمل جميع الأحياء من نبات وحيوان ومنها الأميون بصفة خاصة ، تبدأ به حياة الحى من الصفر نحو الإيجاد ثم منه نحو الموت ، .. يجرى ذلك فى مراحل لا عداد لها تقصر أو تطول ، منها مراحل احتياج وضعف مطلقين قبل الخروج للوجود الخارجى وبعده ، ومنها مراحل التصاق واحتماء وتبعية ومحاكاة وتقليد .. تقصر هى أيضا أو تطول ، ومنها مراحل انفراد مليئة

بالأراء الفردية والصدمات والمفاجآت والمخاوف وغاصة
بالشهوات والأطماع ، ثم مراحل غروب وتدهور وانكماش
تمهيداً للارتحال من الدنيا !!

فملايين الملايين التى تعلو أصواتها وتحركاتها
واندفاعاتها واختلافاتها من الأنمييين الآن - نسيت فى واقع
الأمر ماضيها كله بطريقة أو بأخرى .. نسيت أنها كانت
أطفالاً ثم صغاراً ثم مرهقين ثم شباباً ثم رجالاً ونساء شيوخاً
وشيوخات - إذ شغل الحاضر والمائل والواقع الآن الذى
يعيشه الأسمى كل أفقه وأبعد ماضيه عن وعيه ، كما شغل
توقعه المعاصرة لمستقبل ذاته ومن هم فى حكم ذاته الكثير من
الغموض الملى بالإبهام والاحتمال - فى هذا العالم الذى
يحرص الأسمى على إطالة البقاء فيه ضمن حرصه على بقاء
حياته وحياة من يحب !

وهذا الالتفات أو الحرص على البقاء يبدو غريزياً رغم
خلوه من أى وعى لمعالم هذا البقاء ، فهو التفات - دائماً -
جزئى .. ينقصه التحقيق والتدقيق .. صاحبه راض دائماً

بما رضى به الآخرون من حوله — وما يسمونه بالمعارف المتداولة أو بالمعلومات السائدة أو المشهورة أو المتفق عليها — وجميعها أشياء شديدة العموم والإبهام بل والغموض — فى عين كل من يندقق فيها لمحاولة فهمها والتحقق من صحة مصدرها .

ومن هنا كانت وحدة الأفكار من بين البشر فى جماعاتهم دائماً ظاهرة سطحية محتواها ملء بالتخمين والنقل غير الصحيح والزيف ، وكانت لهذا الضعف المستحكم قابلية للتفكك والتناقض وتوليد الاختلاف والشجار وأحيانا للخصومة والعداء !

* * *

منذ خلق الأكميون وهم يتعاشون وما زالوا يتعاشون فى جماعات تتناقل وتتبادل ملايين الملايين من الثقافات والنثرات والأقاويل والروايات والدعوى والمزاعم القارعة المعنى العديمة الأصل ! ، وكأنما كان ذلك فى تقدير الخالق للعظيم شيئاً لازماً ، ليس عنه غنى لتمامك كل جماعة

وإحساس أفرادها بضرورة بقائهم فى حياة مشتركة يتساندون فيها بعضهم لبعض .. وهذا فى الذهن شئ لا يستغنى عنه شعور الفرد بلزومه ليقوى ويظهر شعوره بحياته ولزوم وقيمة حياته .

هذا الركام الهائل السائد الدائم من الضجيج واللغو الذى يبدو فى عين الإنسان المتأمل المقرن أنه طوفان قشر وعث — يؤدي وظيفة أساسية فى تماسك وبقاء وجود الجماعات البشرية حتى اليوم !

ربما جاء زمان على الناس — لعله قريب — يتحقق لديهم نمو الوعي الكافى ومقدار الفطنة المتوافرة باطراد واستمرار ، فيكشف لغالبية البشر أنهم خدعوا أنفسهم لأحقاب عديدة — باحتياجهم لذلك الركام المزيج من القشر والمعبث كيما تتمامسك جماعتهم ! .. يحدث ذلك إذا تحقق لديهم — أعني لكثرتهم — الفهم والتقدم والتطور ومعه استغناؤهم عن كل ما هو غير صحيح ، ونفضهم أيديهم من ميراث الماضى الطويل المستحيل الفهم والهضم ! .. وهذا هو ما يسعى إليه اليوم

العاملون المخلصون لإنجاح الحضارة الحديثة ومعارفها
الرقيقة الفاهمون لدورها الحقيقي الذى لم تظن إليه بعد
غالبية الأدميين المتعلم منهم وغير المتعلم !!

وبرغم اعتماد واتكال البشر منذ خلقوا على المصادفة
وعلى الاحتمالات التى تملأ حياتهم فى صحوهم ونومهم ، فإن
الأسمى لا يظن إلى دور المصادفة الهائل فى حياته إلا نادراً !
.. فهو يطرحها من حسابه عادة ولا يشعر بها وعيه شعوراً
لاقئاً ، برغم أنها عنصر احتمالي أساسي منتشر فى كل وجوده
وكيانه ، وبرغم أن هذا العنصر يقابله فى تركيبه الخلقى
عناصر وأعصاب وموائل وغدد وأنزيمات ومضادات تقوم
بالمعاونة أو بالمقارنة لتلك المصادفات المنتشرة بلا آخر ،
نهاراً وليلاً دون أن يشعر أو يحس بها الحى ، لأن هذه
التركيبات كلها فطرية تنتصب مباشرة لعملية الخلق والإيجاد
ولا تمر قط مع وعى الأسمى لذاته أو شعوره أو إرادته
أو فكره ، ومع ذلك فقد فهم الإنسان من قديم بعض هذه
المصادفات وحلول ويحاول مواجهتها إيجاباً وسلباً ، وبلغ فى

أيامنا شوطاً بعيداً فى هذا الاتجاه بفضل اتساع علومه ومعارفه المتعلقة بحياة الإنسان والحيوان والنبات وأجهزته ووسائله التى أتاحتها له حضارة العصر ، فتمكن من زيادة طاقات الحى وإنتاجه ومن مقدراته على مقاومة الآفات والأمراض التى تعترى الأحياء ، بيد أنه لا يتيسر فهم تفصيلاته وتركيبه وأمراره ، إلا لخاصة الخاصة من البشر دون عامتهم الذين يقتصر دورهم عملاً على استخدام واستعمال الوسائل والطرق والأدوات والمواد المناسبة الموصوفة المعينة المحددة فى المناسبات والمواقف المعينة المحددة لهم .. لا يتجاوزونها إلا على مسئوليتهم !

لكن خاصة الخاصة يقابلها هى الأخرى مصانفات دون أن تحسب لها حساباً ما — فيتعثر السائر فى سيره ، ويخطئ الواعي فى تفكيره وتدبيره وتشخيصه ، ويفاجأ السليم بأمراض وعلل لا يتوقعها — كذلك يفاجأ الحريص المجرب بخسارة لم يكن يحسب حسابها أو يدرى سببها ، أو بموت لم يكن ينتظره البتة .. وبالعكس قد ينجو من نجا مما لم يتوقع نجاته

منه ، وقد يفوز بربح مما لم يكن ينتظر فيه إلا الخسارة والضياح ، وقد يطول عمره أمداً لم يكن يرجوه أو يدور بخاطره !

والبشر يسلمون بالمستهم أن الكل عرضة لذلك كله ، وأنه لم يخلق من لم يخطئ الحكم والتقدير والحساب ، ولكنهم فى سلوكهم وتصرفاتهم وأعمالهم وقراراتهم وأخذهم وعطائهم — يعملون عادة عمل الواثق الذي لا يعرف المصادفة !

كذلك لا ينقطع حدوث المصادفات وتواليها فى طريق تنفيذ عقائد البشر ومحاولات تحقيق مصالحهم — لأن هذه العقائد أو المصالح تنفع الناس باستمرار إلى اتخاذ ألوان من المقاصد والمثبئات والسلوك البشرى العمدى الإيجابى والسلبى ، إذ للمصادفات أحداث يحدثها فيما يبدو — تلاقي وتقاطع الأسباب والظروف الطبيعية الدائمة الحركة ، وذلك فى الأغلب الأعم بلا دخل لمثبئة ونشاط الآمسي اللهم إلا فى النهاية التى تتحقق فيها المصادفة أو تتخلف !

هذا ويلاحظ أن التعارض بين عقائد البشر وبين مصالحهم الفعلية - حدث لا ينقطع ظهوره أيضاً .. إذ العقائد أحكام عامة مفروض التزام كافة معتققيها باحترامها - على حين أن المصالح مقاصد وأغراض لفرد أو أفراد أو جماعة صغيرة أو كبيرة في وقت بعينه لأنها مرتبطة بأحداث يفترض وقوعها في زمانها ومكانها وظروفها ومناسباتها ، ومع مرور الزمان قد يتداخل ويمتزج بعض هذه المصالح في المعتقدات الدينية أو السياسية أو الاجتماعية ، ويصير من المعتقدات بدهاء مننة أو كهنة تلك المعتقدات ، سواء كانوا من رجال الكهانة أو رجال الحكم أو الساسة والمشتغلين بالسياسة .. وجنوى ذلك دائماً محدودة ، لأن المصالح من جهة حقيقتها ووقائعها متغيرة حتماً مع تغير الأوقات واختلاف الظروف والأحوال ، بحيث يمكن أن يأتى عليها وقت يصبح التمسك بها افتعالا وتكلفاً ومجرد تعصب وعناد خال من أى معنى وجنوى ! .. يشاهد مثل ذلك فى إصرار رجال الدين على التزام القديم من الطقوس والأزياء والمراسم والمواسم

والطراز والشكل ، كما نرى مثل ذلك أيضا فى تمسك الساسة
والحكام والزعماء بمبادئ وشعارات كانت فى وقت سابق
رنانة مسموعة مقبولة من الجماهير ثم فقدت رنينها وجاذبيتها
بتحول الناس عنها لعدم نجاحها فى تنفيذ وعودها وآمالها.

ثم إن اللظنون التى لاتفارق خواطر البشر - تغذى
باستمرار وجود المصانفة لأنها جميعا احتمالات بالنسبة
للأسمى لايمكنه أن يقطع فى شأنها بشيء !

وحياة الأحياء ومن بينها حياة البشر - نظام كونى
إلهى جليل جدا ، يجمع بين شدة البساطة وشدة التعقيد
والتركيب .. أما شدة البساطة فلكى يستفيد منها الحى فى
تكبير معاشه خلال عمره قصر أو طال حسب دوره وترتيبه
فى الخليقة ، أما شدة تعقيد وتركيبه فذلك لاستمرار الحياة
بأسرها وعلى اختلاف صورها وأجناسها وبيئاتها من حيث
مسارها العام فى الاتجاه المراد لها الذى تتضمن فيه نواميسها
ونواميس الكون لتحقيق الميثقة المقصودة من ذلك المراد ..

هذا كله لا يراه الحى كائننا ما يكون ، إلا من ثقب ضئيل شديد الضلالة ومن مسافة ومدى بالغى للقصر والسطحية !!
ومهما بدا للبشر الآن فى تطورهم وتقدمهم واتساع معارفهم وخبرتهم من كثرة ما يعرفون ويعملون - لا يخرج عن كونه فى الأغلب الأعم فروضا شهدت لها بعض الظواهر التى يطالعها الإنسان فى الطبيعة أو نظرات واحتمالات بشرية ربطوا بواسطتها تلك الفروض بعضها ببعض وبنوا على ذلك مفاهيم بشرية وضعية صارت أسساً لمعلوماتهم وخبراتهم ..
هذه الأسس والمعلومات التى أقيمت عليها فى عصرنا مختلف المعامل والمختبرات والتخصصات والمعاهد والمصانع والمحطات والموانئ والمنشآت والأجهزة والآلات ووسائل النقل والانتقال والاتصال والمواد والنواتج والمصنوعات والمركبات .. وتلك جميعا كيانات محدثة بشرية معرضة دائما للقدم والزوال مرتبطة ارتباطاً لا ينفصم بإرادات البشر واهتماماتهم خاصة وليس لها دخل بالنظام الكونى للحياة بعامة . علما بأن بنية المعرفة التى يتناولها البشر المتعلقة

بالحياة وبالكون بنية بشرية صرف .. فيها يرسم دائما —
مهما بلغت من التقدم والتطور — حركة وعى الإنسان
واحتمالات رؤى وتصورات وافتراضات عقله واتجاهاته
وميواله وحاجاته كإنسان .. إذ هو لا يفكر ولا يستهدف
أولا وأخيرا إلا ما يتعلق بالبشر والبشرية . وهذه نقطة قوة
وضعف فيه لم تقارقه منذ وجد جعلت نموه كجنس ونوع
محدودا دائما بحدود بشريته ولغاته ورموزه واصطلاحاته ،
وحالت وتحول وستحول بينه وبين فهم المطلق فهما نسبيا فقط
فى حدوده البشرية لا يمكن أن يتجاوزها — وهو مالون وجوده
وتاريخه ومستقبله بالنسبية والعرضية كما لون وجوده
بالعجائب والمخاطر والآسى . والله تعالى أعلم .



كل ما سبق مما قلناه أو أحصيناه ، إنما يدخل ويخرج
من بين آلية التذكر والنسيان فى ذاكرة ووعى الأسمى —
لأن الوعى لا يعى الأشياء والمعانى جملة أو جملاً ..
ولا يستعمل العقل أو العاطفة أو هما معاً — إلا شيئا فشيئا

على خطوات متتابعة تتابع كمسيل للسوائل ، ضيقة حيناً
وواسعة حيناً آخر بحسب قسمة الماضى والحاضر والمستقبل ،
وعلى مقتضى ظروف وأحوال المكان وما يستدعيه من
حضور الحاضر وتذكر الماضى وتصور أو توقع المستقبل ..
وهذه نمبية بشرية عامة لا يتوقف عملها وتأثيرها طوال الحياة
منذ وجدت وإلى حيث يشاء الله ..

وقلما يلتفت أحد إلى أهمية هذه النسبية وفاعليتها
وآثارها فى تصرفاتنا ومساعدتنا ومصلحتنا جميعاً - برغم
كثرة وتكرار تداول الحديث عن النسيان والتذكر على ألسنة
البشر .

إذ الإنسان منذ أن يعى يفرق دون أن يشعر
فى الالتفات إلى ذاته أولاً ، ولا يرى بداية ونهاية سواها ،
وهو دون أن يقلق أو يشك أو يتردد أو يفتن - يرد كل
ما يحدث داخله إلى ذاته كأنها عنده شجرة المبتدى والمنتهى ،
إذ فيها يجتمع بالنسبة له كل ما وعى أنه حدث له أو فيه
مما هو فى الوجود الفعلى أو التصور ظاهراً أو باطناً من

كائنات وأحداث وآمال ومخاوف يشعر بها أو يتصورها
أو يتعامل معها عقله أو عواطفه ! -

ويبدو أنه ليس فى استطاعة أحد إيقاف نشاط هذه
النسبية العامة بصفة تامة ، وقد يتمكن الأسمى من مراجعتها
أحيانا ومن تعديل مسارها ولكن على نحو محدود، لأنه يحتاج
إلى قوة إرادة وعزيمة ومران طويل ، ولا يقوى على ذلك
إلا القلة القليلة فى أى عصر ! - ولم ينجح التعليم العام المساند
ولا التعليم الخاص الواسع الانتشار الآن فى الحد من نبوع هذه
النسبية الفاشية فى النوع الإنسانى منذ وجد حتى الآن !

هذا ويوجد فارق جسيم بين التحمل والاستسلام السلبى
للواقع وإن كان مريرا يائسا وقبول الحياة على أى وضع
ومستوى ، وبين الصبر اللواعى المتكبر الملىء بالإرادة
والتصميم والعزيمة !

فالتحمل السلبى إذعان فقط لنصيب الحى من حياته ،
أبكم إلا من الأئين والشكاية وتبادلها مع الآخرين
المماثلين ! - .. ويبدو أن هذا هو حال معظم الخلق الذين

يعانون الركود العقلى والنفسى أو القنوط وعدم المبالاة الخالى واليائس من كل أمل فعال جاد فى نفس الأسمى الذى لم يعد يبالى بتحسين أحواله أو مقاومة السوء القاتم ! .. وفى هذا الجو المقبض المتجمد اليائس لا يكاد يوجد تأثير ملحوظ لقواعد الأخلاق أو للعقائد الدينية والاجتماعية حتى فى المجتمعات الحديثة الحافلة بالمدارس والمعاهد والمعابد والمعابد !

أما للصبر الواعى المتبصر الملىء بالإرادة والعزيمة ، فهو دائماً من نصيب القلة ، ومعظمه فطرى وشبيه بالفطرى نتيجة الاستعداد الداخلى ، وهوائما يتجه فى اتجاهين قلما يلتقيان : اتجاه إلى الآخرة وعزم وعزوف عن حياة الأحياء العابدين ودنياهم بأخلاقها وأغلاطها ومشاكلها التى لا تنتهى وانصراف يكاد يكون تاماً إلى الآخرة وصفاتها المناسب تماماً للإيمان وخدمة الإيمان .. وهو ما وجد ويوجد لدى الرهبان والمتصوفة حين يتحقق لديهم الإخلاص فى مسعاهم غير المألوف .. أما الاتجاه الآخر فيكون إلى دنيا يعقد فيها الإنسان عزمه بعناد وثبات وإصرار على النجاح — وعلى تغيير

واقعه غير المرح أو المزعج إلى واقع آخر يكون في مصلحته ومصلحة من هم في حكم نفسه — وهذا حال غالبية الصابرين في كل زمان ومكان .. فهم منكبون على العمل والسعى لتحسين حالهم وتجويده وتطويره ، وهم في ذلك لا يبالون بالمشاق والمتاعب والكد والكدح — في سبيل أن يتحقق لهم ما يصبون إليه . هذا النوع من الصبر مجدول بالمثابرة والدأب والتدبير والإقدام مع الحساب والفتنة واليقظة وترقب الفرص وانتهازها ، وهو نوع لا ينام ولا يكف عن تنمية ما حصل عليه وتوسيع أهدافه وأطماعه .. يبنى جديدها على قديمها مباشرة أو بطريق غير مباشر ، فيصبح الإصرار والمثابرة ركيزة حياته بأسرها .. لا يهتم إلا بها لأنه لا يمكنه أن يعيش إلا فيها ، فتتوحد وتغرب بين يديه وعينيه مباحج الحياة الإنسانية المألوفة لعموم الناس ويكاد لا يشعر بها ، لأن الاعتدال وضبط النفس نادران في الأمنيين دائما وفي كل عصر .. ولأن لم تتمكن الحضارة الحديثة الحالية من أي

وسيلة مجدية فى انتشارها فضلاً عن تعميمها . وما زالت
الأطماع والانحرافات والخدع على أشدها فى كل مكان !!
ونادراً جداً ما يكون التحمل المستسلم الذى أشرنا إليه
مصحوباً بهدوء نفسى وسكينة قلب وطبع ، لأن غالبية أهله
يسود بينهم السخط وضيق الصدر والفضب والمرارة فى
الشدة — والمبالغة فى المرح والتبذير والصخب فى أوقات
الإقبال والرواج !

ومن ينظر من بُعد يسمح برؤية كافية إلى حياة البشر
فى نهارهم وليلهم على هذه الأرض ، سوف يهولوه ويفزعوه
اللغظ والضجة والاضطراب والازدحام وألوان الحركة التى
تبدو حمقاء فى هذا الجلس بما يدعو أى عاقل غير مقيد بسكنى
هذه الأرض — إلى الفرار ليتجنب الهوس .. لكننا نحن البشر
لا نشعر — بحكم قانون العادة ! — بما نحن فيه وعليه
مما عشناه وألفناه آلاف آلاف السنين — إذ كلنا قادر على أن
يتجاهل تجاهلاً تاماً فى حركاته ومقاصده ويقظته ومنامه وجود
ذلك المحيط الصاخب وما يجمعه ذلك المحيط الزاخر الهادر !!

الآسمى لا يرى فى معظم الأحيان إلا ذاته وأعراضها
ومصالحها وأهواءها ، وهنا يبدو السر فى صلفه إذا منح
المقدرة على معرفة قليلة أو كثيرة لما هو خارجه وحوله ،
فلا يدرك أنه مقيد بقيود يستحيل أن يفلت من جميعها وهى
مفروسة فى فطرته تتحكم فى تصرفاته واستعداداته ، وأعجب
ما فى تلك القيود مرونتها الهائلة وقابليتها الشديدة للتمدد
والانقباض .. وعلى حسب هذا التمدد والانقباض يتحرك الآسمى
نحو المزيد من الترقى والتقدم والتطور ، أو يتردد راجعاً إلى
درجات ودرجات من التخلف والتأخر ، وهذا المعنى يتردد
بطرق شتى فيما بين أيدينا من تواريخ وآثار وحفريات !

وربما تميزت الحضارة الحالية عما سبقها بتمردتها على
القضاء والقدر وإصرارها بعناد على مقاومة وعلاج النكبات
والكوارث الطبيعية وغير الطبيعية حيثما تقبع ، وبعنايتها
بالالتماس إلى جنب جمهور البشر إلى خارج إطار معارفهم
وعقائدهم وعوائدهم واجتذابهم إلى حيث يوجد الكون العظيم
والطاقات الكونية الهائلة التى يعمل العلم الوضعى بنجاح

فى المزىء من انتقاع الإنسان بها .. وربما كان فى انفراج
وانفتاح ذلك الطريق غير المسبوق اتساع ضخم فى آفاق
الحياة البشرية بعمامة ، وبسط لهذه الآفاق إلى ما انطوت عليه
أرضنا من إمكانيات غطى عليها جهلنا الحاضر بها وبما
فى هذا الكون العظيم من ثمرات وطاقات بلا حدود لم تمتد
عيوننا وسواعنا بعد إلى إقتطافها واستخدامها فى صالحنا !
إن فى نفس كل منا عند اليأس والقنوط هروباً ولو اذاً
إلى فكرتنا عن ذلك الماضى الذى لم نعرف حقيقة قط ، وهو
هروب أو لواء عاطفى فطرى من شأنه أن يشل العقول
والعزائم وهو يستحيل أن يغير واقع العالم الخارجى ، وإنما
ينشر سلبيةات البشر أمامهم وحواليهم ، إذ هو تغيير فى كياننا
الداخلى حيث لم يعد يرتبط هذا الكيان بواقع فعلى ارتضينا
التعامل الجاد المخلص معه ، ولذا تشابهت فى أعيننا أيام
الخمول والركود والرخص ، ومرت وتمر هذه الأيام دون أن
نشعر شعوراً حقيقياً بمرورها ولا بوجودها ، لأن أوقات اليأس
كلها محض ضياع عاطفى وفكرى ، واضطراب فى السلوك

والتصرفات ، وذلك كله سلب وعكس ونقيض لحياة الإنسان
الممنوحة المتاحة له منذ ميلاده بكرم فائض يشعر به من يتأمل
فى حياة أى آدمى من ثراء ذاتى . وربما كان يأس الإنسان
أقل عمقا وضراوة من يأس الذكور ، كأنما يسير الأمل واليأس
فيهن فى دوائر أو حلقات يقود منها الأمل إلى اليأس واليأس
إلى الأمل — بينما يسير الأمل واليأس لدى الذكور فى خطوط
ذات نهايات قد تتقابل وقد لا تتقابل فيموت الرجل بياسه !

وفى خلال الحديث عن اليأس والأمل ، تبرز حتما
فكرة القناعة والرضا وصور هذه الفكرة لدى البشر! لأن
أغلب الناس كانوا ومازالوا يتحدثون عنها دون أن يعرفوا
حقيقتها .. إذ لا تسمح دوافعهم واستعداداتهم الغريزية بإهمال
السعى الجاد وأحيانا المهلك للحصول على مطالب حياتهم بكل
ما فى استطاعتهم مما أدى إلى اعتياد المناقصة والصراع
والطمع وأحيانا الجشع والتكدير والنهب والسلب والقتل !!

وغالب ما نسمعه عن القناعة والرضا بين الأميين
لا يخرج عن كونه كلاماً فى إطار الكثرة والاعتدال -
يغضى فى كثير من الأحيان فشل الفاشل فى تغيير حقيقة حاله
مع اشتغال قلبه بالمطامع والشهوات ، وهذه إن كانت قناعة
فهى فى الحقيقة انتظار بليد لتحقيق أحلام وأمانى دون بذل أى
سعى جاد لتنفيذها ، انتظاراً لأن يقضى لها من الحظ
ما يحقها !

ومن صور القناعة المألوفة يأمن التقصير فى السن
والشعور معه بالشيخوخة .. إذ تتوقف آمال الأمل وأطماعه
توقفاً تاماً لقربه من الآخرة .. فهذه القناعة ليست أكثر من
اكتفائه بما حصل عليه من دنياه ويحرص على حفظه مخافة
تعرضه للحاجة والعوز ، وربما لاحظ عليه من حوله نوعاً من
التقدير فيما جمعه إبان إقباله وتعلقه بدنياه !

وربما تكون القناعة أو الرضا فطرة فطر عليها
صاحبها ، وهو أمر نادر فى البشر .. إذ لا يسمح له طبعه قط
بعدم الالتفات إلى استدامة داخله وإلى احتياج هذا الداخل فى

كل لحظة إلى السلام والمودة والهدوء ، لأن هذا يشكل عنده
رأس ماله في حياته كلها .. سواء بينه وبين نفسه أو بينه وبين
الأقربين !

الإنسان وأطوار الحياة ، والحضارات !

أساساً نحن أغراب بعضنا عن بعض لوجود ذات خاصة بكل منا لا تفارقه إلى أن يموت .. ولكن بيننا كأحياء قرابات تستند إلى صلات الرحم والزواج أو الجوار أو المودة الشخصية والأسرية .. وهذه علاقات اجتماعية إيجابية تتفاوت ضعفاً وقوة مع نوع العلاقة ومع تفاوت الأشخاص والجماعات والأمكنة والأزمنة ليس لها مقياس مقرر إلا الاعتياد الذى يراعيه الأسمى فى بيئته طبقاً لأعرافها وعقائدها ، وهذه العلاقات قد تشتد فتجاوز درجة التأخى أو الأبوة أو البنوة فى الضراء والمراء ، وقد تهين وتتراخى حتى يقف مثلاً أرباب القرابات القريبة كالأبوة والبنوة والأخوة مواقف من بعضهم البعض تخرج عن حدود اللياقات والشكليات وربما تتجاوز ذلك إلى تبادل للكراهات والعداوات !!

هذه العلاقات الاجتماعية الأولية هامة جداً لأنها هي التي تجمع وتلحم وتقيم حياة الجماعات البشرية قديمها وجديدتها ، إذ ليس فى الاستطاعة تصور جماعة بغير صلات الأرحام والزيجات وعلاقات الجوار والمودات .. ولا يكفى العقل وحده وخدمته والتعاون فى ترقيته وتفوقه لإيجاد مثل تلك العلاقات الأولية الأزلية التى تتركز فى الأغلب الأعم على العواطف والحنو والمؤانسة والتساند والتعاون مع الكثير أو القليل من العقل والتبصر .

فأما لنا لا تتخيل قط أن تتخلص من العواطف نهائياً ، ولا تتوقع أن يتحول كل الأحياء من الآمنين الموجودين على هذه المعمورة إلى جماعة واحدة فقط .. فهذا ربما تجاوز قدرات واستعدادات الأسمى المبنية فيما يبدو على أنه يحيا حياته فى جماعات لها حدود مرنة تتناسب ضيقاً وسعةً مع تغيرات الأحوال والظروف والأوقات دون أن ينعدم تعددها .. ويبدو أن هذا ملحوظ فى امتداد وانتشار الحضارات وتقلصها ونشاط الديانات وتجمدها وفى تغيرات العقائد والمذاهب

والأعراف والعادات والفنون والمعارف والآداب والأنواق ،
وهو ملحوظ أيضا فى دوام الأخذ والعطاء والألفة والنفور
بين تلك المصادر دون فقد ذاتية كل منها .. لأنها قبلية فى
حدود - نعرف بعضها - لتبادل التأثيرات حسنة أو غير
حسنة تتراوح بأصحابها بين القرب والصدافة أو التباعد
والعداء ١. لأن البيئة الجغرافية والاجتماعية كما تشكل مسكن
أهلها وألوانها وأحجامها وتميزهم بها عن أهالى
البيئات الأخرى ، فإنها لا تلغى قط خاصية بيئتها ولا تمحو
بمرور الزمن تميزها سواء تقدم أو تأخر مواطنوها ،
ومسواء تطوروا أو لم يتطوروا !

ثم إن ترقى البشر يستهدف أولاً وأخيراً - كما يبدو
الآن - فصل للعقل والفهم والتفاهم والتواد والتكافل والتعاون
وما يقتضيه ذلك من الروابط الإيجابية المفروض أن يشترك
فيها ويتنافس عليها جميع الأمميين .. هذا والاتفات عن
الاختلافات فى الأجناس والألوان والأحكام والأجواء وما بنى
عليها منذ القدم من تضارب وتصادم وتعدا فى الأفكار

والمصدقات والعقائد والأعراف والعادات قد بدأ يهن مع الزمن ، إذ لم يعد لهذه الاختلافات دور هام مؤثر على ذلك الاشتراك والتنافس فى نظر الأكميين الفاهمين لمعانى الحضارة الحديثة الحالية .

فقد لعبت تلك الفروق دورها فى تكوين وتنمية وتزاحم وتصادم وتعاقب الجماعات دهوراً طويلة إلى أن اتخذت الحضارة الحالية سمة العالمية وأخذت تسهم فيها بنوع من الجد غير قليل . فلم يعد يتفق أو يليق بهذه السمة العالمية بقاء تلك الضغائن والعداوات المؤسسة فى الأصل على مرد الإحساس بالاختلافات البدائية المذكورة .

وقد سلمنا الآن دون أى اعتراض بوجود الأمريكى أو البريطانى أو الفرنسى الأسود أو ذى المحنة الصينية أو اليابانية أو اليهودية أو المغربية المستمتع بكل مزايا مواطنين من البيض والملتزم أيضاً بكل واجباته طبقاً لما يوكل إلى كل مواطن من هؤلاء بغض النظر عن لونه أو جنسه الأصلى !

ولكن لم يوجد مثل هذا بعد على نحو عام بنفس الدرجة من القبول — فى جماعات العالم الثالث ، إذ لم تمتص أغلبية الناس فيها أسس الحضارة الحالية حتى الآن .. وهى تحاول هذا الامتصاص على نحو ما يختلف قوة وضعفاً من جماعة إلى جماعة .. هذا الامتصاص الذى يمكن أن يخلصها من أتعاب وأغلال ماضيها التى ما زالت تكبلها الآن وإلى مستقبل يقصر أو يطول !

فالمشكلة الكبرى لدى الأسمى منذ وجد حتى الآن — هى خضوعه التام للاعتياد فى كل منحنى من مناحى حياته أى فى كل ما يشعر به أو يتصور أنه يعرفه أو يفهمه أو يعلمه أو يقبله أو يتجنبه أو يرفضه .. فالاعتياد إذ يعطينا فرصة لالتقاط الأنفاس والراحة والطمأنينة — يسلب منا دون أن نلفظ قدرأ متزايداً من الفهم أو الإدراك الذى ساقنا إلى مباحث اعتدنا عليه بحيث ننتهى إلى التسليم ثم الاعتياد على التسليم بأن واقع الأمر هو ذات المسلك الواقعى الظاهر المحسوس الذى اعتدنا

إتيانه .. إذ قد نسينا مع مرور الوقت وكثرة التكرار المسبب
الذى كنا قد اخترنا من أجله ذلك المسلك !

هذا حاصل لمن يتأمله ، يراه فى جميع مساعينا
وتصرفاتنا وأحكامنا الخاصة والعامة ، ويجده فى كل عمل
أو حرفة أو مهنة أو نشاط اعتناؤه ، كما يجده فى العلاقات
الزوجية والإنجاب والقربات والجوار والصدقة والاهتناء
والانخار ، ويشاهده فى الرياضات والتبقيات ، وفى مظاهر
الثراء وأمارات الفقر وفى صور المكسب والخسارة .. بل فى
تفضيل البلدة والمسكن ومكان العمل والطريق المألوف ووسائل
الراحة والترفيه والرياضة ، وفى المتجر والمصنع والمزرعة
والمعمل والمكتب والمعهد والجامعة والمدرسة والمقهى
والنادى والملعب ، كما يجده أيضاً فى شئون السياسة والإدارة
والتنفيذ والأمن وفى الاجتماعيات .. ثم هو على أشده فى أمور
الديانات والممل والمذاهب والطوائف والفرق .

فالاعتیاد متسلط على البشر جميعاً فى كل زمان ومكان .. فى كل ما یأتونه وكل ما یرفضونه .. فى الیقظة والمنم .. وفى الحركة والسكون .. وهو یتنقل ویتنقل آلیاً من الماضین إلى الحالیین ومن بعض هؤلاء إلى البعض الآخر بطرق التخابط والتفاهم المختلفة خلال ما لا سبیل إلى حصره من المناسبات التى لا تنقطع بین الأحياء ، سواء كانت بشأن حاضرهم أو مستقبلهم أو ماضیهم أو ماضی من سبقوهم ! وربما كان سلطان ذلك الاعتیاد نوعاً من الإبطاء والإرجاء ، مقصوداً لقتضاء ناموس الكون — وذلك فى انتظار الوقت الملائم لانتشار رشد البشر والتمسك به فى المستقبل ، وترقب تخلص البشر بذلك من الاحتیاج إلى السلوكیات الآلیة الشائعة إلى الآن بین الأنمییین — بإحلال الفطنة الیقظة محل ذلك الاعتیاد بآلیاته التى تشوه حالياً — تلك الیقظة وتضلّلها .. ثم یبدو أن تلك الآلیات المبنية على تلك الاعتیاد بأشكاله وألوانه هى التى أضعفت وما زالت تضعف دور العقل فى قیادة حياة الأنمى ، لأن هذه الآلیات

ما زالت إلى اليوم تصور لنا أن العقل نفسه سعى من المصاعى البشرية الخاضعة للاعتياد وآلياته وأنه قابل لتثبيته فى حدود صيغ معينة يرتبط بها أهل كل مصر بحسب ظروفه ومألوفه !
بينما العقل ليس مسعى من مصاعى البشر ، وإقدام البشر على إخضاعه لأهوائهم هو فى الواقع خداع منهم لأنفسهم فى توظيف العقل .. لأنه هو وحده الذى يمكن أن يعرف نعم الخالق علينا ويستوعبها ويفهمها وينزلها منازلها من شكر الله عز وجل على ما أنعم أو الشكاية والضراعة إليه أن يخفف ما يؤلم أو يوجع ! .. العقل هو وحده الذى يخاطب عنا خالقنا ويبدى ويمثل لديه نوايانا ومقاصدنا على الحقيقة التى عقلها وليس على الوهم الذى نوهم به أنفسنا حسب ما تمليه علينا أهواننا .. لذلك كان العقل هو وحده الذى حمل ويحمل لواء ترقينا وتقدمنا وانتقالنا فى هذه الدنيا من طور إلى طور أفضل ، كما أنه هو الذى يحمل لواء الهزيمة والنكسة حينما نستكين وتتغلب علينا شهواتنا !!

استعباد الجماعات الأنمية واستخدامها للعقول فى الامتثال للأهواء والشهوات والأحقاد والعصبية والعداوات — قد استلزم بين وقت وآخر — رسالات كبار الأنبياء وفتوحات أهل المعرفة والعلم ممن سبقوا أزمنتهم ، مثلما استلزم تعاليم الحكماء الماضين .. كان هذا من وقت لآخر بمثابة البلسم لتلطيف حدة هذا الاستعباد المزمن القديم ، وقد أتاح ذلك الفرص الملائمة لنمو الجماعات وترقى الشعوب وإنشاء الحضارات البشرية ، وبنضوب المدد من أولئك الأفاضل وخفوت أصواتهم واعتياد سواد الناس على عدم المبالاة بما فعلوه وقالوه — هبط نشاط الحضارات بعد أن عاد الناس إلى ما يشبه ما كانوا عليه من قبل — يتراجع التقدم وشيوع عدم المثابرة على تنميته وقلّة المخلصين القادرين على مواصلة والتحمس له !!

• • •

النمط العشوائي فى التأخر ثم التقدم ثم التأخر الذى يلحظه المتأمل فى تاريخ البشرية — هذا النمط قد تكرر مرات ومرات ، وعلته فيما نحسب — عزلة المتحمسين للعقل العارفين لقيمه عن أكثرية الخلق فى كل بقعة حتى اليوم ، وتصور الكثرة الأكثرية أن الدين والسياسة والسلطة والنفوذ والسعادة قد تستخدم العقل ولكن لا تخدمه !! .. مع أنه لا يمكن أن يوجد دين حقيقى إلا مع العقل ولا سياسة صحيحة أو سلطة راشدة أو نفوذ متين أو سعادة فعلية إلا مع العقل أيضاً . إذ لا يمكن للإنمى أن يخطو خطوة جادة فى أية مرحلة من مراحل حياة رشده ولا يتعرض معها للندامة أو الملامة عليها ، إلا بالاهتداء والاحترام للعقل ! بل إن طريقنا إلى الله المفعم بالهداية القلبية لا يتهىأ به اتصالنا بخالقنا — جل وعلا — إلا عن طريق العقل ..

ونحن نقصد بالمائل الأنمى اليقظ الذى يعايش عقله من لحظة أن يصحو إلى أن ينام مقدماً حكم عقله دائماً على أحكام هواه وشهوته ، ولا نقصد من يستعمل عقله فى خدمة عواطفه

أو مصالحه وحدها ضارباً صفحاً عن المصالح المشروعة
لغيره من الخلق .. ولا نقصد به من يستعمل عقله فى مناسبات
وينساه تماماً فى أخرى ! .. كما لا نقصد بتاتاً من يستعمل
عقله وينسى نعمته وسلامته وحسن قصده والتزامه بالإتصاف !
لأن العقل هو الباب الذى جاءت منه كل المزايا العالية
التي تميز بها البشر على باقى الأحياء من فهم وتصور ونطق
وفطنة ونكاء ومحبة ورحمة وعدل وذاكرة وحافضة ورغبة
فى المعرفة والجمال والكمال !

ويبدو أن عقلنا على الأقل فى نظرنا الآن — يتخطى
الأزمنة والأمكنة والأشياء والأحياء والأحداث ولا يتقيد بشعور
ما أو بفكرة أو عادة أو عقيدة .. لأنه لا ينقطع عن محاولة
الفهم والمزيد منه إلا إذا رضى للتوقف والتعطل وانصرف إلى
خدمة الأهواء والشهوات ! .. ومن هنا يبدو أن فى العقل شيئاً
كونياً أبقى من بقاء الأفراد والجماعات قد يماثل بقاء الحياة
نفسها ، ولذا كان من هذه الجهة — وبالنسبة للإنسان فى نظر
الديانات الكبرى — الطريق إلى خالق الكون .. وهو طريق بدأ

ضيقات ثم أخذ يتسع ويتسع إلى ما شاء الله ! .. ثم قد اختلفت
فكرة الأدمى عن عقله باختلاف الأوساط والأزمنة والأمكنة
والظروف ، وباختلافها ضيقاً وسعةً وسطحية وعمقاً فى الإمام
بمعارف وتجارب وقدرات العقل واتصالاته الوثيقة
بأعضاء الجسم وأجزائه لا سيما بالمخ والجهاز العصبى
ومراكز الحس والأفعال والحافظة والحواس والتصور
والتداعى والاستخلاص والقبول والرفض !

ولا شك فى أن عقولنا الآن على الجملة ، أوسع
وأعمق من عقول من سبقونا على كافة المستويات ، ولكننا
ما زلنا فى إطار نفس العلاقة القديمة التى تربط عقولنا
بمصالحنا وأهوائنا .. أعنى النظر إلى العقل كأداة ووسيلة
لخدمة أغراضنا ونواتنا . فلم يصبح للعقل فى نظرنا أغراض
متفوقة خاصة به !

وهذا قد يفسر ، شيوع الملل والملء لدى الكثير
من العقلاء الجادين فى زماننا ، ومحاولة البعض منهم الالتجاء
فى التمرية عن النفس إلى الخمر والمخدرات وإرضاء الشهوة

.. لأن مساعى العقل الخاصة به كلها جادة حتى الآن لدى
معظم أهل العقل .. لا تحفل إلا بما هو حقيقى أو راجح فعلاً
لديها ، ولا يدخل فى ذلك العواطف والميول ، بل قد لا تبالى
كثيراً بالغبنون اللهم إلا من العباقرة والأهّاذ !

ولا نظن أن العقل باتساعه يستلزم تلك الانفصال القديم
الذى يرجع إلى استمرار استعباد البشر لعقولهم خدمة لأهوائهم
.. هذا الانفصال الذى يتمثل حتى الآن فى وجود الطبقات
والطوائف والقادة والرؤساء ورؤساء الدول .. فهذه كلها تعيش
العقل إلى اليوم من قمة القوة والسلطة والنفوذ والثروة والجاه
وبصوت العظمة والعزة والمكانة والمقام وفى ظلال
الحضارات والجماعات منذ عرفت ، ومنها الجماعات الحالية
والحضارة الحالية !! .. فنمو العقل البشرى ، ما زال لئلا
ماضياً فى خط سيره من تلك العبقورية برغم كبريائه واعتزازه
الحاليين اللذين لن يغيّرا تركيب جماعاتنا وبناء حضارتنا ،
وهذان قديمان يهددان كل شئ لدينا بالأخطار والكوارث !!

فليس يكفى لبقاء البشرية فيما وصلت إليه ، بل ليس
يكفى لنجاتها من الردة أو الزوال ، أنه لا تزال تتقدم لديها
العلوم الوضعية والصناعات المبنية عليها إلى حد هائل لم
يمسح له مثيل .. هذا كله لا يكفى ما دامت عقول كثرة الناس
لا تتقبل ذلك إلا من أجل استخدام ذلك التقدم فى إشباع الميول
وإرضاء الشهوات والامتجابه للأهواء التى تجنببت العلوم
الوضعية التعرض لها لا بالإنكار والملامة — كما تفعل
الآن — ولكن بالإقحام والاهتمام وتعريف الجمهور بنقاط
القربى بين ميوله وبين عقله وإرشاده إلى مصادر الأموال
ودوافع الميول والشهوات وإمكانات قيادتها والسيطرة عليها
بحيث تتعاون وتتعايش مع ما وصل إليه العقل وما يمكن
أن يزيد على ما وصل إليه بمراحل !

والجهود العقلية التى استخدمت فى تدبير وتنفيذ
الأغراض والمصالح والميول والأهواء والمطامع والأحقاد
والعداوات الخاصة والعامة ، قد غطت ماضى البشرية كلها
وما زالت تغطى حاضرها ، وتغلغل العقل فى خدمة تلك

العواطف والاثفعالات لم يضعفها بل قواها بأستجابته لها
حيث لم تستجب هي له !

ولكن فى مقدور التعقل - لو تكاتف العقلاء وصفت
نواياهم - أن يجتهدوا فى تغيير ذلك الواقع لا إلى إلغاء
العواطف والميول والمصالح الشخصية أو العامة - فذلك
محال المحال . بل إلى استخدامهما الجاد فى التعاون والتعايش
مع الفطنة والحكمة والاعتدال والاعتراف من جانبها بقيمة
ونفع التعقل زميلاً لا تابعا وخادماً .. ومتى يستقيم ذلك ومثله
يستقيم مستقبل البشرية إلى ما شاء الله ولا يتعرض للالتواء
والنكسة اللذين يتعرض لهما الآن !!

وأعجب العجب أن كل ما فى حضارتنا الحالية من
اكتشافات وتطبيقات واختراعات ومعارف لم يسبق لها مثيل
من قبل ، ومن مبالغة فى التعليم والتعلم والعلوم والفنون
والآداب والإعلام والعمران والصيانة والوقاية والصحة
ووسائل الاتصال والمواصلات والضبط والربط والإحصاء
ومعدات الحروب البرية والبحرية والجوية .. كل ذلك من

عناصر ومفرزات حضارتنا الحالية إنما يتبع ويمثل لأحكام وضوابط وجهود أنظمة العقل البشرى التى لا أول لها ولا آخر ، ويسير بلا توقف وبدقة بفضل وجود قدر من الحرص والاتفات إلى العمليات التى تتوالى بالملايين وملايين الملايين فى ذلك المحيط الشامل الهائل ، لكنه يخضع خضوعاً يكاد يكون تاماً فى حاضره كما كان فى ماضيه — لأغراض ومطامع وميول تنقسم لنفسها أجزاء وأشطاراً من ذلك المحيط الشامل الهائل ، وتستعيد الجهود العقلية البالغة التنوع والضخامة فى خدمة حضارتنا عن طريق القرارات التى تصدر من تلك القمة — أو القمم — تحقيقاً لميادنها وغاياتها !

فتلك الجبال والأحمال من أنشطة البشر وخيراتها ومبتكراتها العقلية لا تخدم القائمين بها إلا بالقليل العرضى ، لكن تخدم ابتداءً وانتهاءً مرراً وعلائية أولئك المعنيين الذين فى القمة أو القمم حيثما كانوا ولا تنفذ إلا مشيئاتهم .. هؤلاء كلمتهم مسوعة لدى الحكام فى كل بلد مطلقاً كان كمهم أو غير مطلق !

فالجهاز العقلى الضخم لحضارتنا بعيد عن الفطنة
والتعلل من هذه الزاوية ، وكثيراً ما يخفى بعده هذا مع جمهور
الناس فى أوقات الرخاء والرواج العام ، لكنه يبدو منكراً فى
أزمة الركود والضيق والبطالة مليناً بالألغام والمخاطر ومهدداً
بكوارث لأنه لم يحسب من قبل حسابيه وجاءت يقظة الناس له
مفاجئة فاعتقدوا أنهم غرر بهم وضالقت الأرض عليهم
بما رحبت !

ذلك إلى أن قيادة العامة ليست هينة على العقلاء
الصادقين المنصفين ، فهم يتجاوزونها ويبتعدون عنها لابتعادهم
عن الزعامة والقيادة اللتين تستخدمان الأمر والنهى
وتحرصان على إبراز الرئاسة وتنبه الخلق إلى وجودها .

فأولئك العقلاء يؤثرون الإمتزاج بالناس والاتصال
الوثيق بهم ، وذلك بالإخاء والصبر والمودة والمعونة والإرشاد
الخالى من السلطان والملطة ، يتسرب ودهم وإخلاصهم
إلى القلوب ومنها يتسربان إلى العقول والأفهام المحتاجة
إلى الإرشاد والتوجيه . وشئ كهذا مارسه شيوخ الصوفية

فى العصور التى انتشر فيها نفوذ المتصوفة بيسن الأهلين ..
والفارق بين أولئك الماضين ، وبين عقلاء زماننا الداعين
العارفين ، أن أولئك كانوا معنيين بنشر معتقدات واهتمامات
باطنية فقط تصرف الأكمى عن اليقظة لحياته فى هذا العالم
بينما عقلاء زماننا ينشرون معارف وخبرات وإدراكات
ومفاهيم وأواصر ومودات مشتركة لا غنى عنها فى دنيانا
لأنها معنية بدنيانا وبالعامل الجاد النافع المفيد غالباً فيها
فى المراء والضراء . على السواء !

* * *

يبدو أن كثرة الأكميين لم تنجح إلى اليوم فى إقناع
نفسها بعدم سلامة التطرف والمغالاة فى أى مسعى أو غرض
أو غاية من مساعيها أو أغراضها أو غاياتها ، أيا كان
اتجاه مقصودها : نفعياً أو غير نفعى . لأن النجاح فى فهم
عيوب التطرف والمغالاة لا يمكن أن يتحقق إلا مع الفطنة
وضبط النفس والاتزان فى مرحلة التنفيذ . وهى مرحلة
ما زالت بالنسبة للجميع تَمْتَلِئُ بالتوتر الذى تخفيه بأمواج

الحماس والاندفاع .. فنشر العلم والتعليم والتقدم والتطور غناؤه قليل في تحقيق ذلك النجاح ، لأنه لا يعالج ذلك الاندفاع والحماس ، وهما انفعالان فطريان يحتاج علاجهما إلى تدريب ورياضة وتربية منذ الطفولة لا يلتفت إلى ذلك أكثر الناس . وقد ينحاز الكثيرون لذلك الحماس وذلك الاندفاع ويعتبرونهما من شواهد الفطرة النقية التي لم يلحقها الفساد والإفساد — وهو وهم سائد — لأن فطرة الإنسان جاءت لكي تتقدم جميعاً بكل عناصرها ومقوماتها — وعياً وغرائز وميولاً وعواطف وإستعدادات وملكات كلما تهيأت لها أسباب وظروف تقدمها ، وترتد وتتخلف إن اجتاحتها أسباب وظروف مؤدية لارتدادها وتخلفها !

هذا ولكل جيل في كل عصر أفكاره ومعارفه بالإضاقعة إلى ما انتقل إليه وارتضاه من أفكار ومعارف سابقه ، وهذه وتلك ثباتها وقي حتماً لارتباطه بزمانه ومكانه وبالمسائد فيهما — أما العقائد فمنها ما هو ثابت لا يتغير .. كالإيمان بالخالق — جل وعلا — الذي خلقنا ضمن ما خلق من الأكوان

والمخلوقات ، ومنها ما هو فى حقيقته إضافات بشرية يزود بها
الأميون إيمانهم باستمرار خلال العصور بحسب درجة فهمهم
وعلمهم بإيمانهم ، وهذه قابلة حتماً للتغير شتتاً أو لم نشأ ..
لأن تقدم وعينا وتطور فهمنا ومعارفنا المتعلقة بأنفسنا
وما حولنا ومنها من معالم هذا الوجود — ظاهرة كونية فينا
لا سبيل إلى إسكتها وإنكار وجودها وتجاهل تعارضها
مع ما كان يتصوره بشأنها السابقون بغير حق !

فما يشعر به البشر من ثوابت فى حياتهم الفكرية
والإعتقادية ، يتغير هو الآخر بالضرورة من طريق
الامتصاص بالاعتيادات التى تمارسها الأجيال بلا انقطاع تحت
نفس المصطلحات والمسميات والصفات . وما يشاهده بعضنا
من بعض من صور التعصب والاثياز والعناد أمر سطحي
فيه إعلان واعتزاز وأيس فرعاً لجذور نفينة مستقرة .. إذ هو
مجرد نفثات وهبات قصيرة الأجل لاعتياد معاصر خال من
التأمل والمراجعة والتقصى الذى ينتظر من عقل العقلاء ، وفيه
ضجيج عامى من فريق من الناس وخلق ووعيد ومحاولات

للفت أنظار الجمهور طمعاً في إشراكه فيما هم ودعاتهم فيه ..
إذ يستحيل أن تتطابق عقليات وسلوكيات أهل زماننا بمثلاتها
لدى من سبقونا ، فلا يوجد البشر إلا مختلفين أغياراً دائماً مهما
بدوا للأعين متشابهين نتيجة القرابات والمودات والعيش معاً
في جماعات وأمم !

ثم إن أى آدمي مهما تكن قدراته من النمو غير العادي
— لا يمكنه أن يضع في ذاكرته وأن يتذكر إلا ما تصور هو
أنه حدث : إما لأنه حدث مباشرة تحت حاسة أو أكثر من
حواسه إن رأى بعينه أو سمع بأذنه أو أصيب هو أو أصاب
غيره ، وهو حدث أدرك نبضه فقط بطريقته وفي ظروفه ،
ولا يمكنه أن يدركه على حقيقته كلها بكل ظروفه ، وإما لأنه
حدث مما نقل إليه عن طريق غيره سماعاً أو قراءة أو صورة
شاهدها ، ويستحيل أن ينقل إليه غيره أكثر من بعض معالم
الذي سمعه أو قرأه أو عاينه في الصورة التي شاهدها .

فما مع البشر من الأحداث الماضية أو الحاضرة
هو أمر ظني فقط ينبني عليه كل ما لدى البشر من اختلافات

واتفاقات مما رواه المؤرخون والمحدثون والكاتبون والعارفون
والناقلون من أول الدهر إلى اليوم .

فنحن لا نتناول أحداث الحياة ولا نتفق أو نختلف
على شيء منها — اعتماداً على يقينيات ومؤكدات ، بل فقط
على ظنيات قريبة أو بعيدة عن الصحة بنسب لا يعلمها إلا الله
— عز وجل — ولهذا لم يكن مناص من وجود الاتفاقات
والاختلافات الدائمة بين البشر في كل عصر وكل جماعة ،
ويضمن بقاء هذه الحال من الاتفاقات والاختلافات في حدودها
المعقولة المقبولة — اعتراف أغلبية الأمنيين بنسبية كل من
الاتفاق أو الاختلاف بين الناس جميعاً !

فلماذا لم يوجد في أي جماعة تسليم صريح أو مفروض
بنسبية ما يثور من اختلافات داخلها أو خارجها ، واعتقد فريق
من الفرقاء المختلفين أنه هو الذي على الحق الجازم القاطع
المطلق ، كما اعتقد فريق آخر مضاد بنفس الكيفية والقطعية
والإطلاق — استحالة حينئذ أي التقاء بين هذين الفريقين ،
وافترقا وتعاديا ويات كل ما بينهما ثارات ووقائع وخصومات

ومعارك قد تنتهى بدماء ودمار وتسليم من أحدهما للآخر
بالإذعان المر أو العبودية — اللهم إلا إذا أفاق الطرفان تحت
وطأة احتدام العراك وفداحة الخسائر إلى حكم الواقع ورجعما
إلى الإقرار باستحالة أن يكون بين البشر حقوق مطلقة غير
قابلة للتفاوض والتسوية والاتفاق !!

وكما تكون نسبية كفاءة الذاكرة فى التقيد والحفظ سبباً
من أسباب تأهيل الأسمى للتقدم والتطور المطرد عبر الأزمنة
والظروف ، قد تكون هذه النسبية نفسها من دواعى
الاضطرابات والفتن والانقلابات والثورات والحروب إذا
اعتاد الناس التسليم والتصديق المطلق لتوجيهات الحكام
والرؤساء والقادة الذى يعتنقه سواد الجمهور من العائيين
البسطاء المشغولين دائماً بالسعى على الأرزاق .

فالأسمى أينما نظر إليه بشيء من العمق نجده فى جميع
توجهاته ووجهاته هو اليوم غيره بالأمس وغيره فى الغد
مهما عائد واجتهد فى إعلان العكس لنفسه ولأنداده ، ومهما
تمسك على الدوام بثبات ظاهرى أو بظواهر ثابتة من آباء

وأصل ووطن ودين ولغة وتاريخ .. وهى علاقات تفيد
الاشتراك والحرص عليه ، لكنها لا تقف ولا تعوق استمرارية
التغير فى الأسمى !

والعجيب أننا نعرف مقدماً دواعى الخلاف والشقاق
فى الأغلب والأعم ، لكن نتجاهل هذه الدواعى مع قدرتنا على
توقيها .. نفعل ذلك إما جسارة وزهواً وكبراً ، وإما طمعاً
وإجحافاً ، وإما استهانة وبلاهة وكسلأ .. ثم ننسى بعد وقوع
الشقاق نصيبنا فى إحداثه فلا نلتفت إلا إلى الدفاع عن موقف
الجانب الذى ننتسب إليه بالاحتكام إلى الدفاع والهجوم والحق
والباطل والصحيح والخطأ والقيام بالواجب والإخلال به
والحلل والحرام والعدل والظلم !

والأعجب من ذلك شقاق النفس فى الأسمى الفرد
وتعارض ميولها ومقاصدها تناوباً أو تعاضداً - وضعف
وحنتها الشاملة المفروض أنها تقوم بالتوفيق داخلها بين
اختلاف المطالب والأغراض والمصالح والأمال والأهواء ..
هذا الضعف سائد الآن فى جماعات عصرنا كلها ، لا يكاد

يوجد فارق في أى منها — فى مقدار هذا الشغف — بين غنى
الغنى وفقير الفقير ، أو بين علم العالم وجهل الجاهل ، أو بين
ابن المدينة وابن القرية النائية !

وكل ما ذكرناه فى حاجة ماسة إلى الالتفات الجاد
المطرد لا التفات الحكام والقادة وحدهم فيما يدبرونه ويكررونه
ويراقبونه أو يفترض أنه محل رقابتهم ، بل إلى التفات كل فرد
يظن أنه يقوم بما عليه من واجب اليقظة لما يجرى داخله
وتظهر عواقبه خارجة .. وإلا فالأمور كلها خاصة أو عامة
يستحيل أن تصح نفسها آلياً وهذه خسارة للفرد
والمجموع !!!

العزلة الفائرة ، فى الحضارة الحالية !

فى الماضى حينما كانت الأديان فى قوتها وسلطانها على الشعوب ، لم يكن الإنسان العادى المجهد المشغول طول عمره بقوته وقوت عياله ، يتردد فى أن يطرق باب رجل الدين الذى يتبعه أو يرتاح إليه فى ساعة من نهار أو ليل ، ليهديه فيما رآه مشكلاً عليه من أمور دينه أو دنياه ، وكان يفعل ذلك أيضاً الأكوياء والأغنياء وأهل الحل والعقد فى الجماعة دون أى تعفف أو تكبر ، متمثلاً ذلك فى قسسية أعلام الملة وعلماؤها ورجالها العامة .. فكانت السلطة الدينية ذات سيادة ومستقى للجماعة كلها من رأسها إلى قاعها فيما كانت تختص به من الأمور الجوهرية فى حياة البشر كلهم .

وذلك الماضى قد انتضى فعلاً — وإن لم ينقض اسماً — فيما يتعلق بالديانات ، لأن الإيمان بها صار ما يوجد منه — وهو قليل — هامشياً أدنى إلى الخيال والحنين إلى الماضى واللواذ بما كان عليه الآباء والأجداد ومحاولات لمقاومة

الحضارة الحالية وانتشارها على مستويات شتى فى بقاع العالم .. فقد تجرع كافة البشر ما لم يتوقعوا تجرعه من أفكار وعقائد وقدرات وإمكانات وفرص وتدابير وتخطيطات حالة ومستقبلية ، مبناها ما بلغت العلوم الوضعية من تطور مذهل لم يتوقف مما شغل الآن عقول ونفوس جماهير الخلق فى دنيانا عن المقننات المعروفة وعن القائمين على خدماتها كباراً وصغاراً .. فلم يعد لها ولهم هوية فعلية حقيقية تهيمن على النفوس وتقود دنياهم التى باتت فى قبضة علمانية الحضارة الحالية بعد أن تغلغت مبتدعاتها فى كل شيء تقريباً ولم تسلم من تغفلها دنيا رجال الأديان أنفسهم فهم يسكنون ويأكلون ويركبون ويتقلون ويملكون ويخاطون ويختلطون لا يتمايزون فى تعاملهم هذه الحضارة عن غيرهم من الحشد الحاشد الذى تغلغت فيه حضارة اليوم بخيرها وشرها !

فلم يعد لجمهور الشعب فى الجماعات الراقية والتى فى طريقها إلى الرقى — بعد ما لحق الديانات والممل من الوهن والتحلل — لم يعد لهم جهة فعالة معروفة للكافة يلجأ إليها

الخلق أفراداً وجماعات فى مشاكلهم خاصة أو عامة كما كان ذلك حاصلأ فى العهود والأزمنة الماضية . إذ انفردت السلطات المدنية العلمانية بالحكم والحكومة ولم تعد تنقيد فى حكمها بمشيئة سماوية ، بل أعلنت ومعها الجمهور أنها لا تحكم إلا حسب الأصول الدستورية ، أى بالمبادئ والقواعد المتفق عليها للحكم مع مراعاة الأعراف والتقاليد الدستورية . وهذه كلها أمور بشرية صرف يتفق ويختلف عليها الناس باختلاف ظروفهم وعصورهم ، فصار غير مقبول ما كان مقررأ أيام قسمة القيادات الدينية ، من التجاء أو إمكان التجاء أى آدمى إلى الكاهن أو الشيخ لحل المشكلات وإيضاح الحق والباطل والحلال والحرام .

فقد غضبت الجماهير لطول ما شاهدته وعانته سالفاً من ممالأة البعض للحكام المستبدين المتحكمين ، وانصرفت الجماهير من أوائل القرن الثامن عشر الميلادى إلى محاولات لا تتقطع لحماية وصيانة وتوكيد حقوق الشعوب فى مواجهة الملوك والأمراء ، وتكونت الجماعات والجمعيات والأحزاب

الاجتماعية والسياسية الشعبية من يمثلونها ويمثلون معها الشعب ، فى مواجهة الحكام لمحاسبتهم والحلول مطمحهم فى مقاعد الحكم كلما أمكن ذلك ، وهؤلاء - فى الغالب - من عامة الناس أصلاً .. بدأوا فى السعى على الرزق ، وكثيراً ما انتهوا إلى بناء الثروات والمقامات وتأسيس العائلات ، فانتقطعت صلاتهم بماضيهم المتواضع بعد تحقق نجاحهم فى خدمة أنفسهم ونوحيهم .. ولم تستطع هذه الطوائف الاجتماعية السياسية - على طول التجربة - أن تملأ الفجوة التى خللت من قبل بزوال سيطرة وقبضة رجال الدين على الشعوب !

فلم يعد ممكناً للأدنى العادى غير المحسوب على ذى نفوذ أن يلجأ إلى رجال الدين ، إلا بين الأقلية .. ولم يعد يمكنه أن يجد من هو مستعد لاستقباله ومساعدته فى حدود طاقته .. إذ الكل مشغول بمشاغله الخاصة أو العامة ، وليس من بينها سماع الشكاوى أو الاستعداد لبذل المعونات إلى المحتاجين إليها .. يرى برغم قدرته على ذلك ، أن هذا من اختصاص الجمعيات الخيرية ، وحسبه هو أنه يتبرع للجمعيات

بما وجود به إن طابت نفسه بذلك .. فالاتصال المباشر
بالإنسان كإنسان — لم يعد من المألوف ولا محلاً للترحيب —
وصار في نظر غالبية الناس نوعاً من الإستجداء يأباه الإنسان
العادى الذى يحترم نفسه !

العزلة الفائرة فى حضارتنا الحالية !

فى حضارتنا الحالية عزلة عميقة غائرة برغم كثافة
المكان وكثرة تحركاتهم وانتقالاتهم ، وبرغم احتشاد وازحام
دور التعليم والاتصال والنشر والإعلام والترفيه بغير انقطاع
نهاراً وليلاً — فأدمنوا هذا الزمان غرباء فى الحقيقة بعضهم
عن بعض .. حتى الآباء والأمهات والأزواج والأبناء .. وهذا
شئ لا يبشر بخير ، لأن قلوب الناس قد أعوزها الترابط
الفعلى الذى تحتاج إليه الجماعات الحية الطويلة العمر التى
يمكن أن تعيش متمسكة فى الشدة كما تعيش فى الرخاء !

وبرغم الجهود المبذولة بعناية وإصرار شديدين فى
تطوير العلوم والمعارف الوضعية ، وفى إيجاد الجديد من
المخترعات والمبتكرات المتقدمة إلى حد بعيد والمبنية على هذا
التطوير المستمر الذى لا يتوقف والذى تتسابق فى تحقيقه
آلاف العقول والأبحاث والنتائج فى مشارق الأرض ومغاربها
.. برغم ذلك كله لم يقترب الأنميون قريباً حقيقياً بعضهم من
بعض ، بل تباعدوا وزادت وضوحاً باطراد فردية كل أسمى
وتعلقها بفرديتها وبالتمسك بها فى كل مناسبة ، وحرصها الذى
لا يهدأ على اقتناص فرص النفوذ والتفوق والثراء بغير
التفات إلى مطالب الإنسانية وموجباتها ووحدها !!

ولإنقاذ حضارتنا الحالية من التفتك والدمار —
لا مناص — فيما نعتقد من بذل مساعٍ جادة متنامية متعاونة
متلاحقة — لمقاومة تلك العزلة العامة التى تزداد كل يوم
انتشاراً وعمقاً .. وذلك لإعادة الأسمى العبادى إلى ثقته فى
إخلاص الأسمى للمتعلم المتميز وإمكان اللجوء فى مشاكله
إليه لكونه إنساناً تفرض عليه إنسانيته إسداء المعونة بقدر

ما فى وسعه لمن يحتاجها من الناس دون استعلاء أو خشونة
أو عوض .. حينئذ قد تلتئم الفجوة المفزعة الموجودة الآن
بين عامة الناس وخاصتهم ، وهى فجوة عاشت من قرون فى
ظل أنانية القلة وحكامها وحكوماتها وطبقاتها وأنظمتها !!

تلك المساعى الجادة المتناسقة المتعاونة والمتلاحقة —
مهمة ضخمة تحتاج إلى طول نفس وطول وصبر وعزم
واقتناع .. هذه المساعى الجادة المخلصة لا يستطيع أى أحد أن
يحدد ما يمكن أن يستغرقه تنفيذها تامة من عشرات السنين ،
ولكن أهم ما تحتاج إليه فى بدايتها هو إيمان قلة قليلة
من الصانقين المخلصين العلماء فى العلوم بكافة أنواعها
وصورها ، بضرورة سد هذه الفجوة الواسعة العميقة
الغائرة ، وفتح صدورهم وإتاحة ما فى عقولهم من معارف
وخبرات وما فى قلوبهم من اهتمام وعطف لمعونة من
يحوجه جهله أو ضعفه أو حاجته من عباد الله ، لطرق أبوابهم
.. فحبس هذه الإنسانيات الجوهرية عن أولئك المعوزين لبيعها
بالمال أو بما هو فى مقام المال من النفوذ والجاه — شره وشر

جسيمان جداً نحاول الآن تغطيتهما بقول الأجور المخفضة
أو معاواة غير القادرين منها ولا تكاد نعطيهم فى الواقع عناية
ما أو اهتماماً لأن ما نبذله لهم جهد هامشى لا يزحم اندفاعنا
لما نبذل لكسب المال والثراء والنفوذ !!

ويبدو أن كل آدمى يجمع درجات وطبقات من
حضارات ماضية متنوعة مع درجات وطبقات حضارته
الحالية ، لأنه موجود فى جماعة سبقته إلى الوجود وستبقى من
بعد رحيله ، فهو خاضع حتماً دون أن يشعر لتأثير
حضارات متعددة زماناً ونوعاً .. لا يميز تمييزاً واضحاً ما
بين بعضها وبعض من فروق وتناقضات !

وهذا ملحوظ فى كافة المتعلمين تعليماً عالياً وفى كافة
الحكام وأصحاب المقامات ونوى الرياسات -- وفى أصحاب
النفوذ السياسى والاجتماعى والاقتصادى وفى أصحاب
الثروات العقارية والمالية . إذ يلاحظ لديهم غلبة الماضى
ونظراته من حيث الثقة والاطمئنان .. أما الحاضر فإنه يطفو
دائماً على السطح .. خاصة فى البيانات العامة والخطب

والأحاديث المكتوبة أو المقولة . لأن الماضى معروف أو مفروض أنه معروف أما الحاضر فى اتجاهه إلى المستقبل ففيه قدر من الغيب يتهيئه عادة أهل الاحتياط والتعقل ولا يندفع إليه إلا المغامر !

إخفاقات الحضارة الحالية !

قلما تبنى الأعمال الثابتة الباقية عامة أو خاصة على أكتاف المغامرين المضاربين الذين لا تروج سوقهم غالباً إلا فى أوقات الرواج غير الطبيعى أو عند احتدام الضائقة العامة والقلق العام على الأرزاق !

فحضرارتنا الحالية برغم تفوقها الهائل فى الدنيويات الذى لا يمكن أن ينازع فيه أحد — لم تنجح فى إيجاد جماعات جديدة متينة البنیان ، أو فى تحويل الجماعات القديمة الراهنة إلى جماعات أكثر متانة وأقوى بناء .. ذلك لأنها فيما يبدو لم يتحقق لها حتى الآن ذلك التأثير الأخلاقى الفعال اللازم لمتانة وبقاء أية جماعة كبيرة أو صغيرة !

ولا تزال الجماعات الحالية متحضرة أو فى طريقها
إلى التحضر — .. لا تزال تميز فريقاً من البشر بمزية
الاستعلاء المعترف به على الآخرين ، لأنهم ملوك أو أمراء
أو نبلاء أو وزراء أو قادة أو رؤساء أو زعماء أو كبار
أو أصحاب مقامات ورتب أو آباء أو أزواج ، وهى فيما يبدو
أشباح باقية لماض قديم جداً من الألوهيات البشرية المختلفة
خلف تلك الألقاب وما فى معناها .. وأصلها جميعاً شعور
شخصى غير عادى بمزيد من القوة والثقة فى النفس جعل
صاحبه يميل ميلاً شديداً إلى إخضاع بقية الخلق لإرادته
ونفعهم إلى تحقيق ما يختاره فى محيطه بقدر سعة أو ضيق
ذلك المحيط ، وقد فقدت تلك الأشباح فى زماننا الكثير من
نفوذها الفعلى .. لكن قيمتها لدى أصحابها ما زالت عالية
عزيزة عليهم وعلى نوابهم وأتباعهم ، برغم تقلصها ونبوذها
فى أعين العامة فضلاً عن الخاصة !

وتلك الأثباح لا تزال إلى اليوم تذكر الإنسان باستمرار
بالماضى ، وتنقل جانباً من آثاره وبقاياه إلى حاضرنأ ..
وهى لذلك - وفى نفس الوقت - معوقات تعوق الالتفات الجاد
إلى المستقبل الذى تتطلع له فى ظل الحضارة الحالية
جهود العقول والعلوم والفنون التى لا تنى ولا تهدأ !
واستعمال الأكميين لكلمات الماضى والحاضر والمستقبل
يجرى على المنتهم بسهولة ويسر كأنه بديهى .. لأن معنى
الزمان لديهم عادة هو مدى استمرارية بقاء الحى وغير الحى
من الكائنات ، ومعنى المكان هو شغل أو إمكان شغل فراغ
أو فراغات بحى أو بغير حى .. ويتجاهلون تماماً أن الزمان
والمكان فى الواقع من مصطلحات البشر .. ولا يستعملها
إلا الأحياء حال حياتهم .. وربما يكون ذلك راجعاً إلى عقل
الأكمى ونشاطه الذى يخطى باستمرار حدود حياة الفرد متجهاً
إلى وجود الغير من الأحياء وغير الأحياء ، وإلى وجود الكون
على قدر تصورهِ للكون أو وجود خالق الكون - جل
وعلا - بحسب إمكانية أو قصور عقل الإنسان فى إدراك كنهه

اتصال ما بالخالق عز شأنه .. وهذه فى واقعها ميادين صعبة
تختلف صعوبتها فى الإدراك والوثوق — وضوحاً وسعة —
لكن تخفى هذه الصعوبة مسمياتنا اللغوية التى اعتدنا عليها فى
التعبير عن تلك الميادين ، أو اعتدنا عليها فى الإشارة إليها ..
وهذه الوسائل اللغوية السائدة فى كل جماعة وكل عصر قديماً
وحديثاً هى التى يعتمد عليها البشر — غالباً وبصفة عامة —
فى مصدقاتهم كلها .. وهى لذلك لا تبعدهم ولا تلهيهم عن
الاستغراق فى الالتفات إلى مطالب حياة كل منهم وإلى إخضاع
تلك المصداقات لهذه المطالب إذا لزم الأمر !. بأن يساير معنى
تلك المصداقات حاجات هذه المطالب .. لذلك تطورت
المصداقات بتطور المجتمعات لا العكس ، لأن نجاح حياة الحى
هو غاية الغايات ، ولذلك فلن تضحية حياة إنسان لا تجوز
إلا إذا كانت من أجل صيانة حياة أو أعراض عديدين
والله أعلم .

فغالبية البشر فى أى عصر تتمسك بمعتقداتها بالصورة التى تجدها ملائمة للعصر وعلى مقدار ونحو ما تعتقده ، وكل جيل يختلف فى ذلك عن الجيل الذى سبقه قليلاً أو كثيراً بحسب ظروفه وتقدمه أو تأخره ، لكنه يصبر على زعم أنها ما زالت على حالها القديمة التى كانت عليها لدى آباءه وأجداده لأنه يستخدم فى شأنها نفس الأسماء والصيغ والمصطلحات والحركات والمواعيد والمواسم والمراسم ، مع إشارات ومظاهر وتجهيزات وأثاثات وأدوات تناسب العصر الحاضر وتساير جيله وترضيه .. وقد يشذ البعض فيقلد متكلفاً تقليداً جزئياً قليل الجدوى لبعض ما كان يفعله الأسبقون من إطالة اللحى وارتداء الجلباب وحلق الرؤوس ، لكنه يستحيل عليه — مهما أخذ بالظواهر — أن يرد ذاته الحديثة ابنة عصرها إلى أحوال الأولين الغابرين ! كما يستحيل عليه أن يحمل الأغلبية الغالبة فى مجتمعه وأمثاله من المجتمعات — على العودة إلى الماضى الذى لم تعرفه تلك المجتمعات ولن تعرفه . وهذا فيه من الاستحالة أكثر مما فى محاولة القفز بالشباب إلى الشيخوخة

أو ارتداد الكهولة أو الشيخوخة إلى الشباب !! .. وقد يائس
ويشتط جيل ويناله من هذا الإثم أو الشطط نصيب أو يتراخى
فينال جيلا أو أجيالاً تالية .. لكن تلك لا يوقف قط ويستحيل
أن يوقف توالى الأجيال واختلافها المستمر المبني على تلك
التوالى .. فهو من طبيعة الحياة فى سائر الأحياء !!

عالم الكلام والحماقات !

وعالم الكلام يغطى مساحة كبيرة من نقطة الأنسى فى
كل زمان ومكان وفى كل مجتمع ، وهو على الصوت مزحم
الخواطر سريع الإثبات والنفى والإقرار والإنكار على درجات
مذهلة من السطحية وقلة المبالاة بتحرى الواقع .. هذه الآفات
المتنوعة شوّهت وتشوه الكثير مما معنا وفى أيدينا من معارفنا
وأحكامنا على ما نحبه ونكرهه ونقبله ونرفضه ونصدق
ونكذب ، سواء فى الماضى والحاضر .. فإنا أو فى غيرنا
مما هو موجود فى الواقع والحقيقة أو نتصور وجوده فى الظن
والخيال !

ولأن عالم الكلام بذلك الاتساع والعموم لا سبيل إلى
إحكام رقابته وضبطه ، لأنه مرتبط ارتباطاً كلياً بكافة
الاختيارات والميول البشرية .. وسلطاننا على هذا كله دائماً
نسبي ، ومن ثم لا يمكن إنفاذها أو تعطيلها لأنها طرق متاحة
لتحقيق حاجات وضرورات ومطالب حياة الحى فى جميع
أنوارها وأحوالها وظروفها بلا استثناء ، بينما أشكال تلك
الاختيارات والميول مستمدة باستمرار — وبكل أنواعها — من
إمكانات واستعدادات وعلاقات وعادات وتصورات وموجودات
المحيط ثابتاً كان هذا المحيط أو متغيراً !

ولا يستطيع الأسمى — أياً كان مبلغ عناده وعزمه —
أن يتمرد من كل وجه على المحيط أو الجماعة فيما اعتاده
وجرى عليه المحيط .. وتمرده إذا تمرد هو تمرد جزئى
جانبى فقط .. يعبر به عن أمور لا يرضاها بأمور أخرى
أصح أو أفضل فى نظره ، أو لأنها تمير عن تمرده وسخطه
على محيطه ومقاومته إياه وازدراؤه له للعيوب التى يأخذها

عليه .. هذه العيوب التي قد يطويها وقد ينيعها علانية
فلا ترضى فريقاً من الناس ، لكنها لا تكفى لإثارة تمردهم
ولا تصلح لإثارة غالبيتهم !!

وهنا ينبغي ألا ننسى أن ما نسميه للعقل أو التعلل يحتاج
إلى ما نسميه الإلهامات .. وهى دوافع تدفع عقولنا إلى رؤية
أمر ومسارات يسلكها ويسير فيها العقل والتعلل ، ويخدم هذه
الإلهامات إغفال الأذى لها وتجاهله إياها وانصرافه عنها
لعكوفه على المحسوسات التى فى داخله وخارجه فى ذاته وفى
محيطه التى تشبّك بها وتتصرف إليها مصالحه ومطامعه
واحتقالاته بنفسه ومن هم فى حكمها .

وربما كانت تلك الإلهامات منسابع ومصادر تغذية
فطرية لا غنى عنها لنمو عقولنا وتقدمها وتطورها . نتعرض
لنميتها أمام انبهارنا وإعجابنا بما حققته عقولنا نحن .

لئنا ندفع دون أن نشعر ثمن هذا النسيان لتلك الإلهامات
بالحماقات التى لا أول لها ولا آخر .. هذه الحماقات التى
تولكب نمو وتقدم وتطور الحضارة التى نعيشها ، على ذلك

النحو الأعرج الأبتز الأحق !! لأننا جميعاً — خاصة وعامة —
نحمل سموم هذا النسيان وتنتشر تكميرها لداخلنا الذى وجد
ليحفظ ملامة خارجنا من التشوه ويضمن استمرار بقاء متعاون
داخلنا وخارجنا .. وهو لا غنى عنه لإطراد نجاح الحضارة
وبقاءها .. هذا التعاون ينبغى أن يكون دائماً جاداً فعلاً من
الجانبين بلا افتتات ولا تعالٍ وتعاضم وتيه ، لأن ذلك يجعل
ذلك التعاون تسمية قليلة الجدوى . علماً بأن الانبهار —
قصر أو طال — لم يخرج عن كونه شعوراً مفاجئاً قوياً بنجاح
الذات مصحوباً بإحساس عارم بقيمتها ومنزلتها وسمعتها بين
الناس .. وتلك الانفعالات تأخذ من مخزون الأسمى الداخلى عمقه
وتسلبه إياه ولا تعطيه ما يعوضه حقيقة — عنه لأنها تستغل
وتستغل حرصه الشخصى على تنمية أهوائه .

• • •

لا تكف مجتمعاتنا عن الإشارة أو الإشارة بما تصوره
لدى هذا أو ذاك من مناقب تدعو للإعجاب والانبهار .. هذه
المناقب قامت على أحداث وإنجازات كانت ومضت قبل أن
يعتري أصحابها ما اعتراهم من ذلك ، وهذه آلية تنسى
الأنمي اعتماده على داخله وأعماله لأنها تحصر حركته بين
أسباب خارجية للانبهار وأسباب خارجية للقنوط .. وهذه وتلك
مصادر بعيدة كل البعد عن أعمال الإنسان وما يجرى فيها
قبل أن يطمرها اعتياد المجتمع على عدم الالتفات إلى
الأعماق ففى هذه الأيام وفيما شابهها فى الماضى القريب
أو الماضى البعيد !

والديانات المساوية دعوات يدعوها مبعوثون إلى شعوب
— ملحوظ فى توجيهها إليهم تغيير جانب أو آخر من جوانب
أعراف الجماعة وعدم التعرض بالتغيير إلى الجوانب الباقية
بافتراض أن بقاءها محل احترام ممن يتمسكون بها ، فإن أخذ
مكان تلك الأعراف ، أعراف غيرها أكثر وضوحاً ورقياً ،
فحب وكرامة .. وقد سلمت كتب الأديان السابقة على الإسلام

بنظام الاسترقاق والرق لجريان الناس عليه واحترامهم له ،
بينما واجه القرآن ما تغلغل عن الرق فى نفوس الناس ونظام
المجتمع ، باعتناق سياسة تدريجية تغلق وتضيّق أبواب
الاسترقاق وتفتح أبواب العتق كفارة أو مكربة ، حتى يساعد
بنلك على إزالة هذا النظام الغائر فى حياة الناس فى ذلك
الوقت ، ومن ثم فلا معنى للتعلم بنلك النظام بعد إلغائه فى
العالم كله لأنه غير لائق بأمية الأمتى فى هذا العصر ..
وقريب من هذا الباب إعراض البشر الآن متدينهم وغير
متدينهم عن تعدد الزوجات ، وهو ما عاقبت عليه بعض
القوانين المدنية .. وكذا إعراض معظم الناس فى البلاد
المتقدمة ، عن ركوب الدواب فى انتقالاتهم وعن استعمال
المراكب الشراعية فى الأمفار ، واستغنوا عن الذهب والفضة
فى ملك النقود ، والتزمت الحكومات الراقية أو الساعية إلى
الرقى - بتحمل أعباء المتعطلين والمعوقين والعاجزين
والمرضى والمحتاجين للتعليم والتدريب مع إشراك الشعب
كله بحسب قدرات طبقاته فى أداء الضرائب المفروضة عليه

لمواجهة نفقات هذه التكاليف وغيرها من تكاليف المصالح العامة الأخرى التى تزداد اتساعاً مع تطور المجتمع .. وقيام الحكومات بهذه التكاليف هو من أجل صيانة وتقوية اقتصاديات واجتماعيات الشعب ، وهو دور يستند القيام به إلى سياسة بصيرة لا إلى مجرد عاطفة خيرية كالتى يتميز بها الإنسان حين يستجيب إلى عاطفة الخير لديه .. فما زال أهل الخير يعبرون من مآلهم الخاص عن حبهم للإحسان بالصدقات والمعونات والوصايا والأوقاف والمؤسسات الخيرية ، إلى جانب ما تقوم به الحكومات زيادة فى كماله أو تداركاً لنقصه .. وتلك الاستجابة لعاطفة الخير والبر والصدقة تفرضها الديانات السماوية وتوجبها على المؤمنين بها .

ولا يفوت البصير أن يلاحظ أن خيال المتدينين من أى ديانة ينمو مع الأيام فى كافة الاتجاهات وينتشر باستمرار فى كافة الأنحاء من جيل إلى جيل ، ويغنى هذا الانتشار والاتساع والتنوع والازدهار بالأحداث والآيات والعجائب — عن الاحتياج للعمق ومقانة الأسس الفعلية والمنطقية لتغلغل العقيدة

وتكاثر أتباعها إلى اليوم والغد وكثرة سيرها وتواريخها
وما لا حصر له من شيوخها وأوليائها وعلمائها ومدوناتها .
والمتدينون مع اتجاههم الواعى إلى الآخرة ،
المصحوب بإنكارهم لسلوك وإنكار غير المتدينين — يطنون
خوفهم من تجربة المحاولة الجادة لمقاومة ثقافة الحياة السائدة
فى المجتمع . فهم على الدوام لا يغادرون منتصف الطريق
.. لا يتركون الماضى قط إلى المستقبل ، بل يفرقون الحاضر
الذى يعيشونه فعلاً فى سَحْبِ الماضى التى لا أول ولا آخر لها
.. هذه السَحْبِ التى لا يمكن أن تهبط إلى الحاضر بأى حال
لتصير واقعاً حياً يتجه إلى مستقبل ما .. يحدث هذا لأنهم
يفشون عودة ما مضى وانقضى ليريحهم من حاضر
لا يرضيهم ولا يعدهم بمستقبل يكون خيراً من حاضرهم !!
ويبدو أن خطاب بعض الديانات لم يحفل كثيراً بمستقبل
البشر على هذه الأرض لاهتمامه بقرب الساعة وضرورة
التفات الإنسان للإسراع إلى الطاعة والامتقاة قبل أن تفاجئه
القيامة !. فتمرضت حياة البشر للاحتياج إلى معايرة العصور

واختلافها على مقدار كفاية من تولوا قيادها ومرونتهم وفهمهم لما هو جوهرى لا يتأثر بتغير الزمان والمكان . ومن ثم كان تعدد واختلاف التوجيهات والأحكام والسياسات وسعة وضيق النظر ودوام الانتقال من التشدد إلى الاعتدال والوسطية والعكس ، والعجز عن التخلص كلية من تردد القادة والأتباع بين شدة التمسك بالماضى البعيد أو القريب ، وبين إفساح الطريق للمستقبل بسعة أفقه ونضجه وفطنته ، وهو ما يمكن أن يشارك فيه الأعميون العقلاء جميعاً برغم اختلاف ماضيهم وماضى آبائهم . فطال لذلك على الناس انتظار الأخرة ، وباتت لغة الخطاب التى اعتاد عليها الناس فى الماضى عاجزة عن أن تؤدى الدور الذى كان يؤدى من قبل فى الاقتناع وترشيد الاختيارات لاختلاف العصر الحاضر عن الماضى لغالبية البشر ! . ومع التسليم بحاجة الأعميين إلى الدين دائماً إلا أنه يجب الالتفات فى خطاب الأديان أن يكون ملائماً لمفاهيمهم وآمالهم وتفكيرهم وأشخاصهم فى العصر الذى يعيشون فيه ، لأن الدين لا يفرض فرضاً على

الإنسان بل يؤمن به بالرضا والافتناع ويرغب فيه ويصر عليه
باختياره واستحصائه إياه .

نسبية فكرة الخطأ والصواب !

ويبدو أن فكرة الخطأ والصواب لدى الأكميين دائماً
فكرة لها معنى نسبي عام بشرى أخلاقى أو دينى أكثر منه
نتيجة مادية أو قضية منطقية .. وهذه الفكرة فى مضامينها
تساير الأزمنة والأمكنة ، وتتقدم وتتطور فى وقت على وقت
ومكان على مكان ، وليست بأى حال ناموساً كونياً تخضع له
الموجودات كلها . وقد اجتهد الأكميون فى العصور الحديثة فى
توحيد مقاييس الزمان وتعميمها بحيث تقيس أعمار الأحياء
وغير الأحياء وأجزاء الكون التى عرفها البشر القريب منها
والبعيد مع محاولة تحديد مسافات وأحجام الأجرام التى فى
وسمهم رؤيتها .. وصحة هذه الرؤية المعتبرة صحيحة الآن
لدى معظم الناس ، هى صحة قابلة فى المستقبل للتعديل
أو التغيير مع تقدم العلم الوضعى .. وينبغى ألا يكون ما نصفه

الآن بالصحة أو بالخفة موجباً لتكذيب ما صح عند عموم الغابرين فى الماضى أو لتصحيح ما كذبوه وأسقطوه من قبل ، لأننا دائماً بإزاء حكم بشرى مرهون بزمانه ومكانه .. فلم يعد مناسباً التهويل فيما ورد ببعض كتب الأديان عن أن الخلق — جل وعلا — خلق الأرض فى يومين أو خلق الكون فى ستة أيام أو خلق سبع سموات وسبعة أراضين .. فذلك وأمثاله كان معتقد الناس المطالبين بتغيير ملهم البائدة إلى الأديان السماوية انتهى لم يكن يعنيه إذ ذاك تصحيح المفاهيم التاريخية أو الجغرافية أو الرياضية أو الفلكية الماثعة بين مواد الناس وقتئذ .. فهذه أو تلك يجرى تصحيحها فى أوانه وأوقاته مع ترقى العقول وتطورها بتوالى العصور . فالأديان السماوية تسير فطرة مراحل النمو الأخلاقى والروحى والفكرى فى الجنس البشرى ، وتحاول تقويم ما يمكنها تقويمه من أعرافه وعاداته وسلوكياته إلى أن يبلغ فى تطوره درجة أن يتخلى نهائياً عن بقايا وحشيته وغفلته ونزقه وجشعه .. هذه الوحشية

التي بقيت فيه من دهور حيوانيته التي حجبته إنسانيته آماداً
لا يعرف طولها إلا الخالق عز وجل !

كمال الإنسانية

وربما كانت بداية الأسمى عند الديانات السماوية ،
هى كمال الإنسانية وتمام العناية الخالقة باستعداداتها ، وأن
ما اعتراها من الانحراف والطيش كان وما زال بتأثير
الشيطان وظروف حياة البشر على الأرض .. وهو تصور
أخلاقي سام مقصود من أول الأمر لدفع كل أنمى رشيد فى
زمانه ، إلى أن يترك الانحرافات التى يمارسها أو يمارسها
غيره لأنها غير لائقة به ، وأن يجذب ذلك بقوة للعودة إلى
الصورة الأصلية النقية التى كانت محلاً لعناية الخالق عز وجل
ورعايته ابتداءً ، وما زالت محلاً لرحمته وغفرانه بعد ذلك ..
علما بأن تصور الأسمى ملازم لوجوده ووجود نسله وجماعته
ودينه ووطنه وتاريخه واجتماعه واقتصاده وسياسته وعلومه
وفنونه وآدابه ، ولازم لنشاط عقله وعواطفه وآماله وإدراكه

لحاضره ومستقبله فى الدنيا والآخرة . وهو فردى وجماعى
ووقتى عرضى أو ملازم متمكن لا يخلو منه تفكير أحد فى أية
لحظة !

والقدرة على التصور أساس ليس عنه غنى لكل
معارف الأكميين فى الماضى والحاضر والمستقبل ، ولكافة
اكتشافاتهم وابتكاراتهم واختراعاتهم ومهاراتهم ، ولجميع
إلهاماتهم ونبوءاتهم ومعتقداتهم ، وبها فصلوا دنياهم عن
أخراهم وميزوا نواتهم - فيما بينها وعن جميع الأحياء ، كما
ميزوا الحى عن الميت منهم ، ورفعوا قيمة حياتهم ووزنها
عن كل ما فى الكون .. وبهذه القدرة على التصور اتصلوا
بالخالق - جل وعلا - وعبدوه ودعوه وتوسلوا إليه بمختلف
الوسائل وخاطبوه واستجدوه واستمعنوا به واتجهوا إليه
وأعرضوا عنه ، فلا غرابة فى أن يمتلئ تصور البشر منذ
وجنوا بالخالق - جل وعلا - وبالكون الهائل العظيم وبالندى
والآخرة ، وأن يمتلئ بالمتغيرات المناسبة أو غير المناسبة
لحالهم وظروفهم وعصورهم .. وهى تغيرات حدثت وستحدث

باطراد فيهم ما بقى جنسهم ، لكنهم لا يفتنون لذلك فى أغلب
الأحيان .. ذلك أن تصورنا - أياً ما كان نوعه وقيمته -
هو إدراك ما لتجربة ما بشرية صرف فصار جزءاً لا ينفصم
عنا وليس جزءاً من الطبيعة ، بل هو صلتنا الأولى والأخيرة
بها كآدميين فى محيط سرمدى هائل لا نتعدى أن نكون فيه
ذرات متناهية الصغر !

اللغة والحياة والأحياء !

كافة اللغات التى معنا الآن — نحن الأدميين — هى من صنعنا .. دفعنا إليه استعدادات موجودة فى خلقتنا .. وهى أصوات وإشارات وحركات مسموعة أو مكتوبة أو مصطلحة بطريقة أو بأخرى ، للتعبير عن حاجتنا ومشاعرنا وإرادتنا وأفكارنا ولحفظ ما تحفظه منها ذاكرة الأسمى لنتنفع به ما استطعنا .. تنمو وتتطور مع نمونا وتطورنا وتساهم فيهما ، وإذا انعدمت انعدم وجودنا كأدميين ، واستحال اتصالنا بدنياتنا وأخراتنا على أى وجه يمكن التغيير فيه أو نقله أو تكوينه أو تسجيله .. إذ لا يمكن تصوره أو التفكير فيه بغيرها ، لأننا لا يمكن أن نتصور أو نفكر أو نختار أو نقرر بدون لغة ! ونحن لا نلتفت للغة ودورها الحاسم الأساسى فى حياتنا مثلما لا نلتفت إلى دور التنفس أو دور اليقظة أو الوعي ، لأن هذه كلها أساسيات ملازمة لحياتنا الطبيعية لا نلبه لها عادة بل ننساها معظم وقتنا وعمرنا .. منذ وجدنا ونحن ندفع ثمن

هذا النسيان باستمرار .. تدفعه أوهاماً وأطماعاً وشهوات
وعجائز وضلالات وخصومات وعداوات نسيء فيها استعمال
اللغة واستخدامها إساءة لا يفتقرها العقل الفطن ولكن يسيبها
دائماً الكمل والبلادة والخفة والاستعجال والتقليد والغرور ،
نضيف دائماً عوضاً عما نستبعده منها ، فصارت جبالاً
حملناها ويحملها الآلون من بعدنا توارثاً أو تتبعاً . إذ اللغة
لغة الناس عامة وإن اختلف محصولها باختلاف الأفراد
والأوساط والحضر والريف والبلاد والعصور .. ولا يتميز
فيها المتسلط بسلطانه ولا القوى بقوته ولا الغنى بغناه !

لا نعى شيئاً بغير لغة ما ، ولا نؤدى عبادة بدونها ..
ولا نطعن قصداً في جد أو هزل إلا عن طريقها .. ولا نتحاب
أو نتعادى إلا ونستعملها .. ولا نعمل أو نعرف أو نتعلم
أو نعرف أو نعلم شيئاً ما كبير أو صغير إلا معبراً عنه بالفاظ
وعبارات ومصطلحات أو حركات نابغة منها صادرة عنها ..
ولا نولد أو نموت إلا خبراً تحمله لغة .. ولا نفرح
أو نحزن ولا نستيقظ أو ننام ولا نكد أو نرتاح ولا نأكل

أو نجس ولا نبني أو نهدم أسرة أو قرية أو بلدة أو جماعة
أو دولة إلا بلفة !

ولغات البشر تدريجية كحياتهم .. تبدأ مما لا يكاد يكون
ثم تنمو بالتدريج ثم تتحدر ، وهذه " التدريجية " موجودة في
حياة باقي الأحياء ما نعرفه منها وما لا نعرفه .. وهي تلاحظ
كذلك في غير الأحياء وتكويناتها ، وربما كانت في منشأ الكون
العظيم كله بكل أجزائه وتكويناته .. وتدرجية الإنسان الفرد
تساير تدريجية لغته في جماعته ، بمعنى أنها تبدأ في كل حياته
وتنمو مع نموها وتتدهور مع تدهورها .

ولأن حياة الجماعة أطول بكثير جداً من حياة الفرد ،
فإن محصول لغة الجماعة أوفر دائماً من محصول أحياد
أفرادها في عصر كل منهم ، ومن ثم وجدت في الجماعات
القواميس والمعاجم لمساعدة الأفراد على الإحاطة بمعاني
ألفاظ ومصطلحات لغاتهم حسب حفظها من التقدم في زمن
وضع كل معجم . وبذلك أحاط الأئمة في جيله بمعاني
الألفاظ في الأجيال السابقة مع ما استجد من الألفاظ ومعانيها

فى جيله ، فتشابكت الأجيال بعضها ببعض وشعروا بأن كل جماعة ذات لغة واحدة باقية فيها برغم توالى حركة توالد الأفراد وزوالهم !

ولأن الفرد الأسمى فى أية جماعة متقدمة أو متأخرة ، يمكنه أن يتعلم لغة أية جماعة أخرى ويتحدث بها بطريقة ما ، بل ويكتبها على مستوى قدراته وأحياناً يجيدها ، لذلك فقد عرف الأسميون من قرون طويلة ماضية أننا جميعاً أناس برغم اختلاف الأوطان والأجناس والألوان والأحجام والمهن والأديان والأعراف والآداب والقوانين فى كل زمان ، كما عرفوا أننا جميعاً — برغم دولم ذلك الاختلاف — أمكن ويمكن أن نتزوج ونتناسل ونمتزج ونظهر معالم امتزاجنا فى أفرادنا وجماعاتنا بنىا واستعداداً وسلوكاً ولغات وعادات .. نتوارث ذلك الامتزاج ونستكيمة بحيث لم يعد يوجد بيننا الآن جنس نقى صاف خالص من ذلك المزج بصورة أو أخرى . وذلك فيما يبدو هو أساس قدرة الأسميين على التكاثر والتقدم والتطور ، وهذه مزية ثمينة جداً ربما ترجع إلى أن نمو عقل

الأمى قد تأخر أحقاباً عن نموه البدنى ، فلا تعزى خطوات التقدم فى بداياتها الماضية أو الحاضرة إلا لتمسك بعض العقول بها واجتهادهم فى استنباط كل ما يستطيعونه منها بالتقائهم إلى ما تكشف عنه مواهب الموهوبين والجماعات المتحضرة التى حاولت وتحاول بنشر التعليم ، بث الامتثارة فى عقل الإنسان العادى لكى يشارك مشاركة فعلية حقيقية فى التقدم والتطور ، وهى محاولة محدودة النجاح ربما لغلبة انكباب المتعلمين والمعلمين على النفع المادى الذى بات له المقام الأول فى أعين الكل إلا من ندر !

ومعنى ألفاظ وإشارات وتراكيب اللغة — أى لغة — فى المعاجم وفى الاصطلاح العام فى الجماعة، يخالف دائماً مخالفة قليلة أو كثيرة المعنى الحى فى المناسبة للحية التى يعبر عنها فعلاً أى أمى باللغة . وهذا وإن كان باباً مفتوحاً للوهم والإبهام لكنه أولاً وأخيراً باب أساسى جلد لا تستغنى عنه اللغة لكى يتسع نطاقها وقدرتها على مسابرة الظروف التى قلما تتماثل بين فرد وآخر .. وهو اتساع أدى ويؤدى باستمرار

إلى مرونة اللغة وسعتها تلقائياً نتيجة دوام الإستعمال البشرى
الحى والذى يحيى لغته بحياته . ولا يحجب هذا اعتياد الأميين
السائد أنهم يفهمون مقصود الآخرين ومقصودهم هم من طريق
اللغة وحدها . ومن هذا جاء فيما يبدو — ما يشاهد بين الناس
من إساءة التأويل والفهم ومن الريبة والشك ومن المبالغة فى
التحفظ والاحتياط ومن حسيان المكر والغدر وعواقبهما ! .. —
فتتشى اللغة واتساعها ويسرها على الألسن والأفلام قلل
بالضرورة من الثقة والأمان بين البشر ، لأنه زاد فى تعقيد
حياتهم فى مجتمعاتهم وجردهم أو كاد من البساطة وسلامة
النية . فلم تعد الكتابة ولا توثيقها تقويان على رد مكر الناس
وزيفهم ومقاومة المكر بمكر مضاد ، فبدأت مع الوقت تفقد
فائدتها !!

فلا مناص من عودة الناس إلى قدر ثابت من الاستقامة
الداخلية إن كنا جادين فى الإبقاء على ما بلغناه فضلاً عن
حرصنا على الزيادة فيه .. إذ من الحماقة المهلكة أن نذهب
ونسلب ما أجهنا أنفسنا فى بنائه وإشادته وكسبه .. فمن ينهب

ويسلب من المجتمع الذى يوجد فيه ليعيش وينفع وينتفع ، ينهب فى الواقع ويسلب نفسه وهو لا يشعر على المدى الأطول الذى ينبغي أن يحسب للعقلاء حسابه ، وليس هذا حال معظم الخلق الذين يتصارعون دائماً على منافع شخصية عاجلة الجوى ظلتين أنهم قادرون على حفظها والاحتفاظ بها إن حصلوا عليها ، وهو ظن لم ولا يصنق قط !!

فالبشر جميعاً بلا استثناء غرقى تماماً فى اللغة بمعناها العام .. نخطب بها السماء وتخطبنا ونخطب بها الأرض وتخطبنا ونخطب بها الكون عسى أن يستجيب لنا .. إذ لا نستطيع أن نتصل بغيرنا على الإطلاق إلا بـ لغة بشرية أو حركية مبنية على معنى ألفاظ هذه اللغة ، ولغتنا البشرية دائمة الولادة والتتمة للألفاظ والمعانى والتراكيب والأساليب فى نطاق بشريتها لا يمكنها أن تتخطاه فى أى ظرف .

ومراتب فهمنا لمعانى لغتنا لا حد لها فى التسمى أو فى الاتحاط .. وهى فى الحالين مراتب بشرية متقدمة متطورة أو متدهورة متأخرة فى موازين البشر . وفى كل جيل تختلف

درجة التمسك بالتسامى أو التمسك بالانحطاط — وهو ما يغير باستمرار طابع كل جيل وكل عصر ويزيد أو ينقص صموداً أو هبوطاً من حضارة المجتمع !

واللغة تستخدم وتستبعد الآميين فى أكثر الأحيان ، وتقودهم أحياناً إلى حقائق وإبداعات وتقودهم أحياناً إلى أوهام وأحلام وأباطيل وأساطير تتسلط على عقولهم وتتحكم فى سلوكهم وتصرفاتهم ، فتأخذ مقام الدين فى الديانات ومكان العلم فى المعارف والعلوم وتأخذ أيضاً مكان نفوذ الفضائل فى الأخلاق والأنواق والعادات . وكثير من ذلك كلام فى كلام صرف — لا يعدو الأكوال إلى الأفعال ولا يعبر عن واقع فعلى أو عن فهم بديهي يقبله العقل السليم ولا يأباه أو يلفظه ! وذلك الكثير بحلوله ومره وسمينه وغثه يلود بما يسمى بالمجمع عليه أو بالمأثور المعلوم أو بالمتفق عليه الآن أو يتمسح أحياناً بإلهام الأولياء والقديسين أو بالاستناد إلى التفات من العلماء وأهل الذكر العارفين ، فيتكلف سلطان اللغة ومخزونها وماضيها على امتداد نفوذها فى حاضرتنا لكى يظل يمسك

بزماء الحاضر كعادته الدائمة التى ينحاز إليها حتى اليوم
ملايين الخلق قلباً وقالياً !!

فنفوذ اللغة فى أعمالنا كأحياء متغلغل منتشر انتشراً
ممتداً فى كل اتجاه فى وعينا ولا وعينا وفى عقولنا
وعواطفنا وفى يقظتنا ونومنا وفرحنا وحزننا وعلمنا وجهلنا
وخيرنا وشرنا ! .. هذا النفوذ متغلغل فينا هذا التغلغل ،
منذ أن عرفنا أنفسنا من أبعد الماضى إلى أقرب الحاضر ..
لا يستطيع الأميون أن يأخذوا أو يعطوا أو يقرروا أو يلغوا
أو يقبلوا أو يرفضوا أو أن يجتروا أو يلعبوا أو أن يتعارفوا
ويتواصلوا ويتقاربوا أو يتنافروا ويتباعدوا أو أن يوالوا
أو يعادوا دون لغة !!

* * *

فى وسع البشر كجماعة فى تنظيم استعمال اللغة
بوضع قواعد وأعراف وعادات واستعمال لسهجات وابتداع
أساليب وصور للتعبير اللغوى ، لكن ليس فى وسع أحد التحكم
التام والسيطرة الخارجية عليها .. لأنها أولاً وأخيراً لغة آحاد

الناس فى خصوصياتهم وعمومياتهم معاً .. وكثيراً ما يتصل
ويتسل ما يستعمل فى الخصوصيات إلى العموميات والعكس ،
وليس فى مقدور أحد أن يحول دون ذلك .. فاللسان واللغة
يغلبان كل قيد يفرض على الأسمى الحى بين وقت وآخر
ويتحديان كل رقابة لأية سلطة أو سلطان . وهذا من الأسباب
الأساسية لنوام تغير المعتقدات والأفكار والأحوال والظروف
والعصور والأجيال واستحالة السيطرة الكاملة الدائمة على ذلك
التغير !

فهل يمكن معالجة الجانب السائد للتلقائى فى اللغات
بالجانب العقلانى منها ؟

يبدو أن نسبة العقلانية دائماً أقل بكثير من نسبة
التلقائية ، وأن الزيادة المستمرة بعامة فى عدد السكان تحافظ
على هذه النسبة المختلة برغم ما يبدو من انتشار المدارس
والمعاهد وتقلص الأمية وتوافر الكتب والمكتبات وغزو
الإذاعة المسموعة أو المرئية لكل دار تقريباً . لأن هذه جميعاً
تعنى أولاً وأخيراً بنموها هى ونجاحها فى الانتشار والإقبال ،

ولا يهملها كثيراً تقويم أفهام الناس وإيقاظ عقولهم وتوسيع مداركهم .. فزوال ما يسمى بالأمية بتعليم القراءة والكتابة لا ينقص من الجهل العلم والسطحية ، ولا من انتشار المحاكاة الإرادية أو غير الإرادية بطريقة غير واعية ، ولا من استحباب الكمل والفرار من المجهود والاعتیاد على الخمول ! وهذه كلها أسواق مفتوحة الأبواب لذیوع وامتداد الجانب التلقائي في كل لغة وكل جماعة ، وهو ما ترحب به وتسائده ميولنا العاطفية والحيوية .. وهي قوة يحسب حسابها دائماً تعيننا على الاستمساك بالحياة الفطرية الخاملة التي لا تحتاج إلى العقل والتعقل !!

ونحن دائماً نتصور إمكان الجمع بين النفع والانتفاع في كل عمل نقصد ونعنى بتنفيذه ، ونتناسى أن دافعنا الأساسي إليه هو جانب الانتفاع الشخصي به أولاً وأخيراً انتفاعاً ذاتياً خالصاً لأنفسنا !. فنحن منذ خلقنا نغلف بطريقة أو بأخرى أغراضنا الذاتية بإطار خارجي من إمكان الانتفاع والانشغال بالهم العام ثم لا تلبث هذه القشرة الخارجية أن تتهلوى وتتطاير

وتبرز فيها أمانينا وأطماعنا ومعها الاتهامات والشكوك وفقدان الثقة العامة الذى يودى بحضارتنا . إذ أن مساعينا العامة والخاصة يعوزها دائماً الإخلاص وصدق النوايا ، وهما عاملان لا يحفل بهما الأكميون كثيراً فى أى زمان ومكان يرغم لزومهما لاستمرار نجاح الأعمال والمشاريع والبرامج والسياسات !

واهتمام حضارتنا الحالية الهائل بالإعلان والدعاية ، معناه استخدام اللغة وتأثيرها فى عواطف وميول البشر لاصطياد واجتذاب الرغبات والقرارات من الجمهور بإذاعة أفكار وتصورات يمكن أن توفق الآمال والأهواء والميول التى تستهدف الدعاية والإعلان إيقاظها !! .. فليس فى عملية الإعلان والدعاية قصد رئيسى إلا كسب المعلن الأكيد والربح المحتمل لصاحب الإعلان أو راعيه المكلف بها تحقيقاً لمصالح الطرفين .. فلا يراعى فى هذا النشاط الهائل أكثر من النفع الشخصى للقاتمين به ولمن قالوهم على القيام به ، إذ لا يسأل المعلن أو الداعى ولا من كلفه بالإعلان أو بالدعوة ، عن

ضمان صدق أو نفع ما روجه لدى خلق الله الذين انتقادوا إليه
وابوه ونفوه ، فهذه مجازفات تستخدم لغة سائدة في مجتمعاتنا
واعتكنا عليها رغم عدم إلزامها والتزامها بالأمانة مع كثرة
ما تثيره من الإغراء والإغواء .. ولا يكاد يستثنى من ذلك —
نظراً لخصوصية طبيعته وطبيعة ونوع المشتغلين به —
إلا الإعلان المتعلق بالأبحاث والدراسات والمؤلفات والنسب
والمؤتمرات العلمية .. سواء بالنظر إلى خصوصية وطبيعة
ونوع المشتغلين والمهتمين بهذا القطاع الجاد ، أم لأن مثل
هذه الموضوعات محل عناية واهتمام في البلاد المتقدمة
وموضوع مراقبة جادة مستمرة من جهة القيمة العلمية ومبلغ
ما تحتوى عليه من المعرفة مما ينفع المشاهد أو السامع
أو القارئ .. فلا تحتاج ولا يحتاج المعنيون بها إلى الأساليب
الدارجة للدعاية والإعلان ، وتتسلح في شيوعها وفي تقديمها
للناس بمنظومة هذه القيم التي لم توجد بعد في دوائر التجارة
والصناعة والسياسة والفنون والآداب !

ونحن ننسى لشدة الاعتياد ، أن اللغة — أية لغة حية —
هى السجل الأساسى الرئيسى الأول والأخير لحياة كل آدمى
حتى فى هذه الدنيا .. منه وبه يتكلم ويتخيل ويتذكر ويحطم
ويعرف ويجهل ويعقل ويهجر ويحب ويكره ويقبل ويرفض
ويدبر ويتدبر وينفرد ويتجمع ويصالح ويمادى ويعلم أنه
يحيا وأنه يموت .. يظل فى هذا السجل ما معنا الآن وما كان
معنا فى الماضى وما نتصور أنه سيكون معنا فى المستقبل ،
وينطفئ هذا كله تماماً إن توقفت اللغات عن عملها الدائم الذى
نعيش به ومعه !

وذلك النسيان طبيعى ولا يفارق حياة البشر الواعية فى
أغلب الأوقات ، لأن وعى الأسمى فيما يبدو هو وذاكرته عبارة
عن لفائف وطبقات بعضها فوق بعض . ونحن قد اعتدنا
الآن نلتفت إلا لما يجرى على السطح ، كما اعتدنا أن نغفل فى
أكثر الأوقات ما يجرى تحت السطح فى الأعماق ، مثلما نغفل
ما يحمله هذا السطح وما يحمله هذا الحامل له صعبودا
أو نزولاً وغوصاً إلى الأعماق . ونحن ما عشنا نزيد من تلك

الفائف والطبقات ، وتغطي هذه الزيادة المستمرة دائماً سطحاً
سابقاً بسطح جديد يأخذ مكان السابق فى وعينا المؤلف
الحاضر !

وقبولنا المطرد لتعاقب الأسطح على هذا النحو بغير
مقاومة واعية ، هو سبب ملازم من أسباب تعقيد حياة البشر
الذى يتزايد مع تضاعف عددهم وتزاحم أنشطتهم اليومية
الخالية فى أكثر الأحيان من الإمعان فى الانتباه والحرص على
التحقق والتثبت .. إننا ندفع باستمرار - معجلاً وموجلاً !! -
ثمن تراخيها وخمولنا وجمودنا وتشبثنا بما اعتنناه !.. هذا
الثمن هو معاناتنا التى لا تنتهى لذلك التعقيد الذى لم نعرف بعد
كيف نعالجه بوسيلة ناجحة نفتتح بها ونشأبر عليها وعلى
استعمالها !

ويبدو أن عقول كثرتنا إلى اليوم وإلى مستقبل لا نعرف
مداه - أضعف من أن تقلح فى تحريك إرادتنا وعزائمننا إلى
الإصرار على مقاومة عاداتنا التى تحبسنا وتحاصرنا
وتستمرمل إمعاناً فى إرباك حياتنا . وربما كنا من طريق

الخيال واللغة نبالغ في تصور قدراتنا على الاحتفاظ بهذا الذى نتوهم أنه تقدم وترقّ فعلى ، بينما هو فى واقعه موجات قد تعلقو لكنها سرعان ما تتحسر وتراجع وترينا وتديننا مرارة فشلنا وبأسنا ! ..

إننا فى معظم الوقت فى ضباب يقظتنا الذى لا ينجلى فلا نرى الأمور والأشياء على حقيقتها ، وإنما نشاهدها من بعيد من خلال الكلام والأوصاف والفروض والمعانى والأفكار والنظريات والاعتقادات والعلاقات والارتباطات والشكوك والعداوات وما نسميه تارة بالسلام وتارة بالحرب !

وما زلنا منذ الأزل - خاصتنا وعامتنا - نستسهل الكلام فى الأغلب الأعم ، ونتقاعص أو نحاط أو نجفل ونتقضى الأفعال ، ومن ثم نتسع لدينا للمسافة بين القول والفعل ، لأن الفعل يلزمه جهد وأحيانا مشقة وأحيانا أخرى مسئولية مادية أو معنوية .. وبذلك تنفصل لغة التشويق والكلام عن عالم السلوك والأفعال ، يوردنا فى هذا إخلاننا للفطرى إلى الراحة ونفورنا من الأفعال التى يلزمها الجهد والعرق والمشقة ،

فضلا عن أقتال المسئولية المادية والأدبية الملزمة له ،
بينما لا ندفع عن الكلام ضريبة ، ولا نؤدى جهدا ، ولا نتحمل
مشقة !!.. والمراقب لسلوكيات البشر كثيرا ما يلحظ كم ننحاز
للمبدأ أو المعتقد ونحتد به أمام الآخرين أو عليهم ، ولكن نعاقه
ولا نطبقه على أنفسنا أو أحبائنا ، لأن قواعد كل منا متفاوتة
المكانة والمثانة والاستجابة للزمان والمكان والظروف !.
ويبدو أن هذا ليس منه بد لأن جماعاتنا بأشكالها الضيقة
أو الواسعة غالبيتها الغالبة تلقائية لا ترحب بالجد والالتزام ،
ولا بالتوجيه أو التكريب الذى يفرض عليها عفاء الكد والكدر
والالتزام !!

وليس هذا بعجيب على الجماعات البشرية !! ، وإنما
العجيب أن تقوى تلك الجماعات أو بعضها — على النهوض
والانتعاش برغم ما لديها من هذه المثالب والمعوقات .. يحدث
ذلك بفضل إصرار ويقظة وثبات قلة متماسكة فى الجماعة
تحافظ على يقظتها وتمسكها لمدة من الزمن كافية لإشغال حمية
الكثرة وإلهاب طموحاتها وأطماعها ، فيصير الأعميون

العاديون فى أنفسهم مزايا خاصة كانت خافية من قبل عليهم
يستحقون بسببها أن يسودوا ويتفوقوا على سواهم ! فإذا وقفوا
للوصول إلى تلك السيادة وذلك التفوق فقد سجلوا مساهم هذا
فى تاريخ البشر ، وظل ذلك على الدهر مذكوراً ..
لهم وإن لم يدم ويبق بسبب ارتدادهم إلى الهوان والضعف
والتأخر !!



لأن اللغة عنصر أساسى فى تركيب وعى الأسمى
وذاكرته ، فإنه لا يمكنه أن يشعر بذاته إلا بصورة أو أخرى
من صورها ، إذ هى عنده الطريق الرئيسى للتعبير عن الذات
وعن وجودها وتميزها على غيرها من الأحياء بالمشاعر
والخواطر وبالعلاقات الأسرية والجوارية والاجتماعية
وبروابط العمل والإقامة وبالانتماء إلى ناحية أو بلدة أو وطن
أو جيل أو عصر .. وبدون اللغة لا يشعر الأسمى بهذا العالم
وما فيه مما يعرفه وما لا يعرفه ، كما لا يمكن أن يشعر بحق
أو واجب أو غنى أو ملك أو نفوذ أو سلطة أو بنقيض هذا من

الصفات الأخرى .. فدنينا بأمرها — خاصة أو عامة — لا تستغنى عن اللغات فى أية لحظة أو أى اتجاه أو غرض أو ظرف .. لا يستطيع البشر فرادى أو مجتمعين أن يخطوا أية خطوة داخلية أو خارجية دون استعمال لغة فى التعبير عنها ، سواء فى خطابها للذات أو خطابها للآخرين !

وعند أغلبية الناس تعلو قيمة القديم الذى اعتادوا الرجوع إليه ، على قيمة الجديد بالغاً ما بلغ سنده حتى فى البلاد المتقدمة جداً .. فهم لا يقبلون جديداً من أحد إلا إذا لم يعارض أو يتجاهل أو يستخف أو يتصانم بقديم مألوف معروف ، فإذا انزلق إلى هذا المغمز سخفه الناس إن لما يعاندوه انحيازاً منهم لما ألفوه ووقروا عليه مما قرأوه أو سمعوه واعتادوا من قديم قراءته أو سماعه !! ..

ولا جدوى من وضوح الدليل المعارض وقوة عارضته وحجة منطقته إلا أن ينصاع الجمهور شيئاً فشيئاً للتجربة العملية الجديدة الناجحة ويعتاد الأخذ بها فيقيم بذلك اعتياداً جديداً !!!

اللغة — وأعنى بها اللغات بعامة أيا كانت أرومتها —
أوسع أداء دائماً مما يعرفه أى أنمى جاهل أو عالم ، معرفة
فعلية حقيقية ، لأنها مجموع قوالب عامة حتى فيما يطلق عليه
اصطلاح " المعارف " .. وظيقتها أن تكون فى طوع تصرف
الناس لكى تعبّر بسهولة غير محدودة عن الأفعال والوقائع
والأحوال الفعلية المعنية فى الزمان والمكان ، وعن الأفكار
والمعانى وما هو عام أو خاص من الروى والخواطر والآراء
والأفكار والتصورات والأمال والأمانى والأحلام والأوهام
والمخاوف والنوازل والبلايا .. سواء فى هذا كله ما كان له
وجود حقيقى أو مما يمكن فى العقل أن يكون له وجود
لو مما يستحيل وجوده على الإطلاق !

ولم يوجد حتى الآن فاصل لغوى يمكن أن يفصل
ويعزل بين هذه الأمور المختلفة أشد الاختلاف بحيث لا تتداخل
ويختلط بعضها فى بعض .. وهذا عيب أساسى فى جميع لغات
البشر حية وغير حية .. هذا العيب جعلها وما زالت كمجرد
شبهكات صيد لا يميز الرامى بأى منها تماماً حقيقة ما يريد من

طرحها .. الفصاحة أو البراعة فى اللغة ميزة ذاتية لها وحدها لا تمتد قط إلى الزيادة فى الصدق أو إلى واقعية واقعها أيا كان ! .. لأن الفصاحة أو البراعة عامل فنى عاطفى يزداد قوة مع تجاوز الواقع أو تغطيته فى الكثير من الأحوال كما فى الشعر القصصى وكما فى المناظرات التى يعنى فيها المتناظرون بالغبلة بأكثر مما يعنون بالواقع ومقتضياته ولوازمه !

ثم ينبغى ألا ننسى أن اللغة وحدها هى التى تمثل وتحدد أوضاع وروابط وصلات ومقامات ومراكز الأُمميين فى مجتمعاتهم من قرابات وأنساب وألقاب وأسماء ونعوت ومراتب وأعراف وعادات ومسلّمات .. وهذه جميعاً لا يخلو أساسها من ترجيحات وظنون وانفراضات وانحيازات ومصادقات وميول وحماقات وغبوات !!!

كما ينبغى ألا ننسى أن القدرة على الفهم ومداه لدى الأُممى ، تختلف باختلاف أعمار وظروف الأفراد ، كما تختلف باختلاف الأجيال والأفكار والأزمنة تقمّماً أو تكّخراً

.. وتلك الاختلافات الدائمة الوجود فى الجماعات البشرية كلها خلقت وتخلق حتماً قدرأ مشتركاً من التفاهم المؤقت بين سواد المجتمع يكون ما يعرف بالرأى العام ، حيث لا تسمح التربية ولا الأعراف أو العادات أو المشارب ، بالتساع الفهم والتعمق فيه .. فهذان إلى يومنا هذا وإلى مستقبل لا نعرف أمده ، من خصائص خاصة للخاصة ، وربما كان ذلك بسبب انصراف جهود عامة الناس إلى الأعمال البدنية والتنفيذية اليومية التى لا تتيح لمعظم المشتغلين بها متسعاً من العافية والوقت للمران على الفهم ومعاينته ، فعاشوا ويعيشون على مقدار ما وصل إلى كل منهم من منقول الأكوال والآراء والمعتقدات .. لا يميزون بين قديمه وجديده ومتروكه ومقبوله وسقيمه وسليمه ، وفى وهدة هذا النقل غير الواعى يتكرر ما اعتاده الناس من جيل إلى جيل دون أن يشير ذلك غضباً لوملاً !

ففى تلك الطبقات المطحونة بضغوط الحياة وإيقاع السعى لا يتطلع جل من فيها لأكثر من رزق يومه ويوم من هم فى عنقه !! ولم يطف من ذلك انتشار الصحافة وكثرة ما تنبئه وتنقله وسائل الإعلام وما تملأ به الأسماع والعيون من التوجيهات والدعايات ومحاولات الإقناع والترفيه والتهدئة أو دغدغة مشاعر طبقات الشعب العامة بأن فى يدها الحل .. لم يعد هذا يفلح لأن الطبقات تعرف أنها عاجزة عن ذلك تماماً ، ولم يعد يفلح لأن المقصود الأكبر للصحافة ووسائل الإعلام هو الانتشار وما يعود عليها بسببه من نجاح وقوة وربح مادية ومعنوية. فضلاً عن القدرة على تحريك الجماهير وتوجيهها إلى مايراد ، وأثر ذلك على السياسة والسياسيين فى الدخل والخارج !!

ذلك إلى أن العمومية نتيجة للذئوع والانتشار - ييسرها وسهولتها - هى ارتفاع عام إلى السطحية السوقية وتخل على صاوخ عن الحرص على " فردية " الأسمى وشعوره بأعماله واعترازه بها وإصراره الملزم لذلك على تنمية الفطنة

وتتقى وتصفية الرؤية والفهم . هذا هو أس الشرقى الحقيقى
للأسمى داخلاً وخارجاً ومنبع خصوبته التى لا تعرف حداً
.. ولا يستطيع الأسمى - فيما يبدو - أن يلغى أعماقه
أو يغيرها بجديد من صنعه هو لكى تؤتى أكلها ، وإنما يستطيع
دائماً أن يغذيها وينميها بما يستمد من ركام النقل الذى يترام
بغثه وسمينه مع تتابع الأجيال !

وحضارتنا الحالية المعتمدة على تطبيقات علومنا
الوضعية إلى حد بعيد ، لا تعنى بأعمال الأسمى العادى
أو العبرى عنايتها الشديدة جداً بجانب أو آخر من جوانب
الطبيعة الكونية وأعماقها ، فنبشاً بذلك فيما يبدو خلل فى
توازن كل منا وضعف فينا الالتفات إلى داخلنا عن التفاتنا
واهتمامنا بخارجنا ، وهانت لدينا قيمة وأهمية أعماقنا
وضمائرنا إزاء انصرافنا واغترارنا بالحصول على المنزلة
والنفوذ والتأثير فى المحيط الخارجى برغم أن ذلك عرضى
وقتى دائماً يموت قبل أن نموت !!

إننا جميعاً وبغير استثناء ضحايا انبهارنا بعظمة وسعة
وتنوع وتفرع وطرافة وتجدد ما نشهده فعلاً ووهماً من
العالم الخارجى ، ولم نعد قادرين على الخلاص من تلك
الانبهار الذى ترحب به وتخدمه وتشجعه لغائنا بأفواج وأمواج
الأسماء والمسميات والمصطلحات وطرق التعبير والتصوير
التي لا أول لها ولا آخر !!

إننا أبد الدهر نحب ما نخترعه ونزعه ونحب حبنا له
وننتهى بتصديقه والتمسك به والدفاع عنه ، لأنه بات جانباً
لما فى ذاكرتنا وإن لم يكن مما نملكه فعلاً .. ومن هنا اختلط
فى ذاكرتنا ما تخيلناه وما اخترعناه وما عشقناه مما تصورناه
بما أداه أو اخترعه غيرنا !! .. فكل منا يحمل هذا الخليط على
درجات متفاوتة بحسب الأعمار والتربية والوسط وتقاليد
وظروفه .. ونادراً جداً أن تلقى إنساناً لم يكذب فى حياته
قط ، ومن يدعى أنه كذلك مغتر لا يصدق نفسه ولا يصدق
أحد !. إن معظم ليالينا ومجاملاتنا وحفواتنا واحترام بعضنا
لبعض وتحياتنا وتهاتينا ومواساتنا — خال من الشعور الصادق

.. ألزمتنا بها العادات الحصنة من أجل ما يسمى بحسن العلاقات وسلاستها ، وهذا نوع من السياسة والكياسة فقط .. فرضتها علينا مجتمعاتنا من قديم !! .. وفي كل لغة اهتمام خاص بهذا الباب ويتوفاير حاجياته ، لأن البشر — متحضرين أو غير متحضرين أغنياء أو فقراء متعلمين أو جهلاء — شديداً الحرص على الإقرار بالاعتبار لكل منهم على حسب ما يرى أنه جدير به في عين أمثاله ومن هم دونه أو فوقه !

فاللغة أداة خطيرة جداً مشتركة في كل البشر ، تلزم الحى في حياته ، وتتعبه بعد وفاته في آثاره ومسيرته وخلقه وقومه وأمه وجنسه .. وهى تعيش مع الأسمى كما يعيش الأسمى معها لا يفارقها نهائياً إلا فرداً فرداً وبالموت أو بالغيوبة !

وبقاء اللغة بعد اختفاء من يختفى من الأسميين ، هو من أهم وأخطر أنوارها في حياة المجتمعات ، لأنه يصون معظم تراث البشر في جعبة ألفاظها ورموزها وأصواتها وأسمائها وأفعالها وحروفها وتركيبها ومدلولاتها وعامها

ومجملها ونطقها وخاصها ومخصصها ومعرفتها ونكرتها !!
فالألمى يتحدث لغة الماضين فى سر وطلاقة للتعبير عن
معانيه ومشاعره وتعامله هو فى حياته وحياة أمثاله من
الأحياء ، ويحاول دون أن يشعر — فى كل مناسبة تمر به —
إبماج جديده الحى فى المسار القديم للغة التى يتكلمها ، فيظن
فى الأعم الأغلب أنه على طريق من سبقوه لا يتجاوزهم ..
وهو ظن تكذبه حياته بكل معالمها التى تخالف حياة من سبقوه
كما خالفت حياة أولئك حياة الذين سبقوهم !.. فإبماج الحى
فى ذلك للمسار القديم الذى ليس له إلا وجود اصطلاحى إزاء
ما اعترض مساره من إبماجات وتعديلات ، هو إمعان اعتدنا
عليه — فى عدم اليقظة وفى الاكتفاء بالقالب والاستغناء بالشكل
عن التنبه للجوهر والموضوع !

ولا يوجد فى أية لغة تعريف عام متفق عليه ،
لأن وعينا على سعته محدود بحدود قدراتنا اللغوية التى
وظيفتها الأساسية هى التوضيح من أجل الفهم والحفظ للبشريين

المخلوقين المحكومين على الدوام بقدرات البشر وما يطرأ
عليه وعليها من تغيرات وأحوال لا تنتهي ما استمرت الحياة !

صدق الاعتقاد ..

فيم يكون ؟!

قد يحسب البعض أن صدق الاعتقاد محض كلمة تقال ،
تشير إلى الاعتقاد في النظر أو الأفكار أو الأقوال أو المذاهب
أو النظريات ، إلا أن صدق الاعتقاد لا يكون حقيقة إلا في
السلوك .. السلوك هو المعيار الحقيقي لصدق الاعتقاد .. يكون
الإنسان صادق الاعتقاد حقيقة حين يسلك سلوكاً معيناً بإخلاص
مدفعاً إليه فقط باعتقاد معين يؤمن به أو يحترمه وليس
لمحض مصلحة شخصية تحركه أو تنفعه .. حين ذاك فقط
يكون الإنسان صادق الاعتقاد ويكون اعتقاده في هذه الحالة
اعتقاداً صادقاً لا محالة .. أما إذا كان مدفعاً بمصلحة
شخصية — يخالف فيها ما يستلزمه الاعتقاد الذي ينتسب إليه
— فإنه يكون لا محالة كاذباً في اعتقاده كذباً له !!

وهذا لا يمنع الأسمى من أن يتقلب عليه الإخلاص وعدم الإخلاص ، فيخلص فى سلوك ثم لا يخلص فى سلوك آخر ويعود وينتصر إخلاصه فى سلوك ثالث وهكذا ! وهذا هو حال معظم البشر فى معظم الظروف فى كل مكان وأوان .. فى السابق وفى اللاحق . فلا يتفق اعتناكهم لعقيدة بمعنى انتسابهم لها مع صدق وإخلاص ذلك حقيقة فى كل سلوك فعلى .. ذلك لأن الإخلاص واقع ، ولأن الانتساب إلى العقيدة وصف خارجى كلى عام ، يتم إما بالميلاد وإما بالإشهار .. يرجو المنتسب أو يرجى منه أن يصدق فى كل سلوك.. وهذا رجاء قد لا يتحقق فى بعض الظروف ، أو فى معظم الظروف ، ولا يخل عدم تحققه بإصرارنا على الانتساب للعقيدة ولا بتسليم الآخرين بانتسابنا لها — لأن ذلك الانتساب له فى ذاته وجود اجتماعى وفردى مستقل ، ويمثل جزءاً من قيمتنا فى الجماعة التى ندين بتلك العقيدة ، والتى نعتبر أنفسنا على الدوام وأياً كان سلوكنا من أعضائها .. فالمنتسبون إلى عقيدة معينة يعتبرون أنفسهم من أصحابها اجتماعياً وتاريخياً — بغض

النظر عن تحملهم أو عدم تحملهم لمسئوليتهم قبلها وشعورهم
أو عدم شعورهم بهذه المسؤولية !

وهذا إن كان يكفي لبقاء نوع من المكانة وقدر من
القيمة للعقيدة في عواطفنا المتعلقة بالكرامة الفردية والقومية ،
مثل مكانة الأسرة أو مكانة الوطن — فإنه لا يكفي لا لمنع هذه
المكانة من التقلص والضمور ، ولا لضمان نمو هذه المكانة
باستمرار كما تنمو العناصر الحية في واقعنا الذي نعيشه في
عصرنا .. هذا لأن العقيدة مهما أطربناها وغالينا في قيمتها
عندنا ، ليست على الإطلاق حياة قوية فاعلة في سلوكنا
اليومي .. إذ إنها مختزنة بحالتها القديمة منذ قرون اختزاننا
لا يسمح لنا بأن نفهمها فهماً معقولاً مسايراً لتطورنا في
زماننا ، أو يسمح لها بأن تبرز امتزاجاً تلقائياً ذاتياً
مع ما نعرفه ونعيشه ونحبه ونفضله من المعارف والعلوم
والفنون .. هذه الممارسات التي نزاولها فعلاً كل يوم مع
ما نعرفه ونعيشه في عالم لم يعد يطبق العزلة العقائدية

أو الفكرية أو القومية وصارت فيه كل أجزاء الأرض مفتوحة
أو تكاد لساائر الناس من جميع النحل والملل !

وحتى الآن لم تفقد الجماعات متحضرة أو غير متحضرة
نوبات التعصب للعقائدي . وهي نوبات مفاجئة يصعب تبريرها
بأسباب حقيقية ، لأن سببها حالات قلق تمر بها هذه الجماعة
أو تلك .. تجد المتنفس لقلق العامة في سهولة إثارة الفيرة
وإساءة الظنون بأن هناك مخاطر تهدد العقيدة من جانب أعداء
لها موهومين أو مزعومين ! . وهذه النوبات تجيء متقطعة قد
يفصل بين الواحدة والأخرى سنوات من السكون والانصراف
إلى شئون الحياة بجدها ولهوها وهامشية عقائدها !

وفي كل نوبة من نوبات التعصب العقائدي ، يتخذ
التعصب شكلاً من أشكال الاهتمام المسطحى المبالغ فيه
بتفاصيل العقيدة وطقوسها رجوعاً بها إلى الكتب القديمة
وما فيها من مسائل ومما كان يهم الأولين مع محاولة تقليدهم
في العبادات وبعض المظاهر الخارجية السطحية الشكلية دون
الجوهر الحقيقي للدين أو العقيدة .. ويمرور الوقت تبتهت هذه

المظاهر السطحية الشكلية الخارجية ويسخف المقلدون والمقلدات ، ويتضح للكل انعدام وجود الجذور الحية التى يمكنها العثور على التربة المهيأة لاستقبالها ولبعث حياة جديدة فى العقيدة وكفالة نمائها فى البيئة الحاضرة مسابقة لظروفها وأحوالها وأنواقها وإمكاناتها المعنوية والمادية والروحية .
الحقيقة !

ولا يكاد التعصب للعقائدى بين المسلمين يفترق فى طبيعته تلك عنه بين غير المسلمين من المسيحيين واليهود ، فهو يثور بين آونة وأخرى لدى هؤلاء ولأولاء — مع شدة القلق الاجتماعى ويأس العامة من علاج أوضاعها الراهنة واتجاه أنظارها إلى الماضى البعيد متوهمة أن حكم العقيدة كان سائدا فيه وحياة الناس كانت لذلك رخية .. ولأن هذا اليأس قد شمل النظم الدينية الرسمية فى البلاد المتحضرة إلى الحد الذى جعل الدولة تنفض يدها من أمرها ، فإن هذا اليأس قد عبر عن نفسه فى انشقاق المذاهب الدينية المنظمة إلى فرق عديدة

يتسع منها ما يتسع — ثم يأخذ في التقلص حين يتضح مع الوقت عجز وصفاته وعلاجه وخيبة آمال الأملين فيها !

هذا ويبدو أن آخر ما يبقى من الاعتقاد لدى الجماعات ، هو قدرته على توليد وإثارة التعصب لدى عامة الناس ..

فبرغم اعتيادهم على إهمال المعتد والاستخفاف به في حياتهم اليومية وتندر البعض منهم عليه وعلى طقوسه وعلى القائمين بخدمته ، فإن هؤلاء المستخفين حقيقة بالدين سرعان ما يتخفون لدى أى بادرة صورة مذهشة للتعصب وفى مبالغة تدعو للاستغراب ! ومن المفارقات التى تدعو إلى مزيد من الاستغراب ، أن التعصب — وهو يستقطب انفعالات ومدارك ووعى الأسمى — يستقطع من مساحة العقيدة ذاتها فى وجدانه ، حين يصرف الانفعال وأسقام التعصب عن الإيمان العميق الذى يتغلغل هادئا ثابتا يملأ حنايا الأسمى ويشده على الدوام — بلا تعصب ولا انفعال — إلى جوهر الهداية ونقاء الضمير

وكمال الإيمان !

المسلمون بين الماضي والحاضر !

لثمانية قرون أو أكثر أو أقل — ظل المسلمون ينظرون إلى غيرهم من علي من ناحية الحضارة ويعتبرونهم متخلفين بكثير .. ويبدو أن هذه النظرة التي كانت على نحو ما غير مبالغ فيها ، قد ترسبت في أعماق المسلمين فلم يشغلوا أنفسهم قط بتتبع أحوال البلاد غير الإسلامية وتطورها .. ورسخ في أذهانهم بقاء واستمرار صورة التخلف التي كانت عليها تلك البلاد وفي تلك القرون الخالية .. ومثل هذا حادث الآن في أوروبا وأمريكا .. فلا يهتم الأوروبيون والأمريكيون اليوم بتتبع أحوال البلاد الإسلامية وتطورها ، لأنهم رسخ في أذهانهم صورة عن المسلمين وتخلفهم عمرها ثلاثة أو أربعة قرون — صرفتهم عن أن يجنوا عند المسلمين معرفة ما ينتفعون بها أو قنأ تفيد منه فنونهم . الغرب عموماً بات ينظر إلينا من علي ، وذلك أمر يغيظنا ويضنينا ويفجر لواعجنا على ما بتنا عليه !! .. وهنا فارق هام لم يلتفت إليه أحد ، هو أن غير المسلمين الآن ، ومنذ عدة قرون لديهم شوق إلى المعرفة

أشد ، وإصرار على التطوير أقوى ، وجرأة أمضى على
المناقصة الحرة فى الحياة الواقعية على هذه الأرض !! .. هذا
الفارق بين هذه القوى التى انطلقت ، وقوانا التى تعطلت
أو خمدت أو كانت ، يرجع إلى عوامل عديدة لم يعد مقبولا أن
نقعد عن استجلاء أسبابها واستمراف كيفية الخروج من هذه
مآلحن فيه بسببها !

نحن ، والذات .. والحياة !

حياتنا إذا تأملناها بشيء من الهدوء والصبر والفهم فى
أية مرحلة من مراحلها أطفالاً وصبياناً ومراهقين وشباناً
ورجالاً وكهولاً وشيوخاً ، وجنناها حبات كحبات المسبحة ..
كل منها منفصلة عن أختها .. يربط بعضها ببعض خيط
متصل من لحظة مولدنا إلى لحظة فقدان الوعى عند الموت !
.. هذا الخيط الذى يجمع بقوة تلك الحبات ، هو شعور كل منا
الدائم بذاته ، وأنها هى هى فى كل حال وظرف وصحوة ونوم
وفى كل زمان ومكان .. لا يفصل أحد منا قط عن الشعور
بهذه الذات .. صالحنا وطالحنا ، عارفنا وجاهلنا ، صغيرنا
وكبيرنا ، متحضرنا وهمجينا .. ذات كل منا تحمل وحدها
بغير شريك كل ما لقيه صاحبها من تبعات حبات ممسحة الحياة
التي يجمعها ذلك الخيط الشعورى الذى بدوره لا يمكن أن توجد
فردية كل فرد ومعها شخصيته .. حول هذا الحبل تنمو فردية
كل منا يمينا أو شمالاً ، أو تجمع بين اليمين والشمال ،

ثم تنوى لكى تختفى من ذلك الوجود الفردى الشخصى ،
كاختفاء حبات المطر فى البحر أو الأرض أو الجو فى عين
من يراقبها حال انفراطها من السحابة التى كانت تنماسك
فيها !!

ويبدو أن خيط الذات لدى كل منا تلفت حوله استعداداتنا
ووعينا وإدراكنا وعواطفنا وميولنا ، لتساير وتشاهد بصورة
أو بأخرى نمونا ونضجنا ونبولنا كما هو مكتوب لنا ..نحن
لا ننتبه إلى أى من تلك الأمور إلا بقدر ما نشعر به منذ
لحظة ذلك الشعور .. فليس فى وسع أى آدمى الإحاطة مقملاً
بكل نصيبه من جملة الاستعدادات والمواهب المزود بها .. وقد
يعيش ويموت دون أن يفتن إلى وجود ما لديه من هذه
أو تلك !.. ذلك أن وعينا وشعورنا بالذات جزئى فقط ..
وسيقى إلى ما شاء الله جزئياً مهما تنبه وتقدم وتطور إدراك
الآدمى وفهمه لتكويناته وتركيباته الداخلية والخارجية ككائن
حى .. وستبقى هذه فى معظمها غامضة إلى ما شاء الله ، على
إدراك الآدمى وفهمه الكاملين !.

هذا الغموض يبدو كغموض الحياة نفسها التى لا يعلم
أستارها وأسرارها كافة إلا خالقها .. ومهما فهمنا وعلمنا
واتسع ميدان فهمنا وعلمنا - فهو دائماً ميدان مخلوقات ذكية ،
مهما اتسع نكاؤها فإن له غاية ونهاية .. وميزتنا أننا لا نعرف
ولا يمكننا أن نعرف تلك الغاية والنهاية .. لأن وعينا أو فهمنا
لا يمكن أن يتوقف أو يشبع ما حيننا . فلم يولد آدمى قط
إلا ضئيلاً أبكم عاجزاً محتاجاً لشهور ولسنوات ينمو خلالها
وعيه وعقله بقدر ما تسمح فطرته ويقدر ما يمكنه محيطه
وتتيح له الجماعة التى هو ضمنها .. فميلاد كل منا هو آية
نقصه الدائم المترتب على أنه وجد من عدم ليبقى لأجل
لا يعرفه بل ومن المحال أن يعرفه !

وما تراه عقولنا بديهياً غير قابل للمنازعة ولا يحتاج
لبرهان ، هو بقضه وقضيضه تقدير بشرى وليس ناموساً كونياً
صحيحاً فى كل زمان ومكان .. هو تقدير رجته عقولنا فى
إطار قدراتها الدائمة التغير القابلة للامتصاص والاكتمال والتقدم
والتأخر إيان ما كتب لجنتنا من وجود فى العالم الذى

لا يتعدى وجودنا ودورنا فيه وجود ودور حدث من أحداثه
مهما ضخمتة عقولنا أو أوهامنا !

على أننا يجب أن نحس دائماً بأهميتنا في الكون .. هذا
الإحساس ضرورى لتستمر ثقنتنا فى أنفسنا - لا غروراً
أو تيهاً - وإنما لنستطيع بهذه الثقة فى قدرتنا أن نسمى ونحقق
النجاح المستمر .. وهذا يستلزم أن نزيد باطراد فهمنا وفطنتنا
وجتنا ، وهو نجاح لجنسنا يرحب به العالم ليسانده فى ازدهار
بقائه وترقيه !

نوايا البشر ومقاصدهم تختلف بداياتها عن نهاياتها من
حيث النتائج والآثار بالنسبة لعموم الناس ، وكثيراً ما تبدو
النتائج والآثار فى أول أمرها انتقلاً وثأراً وتكميلاً وتخريباً
وإفناءً ، ثم تصبح مع تغير النوايا والمقاصد بشائر ووسائل
خير عميم على سواد الناس لأنها أحدثت تطورات هامة جداً
علمية وصناعية وزراعية وطبية وفنية وحضارية غيرت
مستويات الحياة فى عالم البشر .. ما ينفع عموم الناس يبقى
مع الزمن ويغطى نفعه الحاضر والمستقبل ، ويطمس

على ما مضى وانقضى من بدايات المسوء والشر إلا بقايا
متخلفة هنا وهناك تهيج من وقت لآخر وتعكر أمن الكثرة ،
ويبدو أن هذا لا مفر منه فى جنسنا !

والحياة بعمامة فى الأنمييين وغيرهم من الأحياء ، انتقال
وحركة وتطور مستمر من بسيط يتدرج فيصير مركباً ، ثم من
مركب إلى متعدد ومن تطور نحو النماء والزيادة .. ثم ينقلب
إلى نقص وذبول وفناء فى الزمن القابل وفى دورات وحقب
تشابهه دون أن تتكرر فعلاً فى أفرادها ومجاميعها .. هذا
التشابه ينطوى دائماً على تغيرات حدثت لا تتركها النظرة
المعتادة إلى أن تتراكم هذه التغيرات فيتضح منها اختلاف
الأجيال لدى أهلها وغير أهلها ، وهى اختلافات تبدو فى
الأجسام والملامح والنشاط والتفكير والعادات والمشارب
والآمال والمخاوف !

واختلاف أجيال البشر قد يضيق بسبب العزلة وقسوة
الظروف وشظف العيش ، وقد يتمتع مع تيسر الاختلاط ويسر
الاتصال ومواتاة الظروف والفرص والأسباب التى تفتح أبواب

الكسب والأمل والحركة والتنقل . وهذه وتلك وإن كانت أسباباً
لذلك الاختلاف الواضح ، إلا أنها حوافز قد تحفز المحتاجين
إذا فطنوا إلى احتياجهم وعرفوا سوء حالهم في بؤسهم واقتنعوا
بضرورة تخلصهم منه وسعوا جادين إلى تحقيق هذا الخلاص
.. وقد نرى كل يوم أمثلة تترك — باجتهادها ومثابرتها —
دوائر وقرايات فقرها المتوارث الذي عاشت فيه مع تخلفها
وبدايتها . لأن نقل المجاميع من التأخر إلى التقدم والتحضر
في زمن قصير — شيء شاق جداً لا ينهض به الأفراد عادة
حتى لو أثروا وارثقوا وخلوا من الأثنية !

والأكميون في كل زمان ليسوا وحدات حية متجانسة
ملساء حريصة على تجانسها وملاستها ، وإنما هم دائماً
تضاريس فيها اللاتئ وغير اللاتئ ، وفيها المقلد المستزم
بالمحاكاة والمتابعة أو الواقف عند ما عرفه من غيره وما
عرفه غيره منه . وإلى هذا ربما ترجع قابليتهم لدوام التقلب
والتغير ولكثرة تنقل وتوارد الخواطر والأفكار والمواقف بغير
موجب معقول تحتفظ به الذاكرة وتستدعيه إن احتاج الأمر .

ومن هذا الباب تتوافد وتتزاحم فى رؤوسنا آلاف الآلاف من
الظنون والهواجس والمخاوف وآلاف الآلاف من الأطماع
والاستهزاءات والملاذ مما لا حصر له من الريب والشكوك
والمبادرات إلى الشائعات والقالة والاثهومات بلا مسند .. لقد
ألفنا من أول الدهر الرضاء بالغرق والإغراق فى ذلك البحر
الدائم الاضطراب الذى لا يعرف له قاع ولا حدود ولا يسلم منه
أنى حتى !!

وقد اعتدنا ألا نراقب أنفسنا لنعرف كيف نعى ونفكر ..
فنحن فى واقع الأمر لا نعى ولا نفكر باستمرار ، ولا نعى
ونفكر طول الوقت باطراد وتعملل إذا وعينا وفكرنا .. وفى
الغالب لا نعى ونفكر بنية للتأمل إصراراً على الفهم والتحقق
.. فوعينا فى ذاته هوائى ينتقل من موضوع إلى موضوع آخر
ومن مقصود إلى مقصود مختلف تماماً بلا نظام أو تنظيم ، بل
بلا تفكير أو تعقل .. وليس منا على الإطلاق من يلتزم
أو يحاول أن يلتزم فى يقظته بالسيطرة على وعيه وتفكيره

أو حتى بأن ينظم كيفية استعماله لوعيه وتفكيره تنظيمًا عقائريًا
دائمًا في كل الأمور والأغراض !

في حياتنا الواعية والفكرية ما حيننا — دائما ما تتداخل
المصادفة ويتداخل القصد والهوى والتعقل والآلية والانتباه
وشيء من الاندفاع والحق وشيء من البصيرة والفطنة ،
ولا ينتظر منا الآن أو في أى وقت أن نكون خلاف ذلك ..
لأننا بتنا من الكثرة الهائلة جداً في العدد والعادات والمشارب
وربما في التكوينات ، بحيث يستحيل علينا تعديل أنفسنا
بالمسرة التي نطمح فيها أو نتصور تحقيقها في أى اتجاه .

إنما الذى يتغير بسرعة وبسرعة فائقة كلما تقدمت
البشرية ، هو الآراء والنظرات والقضايا والخطوط
والمشروعات والحركات ولادة الانفعالات فى الدعوات
والدعايات التى تتداولها المؤتمرات والمجالس والندوات
وتروجها إيجاباً وسلباً للصحف والإذاعات !

ثم نحن لا نعرف بالضبط ما نعنيه بعبارة الرأى العلام
ولا ما نسميه الجمهور ولا ما نقصده بكلمة الشعب أو الأمة ..
وهذه تكاد تكون بدهيات ترددها الألسنة والأقلام فى كل مكان
ولا يتردد أحد فى استعمالها والإحالة عليها بلا استئذان
أو تحرج بفضل عمومها القبيد وغموضها الذى لا حدود له
تحده وتتيح جلاءه وتقنيده لمن يريد أن يواجهه بعناية وفطنة !



المتأمل فى الحياة والناس قد يهول له أن يجد نقائص
الأميين أكثر بكثير جداً من فضائلهم ، وأنهم يدأبون على
إسكات هذا التقابل المهيمن ، بقدرتهم على الانتفاع بالاعتقاد
الذى ينسبهم معظم الوقت مهانة تلك المقارنة مما يشجعهم
أحياناً على استمرار النقص بل وعلى الغلو فيه عمداً وقصداً !!
على أن ما لدينا من نقائص وفضائل تظهر لنا
أو لا تظهر ، أصلها هو وعينا بالفروق التى يميزنا إحصائياً
ووعينا بها .. وهذا هو سر فردية كل منا .. فنحن مهما
اجتمعنا أو تفرقنا ، وتواصلنا وتقاربنا ، أو انفصلنا

وتباعداً — أفراد نولد أفراداً ونموت حين نموت أفراداً ..
مختلفون قد نتشابه تشابهاً قوياً أو ضعيفاً من جانب
أو أكثر ، ولكننا لا نتطابق قط ، لأن التطابق التام يذهب بوعى
وفردية كل منا !

والتشابه القابل للاستمرار هو الذى يكون الأسرة والقبيلة
والجماعة والأمة والبشرية ، التشابه وليس التطابق هو الذى
يشكل هذا كله لأنه يتيح دائماً فرصاً للاختلاف وانتظار
المتغيرات والفروق فى الأحوال والأغراض والمشارب
والعادات ، وهو ما يتيح فرصاً لا حصر لها إما للتقدم والتطور
وإما للتأخر والركود والجمود .

وقدرة الأسمى — متطوراً كان أو متأخراً — على
التصور والوعى الذى يقتضيه التصور ، هى استعدادة للانتقاط
وإدراك أوجه المتشابهة أو الاختلاف فيما يجرى داخله الذى
يشعر به ، أو خارجه الذى يؤثر فيه كأننا ما يكون !

نحن جميعاً نأخذ معظم الأشياء على التقريب ..
وتصورنا لأمر ما أو لشيء ما هو دائماً لا يتجاوز تقريب ذلك
الأمر أو ذلك الشيء إلى وعينا وذاكرتنا على نحو ما .
فلا يتجاوز وعينا في تصوّره صورة ما وعاه ولا ينفذ إلى
واقعه في ذاته أبداً ، وغالباً ما يكتفيه ذلك لكي يعيش حياته
راضياً بها . فتقنمنا أو تأخرنا من حيث التطور والقدرة عليه
ليس إلا نوعاً من القياس أو من الوزن لنجاحنا أو فشلنا في
حياتنا كبشر ، وفي موازيننا نحن فقط .. ولذلك عرف الأسمى
من قديم حاجته الشديدة إلى الاعتقاد والإيمان .. وهو يعرف
ضرورتها لحياته .. ولكنه لا يعرف حقيقتها ولا يمكنه أن
يعرفها ! .. ما يعرفه أن الاعتقاد والإيمان يكفلان له الطمأنينة
والأمان والنجاة من اللقلق والتمرد والثورة واليأس والشعور
الممعن المهلك باستحالة وجود حياة ممكنة لكائن واع عاجز
ضئيل في هذا الكون الهائل المروع الذي يحيط به من كل
داخله وخارجه معاً .

وقد فشلت الشبوعية تماماً فى اقتلاع الاعتقاد والإيمان — من قلوب الكبار والصغار حكماً ومحكومين ومتعلمين وغير متعلمين وأغنياء وفقراء .. أما أولئك الذين يتكبرون للاعتقاد والإيمان فما زالوا قلة قليلة جداً حتى فى البلاد التى سيطرت عليها الشبوعية سبعين عاماً .. ما يشاهد الآن فى أماكن عديدة من ضعف سلطان ونفوذ رجال الدين على الناس ، هو رد فعل لإحساس الناس للواضح القوى بعجز هؤلاء عن التطور وقصورهم الشديد فى ملاقات وخطاب القلوب والعقول بما يناسب تطورها .. واحتياج الناس إلى المدد الروحى نلمسه فى ترددهم الألى على دور العبادة يترجمون بذلك عن حالة المحتاج الذى لم يجد بعد ما يشبع حاجات روحه .. هذه الرغبة فى الإشباع الروحى نلمسها أيضاً فى تردد الناس لصيغ الاعتقاد والإيمان إحراباً نفسياً عن إلحاح هذه الحاجات الروحىة التى لم تجد بعد ما يشبعها فعلاً !

ويبدو أن الأسمى يشعر شعوراً غامضاً قوياً بحاجاته
الروحية ، لكنه لا يعقل هذه الحاجات إلا من خلال أنشطة
حياته الدنيوية وتعقله لهذه الأنشطة .. وهو حين يبتعد كلياً
عن أنشطته الدنيوية يفقد اتصاله الحقيقي بحاجاته الروحية
ولا يحملها عنده إلا خياله وحده واصطلاحاته ، وربما كان
هذا هو موقفنا جميعاً من الحاجات الروحية !

وحاجتنا الروحية جزء أساسي من حاجتنا البشرية ..
وهذا الجزء هو الذى يبنى حياتنا الروحية ، ونحن مطالبون
بتبنى تلك الحياة الروحية وترقيتها وتطويرها مع تنمية وترقية
وتطوير حياتنا البشرية الدنيوية باستمرار وإصرار ما حينئذ ..
هذا الترقى الروحى هو ضمان تنمية وترقى وتطور حياتنا
البشرية بعمامة !

ويبدو أن رسالات الأنبياء صلوات الله عليهم —
وكلها مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحاجتنا وبنجاح حياتنا البشرية —
هى هدايات وانطلاقات يسلكها ويحصها ويتمسك بالمسير فيها
الأنميون آمنين مؤمنين فى طريق الحياة المكتوبة لهم ..

هذا الطريق المتجه — بدايةً وأصلاً — إلى النمو والترقى والتطور إلى حدود لا يعرفها البشر ، ولا يمكنهم ما بقوا أن يعرفوها .

فتجميد الحاجات والحياة الروحية في قواها الحالية أو الماضية على نحو ثابت لا يتحرك ، ربما كانت في مداومة ومعاودة ضارة غير ناقعة وغير مؤدية بالضرورة للمفارقة والتباعد بين حقيقة احتياجاتنا الروحية وبين الأشكال والقوالب التي نحاول بها إشباع هذه الاحتياجات ولا ننجح ! إذ يستحيل علينا أن يطابق سلوكنا سلوك آبائنا ، وكل ما نستطيعه هو المشابهة المعقولة المعنى والمناسبة .. وهذه المشابهة المعقولة والمناسبة لا يمكن أن توجد حقيقة في أى أسمى إلا عامة .. لأن حياة كل منا تتغير حتماً في تفاصيلها من حال إلى حال ، ومن عمر إلى عمر ومن فهم إلى فهم !

هذه المشابهة تقليد إما إرادى أو لا إرادى .. وهو على درجات لا آخر لها من الصدق في النية والعزيمة ومن الإثقان والدقة في الاستيعاب بالنسبة لموضوع التقليد ! فالمشابهة

ليست إلا وضعاً عاماً جداً يجمع تحته ما لا حد له ولا عدد من
الفروق والتباينات والاختلافات ، كما أن وعينا الذى نعى به
نواتنا ونذكر ونفهم ونجد ونلعب . هذا الوعى ملء بالشقوق
والثغرات التى ينفذ فيها باستمرار آلاف من رسائل العقل
الباطن الذى لا سلطان مباشر لنا عليه .. هذه الرسائل
تعرض سير التعقل بالخواطر المفاجئة التى تأخذ مواقعها على
سطح الوعى وتأخذ حظها من إرائتنا وملوكنا وتصوراتنا !

فلم وإن يستقيم طريق وعينا استقامة تامة ، إنما يزداد
استقامة وثباتاً ، ما ازدنا تقدماً وتطوراً والتفتت بعناد
وإصرار إلى التزامها .. ذلك أن استقامة وعى الأسمى ليست
إلا فطنته ونضجه وحكمته التى يسيطر بها على نوازعه
ودوافعه وانفعالاته وانفعالاته العصبية عادة على الانضباط لدى
معظمنا .. هذه الفطنة هى التى تعطى القيمة والمنزلة لخبراتنا
وتجاربنا وحظنا من المعارف والعلوم والفنون فى كل عصر
.. وبغير هذه الاستقامة يكون كل ذلك أقرب إلى العبث
والمجازفة والتهور والتطرف والحق ، وإن أغرقتنا نتائج

بداياته بروعتها وبريقها أحياناً سيما بالاهتدار المعجب على
التصرف والتغيير والاستحداث فى الماديات واستعمالها
والانتفاع بها إلى حد المغالاة التى تصرف التفاتنا كله إليها
لننسى أن لنا وعياً يجب علينا أن نحرص أشد الحرص على
استقامته ، لكى يستقيم أمرنا حاضراً ومستقبلاً ونعبر كأئناس
متحضرين بأمان الأزمات التى تتكرر بغير انقطاع مواجهتنا
لها هنا وهناك من أن إلى آخر فى حضارتنا اليوم والغد مع
اتساعها وتعقدها وصعوبة ضبطها بأى صورة على أى حكومة
منفردة مهما تكن إمكانات وموارد أى بلد !

فقد احتاجت البشرية الآن أشد الاحتياج إلى القدرات
الدولية المشتركة ذات الإدراك الواسع المتبصر العارف
الواعى — لمواجهة أزمات هذه الحضارة المليئة بالأزمات
والمشاكل ملاعتها بفرص المزيد من الترقى والتطور التى
لم يسبق لها من قبل نظير ، ولاقتناعاً الآن بعجز إمكانات
أى بلد — مهما كانت موارده وقدراته — عن أن يواجه منفرداً
مشاكل عالمنا .. فقد بدأنا نخطو بخطوات فيها الكثير من

التردد والتوجس في ذلك الطريق المشترك يدفعنا إليه الخوف
من الغد ويعوقنا الماضي بآلامه وأحلامه !

وحياتنا في هذه الدنيا ، هي مما لا يمكن أن يعي وعينا
سرّها وأصلها ، ملحوظ في وجودها قدرتها على تمويل العالم
الخارجي لها بما يلزم لبقائها .. داخل كيان كل منا البدنى
والنفسى مركب مجهز معد لتلقى ذلك التمويل المستمر ، ما دام
الكيان البدنى والكيان النفسى قادرين على أداء ذلك التلقى
والانتفاع بما يلزمهما منه وطرد ما ينبغي طرده وعلى تجديد
خبرة نيك الكيانيين باستمرار طوال العمر المكتوب للحى ..
حياة كل منا معتمدة من هذه الزاوية اعتماداً كلياً على أجهزة
ووظائف فينا لا عمل لها إلا فى دنيا مسوقة جميعاً - كما
نشاهد - بشيء آخر لا نعرفه حتى الآن .. ويبدو لذلك لنا أنه
غير دنيوى .. وهو فى نظرنا سر الحياة .. ويسميه الأسميون
من أقدم القدم بالروح .. حينما توجد الروح يكون الكائن كائناً
حياً ، فإذا فارقه يموت ولا تلبث أجهزته ووظائفه حتى تتوقف
ثم تموت هي الأخرى . ربما كان هذا هو السر الذى يبدو لنا

عاماً فى أفراد الأحياء جميعاً إنساً وحيواناً ونباتاً ، لكنه موزع
توزيعاً شديداً الاختلاف والمغايرة .. وهو الذى يفرق بين أنواع
تلك الأحياء ويبين أفراد كل نوع منها . وهذا السر هو الذى
فيما يبدو قد نبه الأسميين من قديم إلى إمكان بقاء الحياة بعد
هلاك الأجساد وإمكان بقاء أفراد الأناس كأناس بعد الموت فى
عالم آخر لا يحتاج إلى مطالب نفيوية مما اعتاده الأسمى فى
دنياه المشغول على الدوام باحتياجاته فيها !

• • •

عالمنا لا يكف عن إنتاج الحياة .. حتى الموت يفضى
فيه إلى حياة .. والأحياء فى عالمنا تنتج أحياء مثلها بطرق
مختلفة ، كما تنتج أشياء أخرى حية وغير حية .. ولكنها
لا تنشئ نفسها أو تخلق تلك الأشياء خلقاً من العدم .. لا يعنى
هذه الحقيقة من الأحياء إلا الأسميون دون غير الأحياء مما يملأ
الكون من قوى وطاقات وظواهر وأشياء مما يجرى ويمسرى
وينوب ويرسب ويتحد ويتفاعل ويتصل وينفصل ويتراكم
ويتحلل وينجذب ويتنافر ويشتمل ويخبر ويضئ ويقيم ويتوهج

ويتبدد . عرف ذلك الأعميون ويزدادون له معرفة وبه قدرة
على الانتفاع أو الإيذاء إلى أن يغلب عقلهم على حقيقتهم تماماً
فيرحب العالم بسلامهم أو يتغلب ولعهم بالإيذاء على عقولهم
فيهلك الجنس البشرى وينفض الكون يده منهم جميعاً !!

ومعرفتنا بذلك — أكيدة أو غير أكيدة — كلها غير
قطعية كونياً ، لأنها معرفة بشرية فقط ، أقرها عقلنا
البشرى وخبرتنا البشرية للذات لا يمكن أن نتجاوزهما حين
نريد أن نعرف .. لأن ما وراء ذلك يدخل حتماً فى منطقة
الاعتقاد وعدم الاعتقاد والإيمان وعدم الإيمان .. وهذه المنطقة
منطقة أساسية فى تكوين الأعميين لا غنى عنها لتوازنهم
وتعلقهم بالحياة ، وهذان الأمران الضروريان لا يكتفى لهما
التعقل والخبرة ، وهذا قد يشير إلى ضلالة شأننا فى الكون
نحن وما معنا من معارف وحقائق !

ونحن وفى مطالع قرنا هذا قد استبعدنا الكثير من
اعتقاداتنا القديمة ، وعزلنا الكثير منها وتعلقنا بالاعتقادات
الجديدة أو المعنوية .. وهذه وتلك عند التأمل فيها قد يكون

حفظها غير واضح فى عين التعقل والتجربة . وربما كان ذلك
بطلاوة الجدة أو التعديل وانتشارهما بالمحاكاة ثم بالتوارث فى
الأعم الأغلب .. وهما الطريقتان الرئيسيتان لتحويل المجاميع ،
وفيهما الكثير من المصادفة والحظ الذى لاندخل فيه للانتقاء فى
تغليب الرأى والنظر .. فحياة الأنبيين النبوية دائماً شبكات
بالغة التعقيد والتراكب والتضافر من خيوط مختلفة ليس لها
أول ولا آخر ، تبدأ بالحمل لتنتهى بالموت ، وهى أهم وأعم
من ذات أى آدمى ووعيه وعقله وعواطفه وآماله وأطماعه
وآلامه ومخاوفه وتقدمه وتطوره وتخلفه وتأخره ، إذ هذه
المسميات جميعاً لا توجد ولا تعمل إلا داخل حياتنا النبوية
وبسببها وكعوارض وظواهر وآثار ونواتج لها تـزول حتماً
بـزوالها .. ولكننا قاطبة لا نلتفت فى أغلب أحوالنا وأوقاتنا
ولا نهتم ولا نحسب حساباً صغيراً أو خطيراً إلا لهذا وذاك من
تلك المسميات وآثاره ونواتجه !

وقد استند التفاتنا الكلى لتلك الجزئيات الوقتية المختلفة المتعارضة فى أحيان كثيرة — استند إيماننا واحتفالنا وتقديرنا وتقديسنا للحياة ككل ما منحنا إياه أو تمكنا على نحو ما من توجيهه والتصرف فيه ، مع أنه فى نظرنا لا نظير له على هذه الأرض ولا فى أى كوكب آخر أو نجم أو جرم من أجرام الكون العظيم .

وهذه الحياة التى هى الأصل الأولى الجوهرى لوجود كل آدمى كان ويكون وسيكون ، ولكل ما معه وما فيه — هى القيمة الكبرى لكل قيم البشر مجتمعة .. ونسيان الأسمى لها إهدار وإسقاط لمعنى كل قيمة أخرى فرعية مما قد تشغل بال وحرص وحساب وإهتمام وعناية الأमीين . إذ لا قيمة لأى من تلك القيم الفرعية يمكن أن تتحقق وتبقى وتدوم ، إلا إذا كانت مصحوبة بوعى كامل وإيمان بقيمة الحياة بعامه ، وهذه لا يمكن أن يمد مسدها ما اعتاد البشر عليه من تفضيل قيمة الذات — أى ذات أو كل ذات — على قيمة حياة البشر الآخرين منفردين ومجتمعين .. ذلك التفضيل الذى عاق ويعوق

وسيعوق — إذا بقى على حاله — استتارة وتقدم وتطور أخلاق جماعات البشر .. فهذه الأخلاق قد حكمها ويحكمها وربما سيحكمها نفس المقاييس والأعراف والتعاليم الماضية غير المتجانسة أو الملائمة للحاضر الاجتماعى ، الأمر الذى ترتب عليه تفكك المجتمعات وانتشار ما يسميه أهل الأديان اليوم بالمنكرات والمحرمات والبدع التى شاعت نتيجة قلة الفهم وخطأ القصد وعدم أو نقص التفطن إلى ضرورة الوعى الكامل لقيمة هذه الحياة ذاتها والإيمان التام بهذه القيمة الأولية الأساسية !

وإلى أن تصل الإنسانية إلى هذا الوعى الكامل ، مستظل غالبيتنا عبيد الأنانية والشقاق والدهاء والحسد والحقد والتشيع والتعصب والاستتارة ! .. لأن معظمنا حتى الآن ينظر إلى الحياة على هذه الأرض — نظرتة إلى الفرص أو الغنائم التى يحق لكل آدمى أن يأخذ أو يهتبل منها ما استطاع نصيبه وحظه دون مبالاة أو حساب للآخرين !

وخالق الحياة — عز وجل — هو فى يقيننا خالق الكون
بما فيه ومن فيه ، وعند هذه النقطة يجب أن يقف وعينا وفهمنا
عن عملهما الدنيوى البشرى ، وتكفينا محاولات الوصول إلى
أقصى ما يمكننا من المعرفة البشرية بشأن ما فى داخل كل منا
وكل ما حولنا فى كل جيل .. وهذا دائماً قابل للزيادة والتقدم
فى إطار نمائية المعرفة البشرية التى لا تخلو قط من النقص
ولا تصل قط إلى الكمال المطلق .. علماً بأن مواهب
واستعدادات الأنمى مرتبط بعضها ببعض بصور لا أول لها
ولا آخر ، ولا يمكن فصل هذا الارتباط على الإطلاق فى
حياتنا كأحياء فى هذا العالم ، كما أنه من المحال فيما يبدو
اختصار هذه المواهب والاستعدادات أو الاختصار النهائى على
بعضها حتى وإن يكن فى المقنور تقوية البعض والزيادة فى
دوره وأهميته وإضعاف البعض الآخر وإهماله دون القضاء
عليه تماماً !

وليس من الرشد أن نعتبر إدراكنا لهذا الواقع عيباً فى
خلقتنا ، فهو على أية حال تقطن وتقدم فى الفهم وتخلص من
الغرور والوهم . وربما كان انتشار الغرور والوهم لدى أغلبية
البشر حتى الآن من أسباب ريبتهم فى مقررات ونواتج العلوم
الطبيعية الحالية كالطبيعة والكيمياء وفروع كل منهما وتشككهم
فيها فى نفس الوقت الذى تشككوا فيه فى الأديان ، لأنهم لم
يتعودوا بعد على محاولة رؤية الكون فى أقرب الصور التى
صورها خالقه له ، والتى يمكن لعقل الآسمى العاقل أن يعيها
وفيهما بفطنة وترحيب بعد عشرات الأجيال من نزول
الأديان !

لقد أسكنت ضمائر الناس وأذهلتها وغطت على عيونهم
كثرة كائنة من الأسماء الجديدة التى تتوالى بلا انقطاع وتملأ
ما حولهم بالجديد والمجيب وتثير أشواقهم وأخيلتهم وأفكارهم
فلا تترك مسافة لتأمل عقل أو لتقطن فطنة ! ولكن ربما
يجىء وقت تظهر فيه معالم التشبع وضيق الصدر وملال
الاعتقاد فيعود لغالبية الناس شوقهم إلى الفهم لا إلى التقليد

والمحاكاة ، ويحسون بالضيق الخائق بما حولهم من مائع
ووسائل ومصنوعات وأبراج تحول بينهم وبين التطلع المتأني
لداخلهم وأعماقهم والنظرة المليئة بالمعرفة والثوق إلى الكون
الواسع العظيم ، فيتذكرون خالقهم بشغف جاد وفاهم وصائق
صدقاً عميقاً لا يوهنه الوهم الشائع حتى الآن من لزوم التركيز
على الذات بمقولة إنها بداية الحياة البشرية ونهايتها بل وبداية
الوجود ونهايته بالنسبة للأحيين . ذلك لأن محبة الغير -
أقربين وغير أقربين - ضرورية وأساسية لوجود الجنس
والجماعة والعائلة ولبقاء ذلك ولنموه وترقيه وتطوره .. لولاه
لم تكن لتوجد الأسرة ولا القبيلة ولا البطن ولا الشعب
ولا الأمة ولا النوع الإنساني كله !

وأناثية أطفالنا وصغارنا خطوة أولى فقط على الدرجات
التي تتضح بها خلال العمر المحبة الغيرية التي رسمها
ورعاها الخالق عز وجل . وبقاء الأناثية في الأسمى - بعد
تلك الخطوة الأولى - قصور أو عجز أو آفة ، إذا فشا في
البالغين والبالغات تعرضت الجماعات البشرية للمخاطر

والمهالك ! فلم يحفظ جنسنا من الضياع أو يصونه من الفناء
حتى الآن إلاّ تغلب المحبة الغيرية على سيادة الأنانية
وتسلطها .. وهما سيادة وتسلط وقتيان مؤقتان بآمد بقاء
السيادة والتسلط !

وشر ما تبثلى به محبة الغير — عدم المبالاة والإهمال
وسوء الاختيار والسطحية والانتفاع . وهى نقائص شائعة
تستغلها أنانية الأنانيين وأطماعهم على نحو يتكرر بتكرار تلك
النقائص كثيراً أو قليلاً حسب ظروف الجماعة وحظها من
ضبط النفس والرشاد . وهذه كلها احتمالات متداخلة سلبية
 وإيجابية سلطاننا عليها كأفراد نسبى ، وإنما نعيشها على نحو
ما عاشها من سبقونا من البشر بكثير أو قليل من الفروق
والتغيرات تبعاً لزماننا وترقيتنا أو تخلفنا .. وفى هذا الإطار
النسبى أمكننا أن نعرف ونفهم على درجات شديدة التفاوت ما
لدينا الآن من المعرفة والعلم ، وقد يمكننا مستقبلاً أن نبلغ
المزيد من ذلك فى وقت أقصر إذا كتب لجنسنا الاستمرار فى
الترقى . وبرغم ما لوث حضارتنا الحالية من معائب ومصائب

وخطوب وحروب وفتن وثورات وضبائقات وأزمات — فليس
من شك في أننا أكثر فطنة وبقظة وفهما ومعرفة وشعوراً
بالإنسانية وقيمة الإنسان من أهل الحضارات الماضية جميعاً
باستثناء أفراد القديسين والأفذاذ والنوابغ الذين بزغوا كالنجوم
في عتامات وجهالات تلك العصور الماضية !

* * *

كل منا يأخذ خلال حياته — أحياناً أو كثيراً —
بأفضليات أو أساسيات يسندها إلى أصل ما من عقائد أو من
مبادئ عامة يراها واجبة أو لائقة ، لكنها غالباً من صنعه ومن
بنات ميوله هو ، صورتها له عاداته وأفكاره وتقديراته
ومشاربه وقدراته هو على وعى وفهم ما يجري في بيئته
وزمنه .. ولأننا لا نعيش منعزلين ، فإن تلك الأفضليات
والأساسيات تبدو لنا واحدة لدى هذه الجماعة أو تلك ، ولكن
تشابهها في الواقع تشابه غير عميق وغير متبع في التطبيق ،
مما دعا كل جماعة إلى إيجاد حكومة ذات سلطة تفرض بها
قديراً معقولاً من الرقابة والنظام والقمع على جوانب من سلوكه

الناس فيها .. فوجود الحكومات ضرورة بشرية فطن إليها
الأمميون من قديم الزمان لضمان الأمن وكبت الشنوذ وحماية
الأرواح والأموال في الجماعة ، ويستحيل على أية جماعة
متحضرة أو غير متحضرة أن تعيش بدون حكومة مناسبة
لها ، فلم يعرف الأمميون حتى الآن كيف يحيون معاً تجمعهم
أفكار وأغراض وميول متجانسة متحابّة تجعل وجود
السلطة الخارجية عليهم نافذة لا معنى لها !

ثم ينبغي ألاّ ننسى أن فهمنا لا يحدث دفعة واحدة ،
ولا يستمر على حاله ، بل يجيء على دفعات لاختلاف
الأعمار والأوقات والظروف والبيئات .. يجرى عليه خلال
ذلك التقارب والتباعد والإضافة والتعديل والتقوية والتبديل
والحذف والرفض .. وهو دائماً فهم وقّتي ، ابن الوقت البذي
نبدیه فيه لأنفسنا أو لمن معنا .. ذلك لأنّ تعلّقنا بمبادئنا
واعتقاداتنا هو دائماً تعلق نسبي محكوم بوقته وظروفه التي
نعبر فيها عن تلك المبادئ والاعتقادات .. وهو ما يتيح للأمة
فرص النمو والنضج والتعلم والتأمل والمزيد من الإدراك

والحكمة ، كما يغريه بعكس ذلك من البلادة والقعود والغفلة
والركود وبغض التغيير وتهيب الانتقال والخوف من ترك
المألوف !.. ذلك أن ماضينا يممك دائما بما أخذناه وحققناه ،
بينما يتطلع حاضرننا أو لا يتطلع لمستقبلنا .. فمستقبلنا أضعف
من ماضينا برغم أننا لا يمكن أن نحيا حياة الذين رحلوا
لاختلاف الوعي بالذات لدى كل فرد منا صغيراً كان أو كبيراً
جاهلاً أو عارفاً أو راقياً متطوراً .. فالوعي بالذات هو شعور
كل منا المطرد من الميلاد إلى نهاية الحياة بوحدة ذاته هو ..
وبتملقه هو العميق الغائر بهذه الوحدة وتاريخها الذى يشمل
حتماً ما وصل إلى وعيه هو عن دنياه المشتركة بصورة
ما وعن ماضيتها وحاضرها !

أما اللاوعى لأى منا ، فبرغم معرفتنا إياه فى صغرنا
وحديثنا عن وجوده لدى كل منا وعن دوره فى الحياة الذى
لا تسيطر عليه إرادتنا الواعية ، فخال تماماً من " الأنا "
أى من الشعور الواعى بالذات ووحدها ، فلا نلتفت عادة فى
أطراد مسار حياتنا الواعية إلى أحلامنا التى لا تخلص منها

فترات النوم ولا دواعي انفعالاتنا واتجاهات وأفضليات ميولنا
وشهواتنا التي اعتكنا أن نعزوها إلى أسباب قابلة للفهم ونراها
محلاً للمحاسبة والمساءلة ، أو علة للمودات والمحبات
والقربابات والولاءات !

ولأن ذاكرة الأسمى لا تستقبل إلا ما يعيه فهي لا تعي
شيئاً وتختزنه إلا إذا صار موضوعه موضوعاً للوعي -
كإدراكنا في اليقظة لما رأيناه في المنام من صور الحُلم
ومحاولاتنا أحياناً - لتفسيره وتأويله بلغة الوعي ، أى بلغة ما
من لغات البشر .. كذلك وعي الأسمى للإلهام المفاجئ الذي
لا يدري دواعيه ولا ينتظره أو يتوقعه من قول يقوله أو فعل
يفعله أو يتجنبه ، فيصادف وقته موقعه اللائق الصائب وكأنه
البرق الخاطف لمع فجأة ففى وعيه واستجابت له إرادته
بلا تردد ودون أى تفكير سابق فيه .. وحتى الآن ليس لدى
وعى الأسمى وسيلة لتيارات اللاوعى أو لاستدعاء الإلهامات
أو لما يسمونه بالكشف ومعرفة الغيب والمستور أو رؤية
المستقبل أو إيصار ما لا يبصره البشر عادةً من بعيد !!

والبشر يعززون هذا ونموه إلى ما يسمونه المواهب
الخصوصية أى الغامضة التى لا تفسر شيئاً ولا ترشد إلى
واقع قابل للتجربة والفحص والتكرار من أى إنسان آخر على
درجة كافية من المعرفة والخبرة فى ذلك الخصوص .. ذلك
أن معارف الأنميين هى معارف مرحلية دائماً ، لأن العقل
والخبرة المستندة إلى التجارب تزداد قوة وقدرة على خدمة
العقول كلما ازدادت تجاربها انضباطاً ونقّة حسب ما يتيح
لها زمانها ومكانها وما لديها من وسائل لتحقيق ما يستطيع من
الانضباط والدقة !

وكثيراً ما يبدو لنا أن الحياة التى نحيا بها أساساً
كأفراد ، نقائنا فى الغالبية كمجاميع وأجيال .. هذه المجاميع
شبيهة بمجموعات المناشير التى تعمل فى نفس الوقت فى
اتجاهين متضادين صاعداً وهابطاً ، وكثيراً ما يتلاقى الصاعد
والهابط فى منتصف الطريق ثم يتباعدان ويتكرر التلاقى
والتباعد والصعود والهبوط إلى غير حد !! هذه المناشير

المضادة تتلاقى مع حتمية زوال الأفراد ومع دوام حصول الميلاد والرحيل فى الجماعات !

وحتى فى حياة الأسرة ، نلاحظ أن تلاقينا اليومى ، وقتى وقصير فى الغالب ، ولذا لا يلتقط بعضنا من بعض إلا القليل مما عنده بصفة علمة ، ونادراً ما تصادف أنمياً لا يكره أن ينفرد بنفسه وقتاً يقصر أو يطول .. وقد يحلول أن يملأه بالقراءة أو الكتابة .. ذلك أننا عادة ينقصنا الثراء الفكرى وحب التواصل والاختلاط والصحبة ، وهذه المزايا القليلة التى ترداد قلة من يوم لآخر ، وربما بلغت حد الندرة فى حضارتنا الآن !! ذلك أننا شغلنا جميعاً بالتهافت على ما هو جديد وحديث وغير مسبوق مما يظهر بيننا فى كل لحظة — شغلنا عن الاهتمام بداخلنا وتنميته وترقيته ، وبات داخلنا فى أعيننا جافاً ضامراً لا يهتم به عصرنا الذى التفت ويزداد التفاتاً كل يوم — إلى اقتناء الماديات التى تنفمه بها باستمرار صناعات وفنون هذا الزمن المذهل بأطماعه وأهوائه ووسائل إغرائها والتشويق لها وطرق الاتصال والترويج المجيبة الفريدة فى

نقلها ١. فمن اليسير على أى إنسان الآن فى القاهرة أن يتصل
بإنسان آخر فى دلهى أو لندن أو نيويورك ، ولكن ليس من
اليسير على الأخ أن يحب أخاه أو على الإنسان أن يكون له
صديق يتعلق ويتمسك بصداقته بلا قيد ولا شرط .. ضمرت
ونوت فى زماننا وتباعدت الأخوات ولم يعد يجمعها دفء
الأسرة إلا فى الريف المعزول عن الحضارة وحركتها
الخارجية التى لا تهدأ فى ليل أو نهار ، كما بهتت ألسوان
الصداقات فلم تبق كما كانت من قبل دليلاً على الاعتزاز
بالإخلاص للأصدقاء ، وإنما مجرد أمانة على الانتماء فى
المجتمع وممارسة العلاقات الاجتماعية التى قد تعين على
النجاح والشهرة !

ونحن عادة لا نلتفت إلى ما فى ذلك من مجازفة خطيرة
بالسلامة الداخلية لكل منا ، ولا نلتفت إلى أننا نفقد باستمرار
المناهب الأساسية لإنسانيتنا التى تجتهد أمانسا من قرون
فى تحقيقها ، ونتحول بالندفاع إلى أن نكون بشراً بلا روح
ولا كرامة لا يعنيه إلا الأيام التى يقضيها على هذه الأرض

ويمتّع نفسه بها إلى أقصى ما فى استطاعته بلا غريزة تصونه
وتصون نسله من الزوال أمداً ما كما فى بقية الأحياء !
وهذا — لمن يتأمله — مستقبل مرعب مليء باليأس
امتلاءه بالأثائية والقسوة وعدم المبالاة .. مثل هذا لا يحيا
إلا أيامه المحدودة ، ولا يهتم أو يسأل عن أى ممن كانوا
أو بقوا أو وجدوا بعد رحيله !.. وبهذا ومثله تموت آمال البشر
الهائلة التى ساقطتهم وتسوقهم إلى التمكن من البقاء والنماء فى
أنفسهم وفى ثرائهم وفى جنسهم إلى آخر الدهر .. إننا نون
أن نشعر نضمن ونستبقى الإنسانية كلها أفراداً وجماعات —
بتلك الآمال الضخام التى فى ذهن كل فرد والتى بها عشنا
ونعيش ويعيش نملنا من بعدنا إلى الأمد الذى أذن الله تعالى لنا
جميعاً به .. شاهد ذلك من قديم الأزال قبور البشر وشواهدا
وهيتها وإكرامها فى عيون الذين على قيد الحياة منا !
ويبدو أن ما نسميه للقيم والآمال فى المستقبل والأقدار
والخطط ، وإن بدت غامضة خفية ، إلا أنها دائماً عميقة فينا
وأساسية لدوام جنسنا ، ولا نملك أن نمتعنى عنها ونتجاهلها

لأمدٍ يطول دون أن نفترض سريعاً أسرع مما نتصور —
وربما كان غموض تلك الأمور التي ليس لعقولنا دور جاد فيها
من لوازم حياة البشر نفسها .. فهي مما يمكن للأكمين ترقّيها
مع ترقّي عواطفهم وعقولهم وحياتهم بعامة ، بيد أنه لا يمكن
الغاؤها مع بقاء البشر بشراً!

فوعينا وإن كان لا يدرك أصول تلك الأمور وفحواها
ومصادرها ، إلا أنه قادر تماماً وبعمامة على انتظارها
أو احتمال وقوعها أو رجاء خيرها أو إقصاء شرها أو للئس
من إقصائه .. وليس لنا ولا هو في وسعنا مهما بلغ مقدار
وعمق معارفنا وعلومنا الوضعية — .. ليس لنا ولا في وسعنا
ألاً نلتفت لتلك الغوامض التي تتردد أجراسها على لسان كل
أدمى عاش أو يعيش وتخطب أعماقه وتتدخل في مصيره بعد
اشتراكها في نشأته !!

إرادة الأدمى ليست كل حيلته المدركة ، وإنما هي
دائماً جزء منها فقط .. وقد يتسع سلطان الإرادة البشرية
باتساع المسطرة أو باتساع الفهم والمعرفة والاعتدال في التعامل

مع الحياة ، وهذا النوع من الاتساع يمسلم بتلك الغوامض
ويدورها فى وجود الأحياء والحياة .. والأديان من قديم توصى
بذلك الاعتدال الذى يجمع بين الفهم والرزانة والإيمان فى
أنظمة انتهت بانتهاأ أهلها ، وفى أنظمة أخرى ما زالت باقية
صار دور ذلك الاعتدال فى أهلها محل نظر !

* * *

حياة العامة من الناس خلاف حياة خاصتهم من جهة
المزايا المادية وتوابعها المعنوية التى يتشبث بها الخاصة ..
وهذه وقف عليهم وعلى من يلتصق بهم ممن صاروا أغنياء
أو فى حكم الأغنياء بعد فاقة ووضاعة .. وهؤلاء قد يكونون
أكثر من الخاصة حرصاً على إبراز ما وصلوا إليه فى سلوكهم
ومعاشتهم ، وربما قصرُوا الاتصال بطبقاتهم على القليل
أو الباقي من المجاملات أو المعونات !!

أما سواد العامة فعلى ما فيهم من جهل وتأخر ، فإنهم
أكثر التقاطاً إلى التقاليد المسائدة فى محيطهم ، وأسرع مبادرة
إلى التضامن فيما بينهم فى الضائقات ، وأعق شعوراً

بالمودات واللياقات ، وأقل تكلفاً وأبسط يداً بما معهم ..
وما معهم دائماً قليل قليل قد يؤثرون به على أنفسهم ومن هم
فى حكم أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وربما كان ذلك
راجعاً لقلّة فراغهم أو كثرة أعمالهم المنهكة أو المملة
مما لا ينتج فائضاً متسعاً من الوقت للتقليب والتغيير والتبديل
كما لدى الخاصة ! — إلا فى أوقات البطالة والكساد التى
يملوها الضيق الشديد والنكد واليأس !! وهؤلاء على ضالّة
شأن أفرادهم وسهولة إغصابهم وإضحاكهم وكثرة انتفاعاتهم
وأحياناً عنفهم وقسوتهم — أشد وأعق تمثيلاً للأمية من السادة
والأوساط وأصحاب المقامات الملتفتين لمستوياتهم ورقمهم
وتقافتهم ومكانتهم .. فأولئك غارقون إلى الأنف فى دنياهم
لا ينظرون إلى داخلهم إلا من أجل أغراضهم الخارجية !! ..
لم ينفعوا ولا ينفعون ولن ينفعوا البشرية — إلا فى الماديات
والموضوعيات من المعارف والعلوم والاختراعات
والاستكشافات والفنون ، وهذه وحدها قد لا تكفى لبقاء جنسنا !

لأن جنسنا قد يكون باقياً منذ القدم إلى اليوم بفضل خصائص
العامّة الحسنة والقيّحة معاً !

وإذا كتب الله تعالى اطراد وتقدم وتطور هذا الجنس
لبقائه ، فلن يكون ذلك إلّا مع تطور العامّة وتقدمها - تطوراً
وتقدماً شاملين لداخل الأسمى وخارجه معاً مما لا يتأتى إلّا
بالاتفات لهذين بنفس العناية والدرجة .. ولن يتم هذا إلّا إذا
كفّت الخاصة عن ازدياد العامّة ، واجتهدت ما أمكنها الاجتهاد
فى الامتزاج بالعامّة لأخذ يدها فى الترقى والامتنارة
وتخليصها إلى غير رجعة من الجهالة والخرافة والسطحية
والانففاع !!

يبدو أن بقاء البشرية سيظل متوقفاً على أكثريتهم وليس
على أقليتهم مهما برعت وارتقت وحدها تلك الأقلية ، وسيزداد
مع الزيادة فى تفوق الأقلية - ابتعادها عن الأكثرية وابتعاد
الأكثرية عنها ، وربما انتهى الأمر بتكمير هذه وتلك -
ما لم تتقارب الأقلية المتفوقة الآن - تقارباً حقيقياً مثمرأ من
الأكثرية والعكس غير منتظر وغير صحيح !

إن فى التفوق الحالى للأقلية كثيراً من العزلة وقليلاً
جداً من الإيثار وإستغراقاً تاماً فى البحث عن حقيقة هذه
الجزئية أو تلك وتتبعاً للنتائج التى تترتب أو يمكن أن تترتب
عليها عملياً وصناعياً وتجارياً وأثرها فى الاقتصاد العام
الداخلى والخارجى ، ثم إغفالاً يكاد يكون تاماً لما يجرى فعلاً
ويومياً داخل سواد الناس الذين لم يشاركوا فى ذلك الاستغراق
بكثير أو قليل .. وهم دائماً المعرضون فى النهاية لابتلاع
جرعته وتحمل نتائجه على غير تهيئة جدية واستعداد كاف
وتبصير مخلص منير ! .

ويتنافس أفراد الأقلية المتفوقة على النتائج ، وتسجل
أسمائهم فى دوائر المعارف ، ويفرون على ذلك بالجوائز
المحلية والدولية ، ويشار إلى بعضهم فى الكتب المدرسية
والجامعية ، وتسمى بأسمائهم الشوارع والميادين ودور الخير
 والمعروف !! كما تسمى بأسمائهم النظريات والقواعد
والمقاييس والدرجات .. ويمدو مع ذلك كله أن دنيا البشر
هى دائماً دنيا الأكثرية لا الأقلية المتفوقة ، وستبقى كذلك إلى

ما شاء الله تعالى ! والتفات الأكلية المتفوقة إلى تفوقها وحده
لن يغير كثيراً من دنيانا ، بل ربما زادها اختلافاً واضطراباً
وعداءً وتعاसे وشقاءً ، على عكس ما تتخيله الأكلية المتفوقة
من أن استمرار التقدم العلمى والصناعى والزراعى والفنى
الذى تقوده الأكلية المتفوقة سيؤدى إلى سيادة العقل والتفاهم
والأمان والسلام فى عالم الإنسان !!

وربما لأن رزق عامة الناس يأتيهم عن يومهم
أو أسبوعياً أو شهرياً أو فى مواسم الزرع أو الحصد — كان
تبصر غالبيتهم محدوداً دائماً إلا لدى أهل القليل منهم ، وهم
عادة لا يأخذون أنفسهم بضبط النفس والاقتصاد فى الإنفاق من
رزقهم المحدود كما يفعل أغلب أهل الطبقة المتوسطة الذين
ينظرون إلى الغد وإلى تغادى الاحتياج وإلى الأمل مع مرور
الوقت فى صورة من صور اليسر أو الإثراء !

ومع قلة ضبط النفس وعدم الالتفات إلى الاقتصاد فى
الرزق المحدود ، ساد بين العامة الإيمان بالمقادير والتسليم
بأحكامها مع عدم التفريط فى انتهاز ساعة حلوة أو يوم طيب

أو لحظة أنس مع الأهل أو الأحباب أو الجيران ، أو مع سرعة الانتقال من ذلك ومثله إلى عكسه من ضيق الصدر والعناد والاندفاع والاشتباك وأحياناً مع الإضراب والتجمهر والتمرد ومضاعفاته .. وحدة هذا القلق فى مزاج العامة قديمة قدم البشرية نفسها . وهذه الحدة لا يغيرها التعليم وإنما قد يغيرها تغيير البيئة والمحيط غالباً !

والعامة هى التى تجمع الجماعات البشرية وتحفظ عاداتها ومشاربها وطقوسها الدينية والدنيوية ، وتستبقى آمالها وأحلامها وأخبارها ومصنقاتها ومأثوراتها وقديمها الحى الرائج وخواصها ومطبائعها الأكثر استقراراً .. ذلك لأنها برتبة عيشها وتمائل أيامها ولياليها وندرة الاعتزاز بالذات والزهو فى أفرادها — أقل تعرضاً للتعديل والتبديل والتغيير ممن فوقها من الطبقات .. وإذا كانت العامة فى أيامنا — خاصة فى المدن — أكثر حركة وجرأة واندفاعاً إلى الظهور وفرض الذات بالتواجد الكثيف فى الطرقات والميادين والأسواق والملاعب والنوادر والمحافل والمجتمعات ، وذلك بفضل أساليب

ووسائل وأوضاع وإغراءات الحضارة الحالية — فإن ذلك كله لم يتجاوز السطح .. وهو ظاهرة جاءت لتذهب ، إذ أسس وركائز حياة الجماهير لم تتغير ، بل لعلها زادت قلقاً وقلة أمان وبعداً عن الرضا والاستقرار وشعوراً بالغربة وعدم الثقة واتجهاً يتزايد إلى القنوط واليأس والتدمير والتخريب بغير تمييز وبغير إقبال جاد إيجابى فعال على ما هو خير أو نفع حاضر أو مستقبل للناس فى دنياهم وأخراهم معاً !

إذ التزويج والإهلاك العشوائى وهم الأنظمة الموجودة العاملة — ذلك كله ليس إلا شيطنة لإرضاء وإسكات ومستر الغيظ والعجز والشعور الممض العميق بالخيبة والكفر بالإنسانية وبضرورة أن تزول . ولا يصل العامة إلى تلك الدرجة الهائلة من الإحساس بضيق العالم واستحالة البقاء عليه وفيه إلا باجتماع التحريض مع الإغراء والإغواء من داخل الجماعة وخارجها حال وجود أزمة اقتصادية تدهمهم أو يشعرون أنها تدهمهم فعلاً شعوراً لا نذب لهم فيه !

وحياة الألميين جميعاً منذ كانوا ، معظمها محاكاة بين بعضهم وبعض تقريبية عفوية كثيراً ، وقصدية أحياناً ، تتغير في الجماعة الواحدة قليلاً أو كثيراً بتغير الأفراد واختلاف أعمارهم وأدوارهم وظروفهم وبيئاتهم وعصورهم .. وعلى أساس هذه المحاكاة التقريبية وجدت فيما يبدو الجماعات البشرية وأعرافها وتقاليدها وأصولها وأخلاقها وقوانينها وقواعدها ، وكذلك نقائصها وعيوبها التي تأسست بالاعتقاد وطول الممارسة ، وأعاققت وتعيق تقدمها وترقيها كله أو جانباً منه ! ..

فمنظرة كل منا إلى جماعة في هذه المناسبة أو تلك أو في هذا الموقف أو الموضوع أو ذاك - بفرض إمكان تقبلها وتغيره فيها - ليست من عنده وحده كما يظن ، ولا هي نبت أفكاره هو .. بل شريك فيها مما هو من صنع ألوف صنوف المحاكاة لما لا حصر له من الخلق . فحكمي وحكمك وحكمه على أى شيء - ليس خالصاً ملكاً لأى منا مهما أجهد نفسه في تقصيه واستقصائه !

إننا دائماً نركب ما سبق لغيرنا ركوبه بوجه أو آخر ،
و حين نزيد عليه جديداً غير مسبوق نسندة كله إلى أنفسنا باسم
أو وصف جديد دون اعتراض من الآخرين .. لأن هذا هو
الطريق الممكن الذى سمحت به الحياة للأدبيين .. ولذا كان
تعليم البشر وتعلمهم وعلومهم وآدابهم وكتبهم ورسائلهم من
أول الدهر وإلى اليوم والغد — أغلبها محاكاة وترييد وتدريب
على تكرار وتطبيق لما عُرِفَ وَعَلِمَ ، ولكن البشر ليسوا قسطنطين
بآلات لا يخرج منها إلا المتطابق المتماثل ، وليس المخالف
منها عواراً معيياً ، وليسوا بهائم قريبة من الآلات من جهة
رتابة الأداء الذى يستحيل أن يتغير فى نظرنا سواء لحياتها
أو لخدمات الإنسان الذى يستخدمها .. وهنا يكمن سر بشريتنا
وتميزها وقابليتها التى لا تعرف حداً سواء فى الارتقاء أو فى
الانحطاط ولا يجلى ذلك السر العميق أن نقول إن تركيبنا
أكثر تعقيداً وتخصيصاً ، لأن ما عرفناه إلى اليوم مما نسميه
تركيبنا ، من ذلك المجهول الهائل — على كثرته فى نظرتنا

الراثة — يبدو عند التأمل أنه نقاط من بحر طام يحتاج فهمه
إلى ملايين الأعمار والعقول فى ملايين السنين !!

• • •

توقيت حياة كل آدمى — بمعنى أن حياته مؤقتة —
هو توقيت أزلى يجدد باستمرار وجود الأفراد وبالتالى
الجماعات ، وهذا هو الذى يمنع البشر من أن يحملهم إحساسهم
ببحر المجهول المفزع على القعود والتوقف والتسليم والياس
المؤدى إلى الانتكاس والردة والقنوع بالعبث والجهالة والشهوة
والغفلة .. توقيت حياة الأسمى — هو الذى يضمن استمرار
تجدد ما لدى البشر من الأمواق والطاقات والهمم والتطلعات
والأهداف والأغراض والأمال والأمانى . وهو دور سام عميق
أساسى يقوم به الموت فى مسيرة حياة الأسمى الملائمة
بالعجب والأسرار . وأغلب البشر فى كل زمان لم ولا يفطنون
إلى هذا الدور الجليل للموت فى بقاء البشرية واستمرار نموها
وتطورها .. فهم يحيطون الموت بالأحزان لوقت يقصر
أو يطول ، ويذكرون موتاهم أمداً بالعطف والأسمى دون أن

يؤدى الحزن أو الأسى إلى زهد الحى فى حياته أو يقلل حرصه عليها والاستمتاع بها ما أمكنه . فموت الأفراد حركة من الحركات الضرورية لحياة البشر لا تستغنى عنها تلك الحياة قط . يحجب قيمة دورها الضرورى للحياة خوف الأسمى من الموت ومقته لمفارقة الدنيا ، وهو فى دورة الحياة الدنيا مجرد تسليم لليقظة فى دورة الإدراك ، ونحن جميعاً غرباء عن الحياة الآخرة غرابة الأجنة عن الدنيا وأهلها وإن كنا — أو بعضنا — ننتظرها ونفكر فيها قليلاً أو كثيراً على نحو هامشى من قرون !

ونحن لا نعيش جميعاً حياتنا جادين شاعرين بتقل مسؤولياتها وواجباتها ، فقد منحنا القدرة على التغافل والتناسى والتحامق والفرار والتهرب والاعتیاد على ذلك لدهور.. ومن هذا الباب تراكمت فىنا الأخطاء والانحرافات والالتواءات والادعاءات والمزاعم والافتعالات للأصول والأعراق والمآثر والمكانات !!.. لأننا لم نعط ما أعطى سوانا من الأحياء من

الحدود للكابحة التي تحول بينها وبين تلك الشطحات والحقائق
والمغامرات !

والعجيب فى أمرنا أن تلك الشطحات والحقائق
والمغامرات أولها التفاتات منفردة أو مشتركة تجمع بين أكثر
من فرد ، مقصودة واعية يعقبها استغراق فيما دخلنا فيه
والتفتنا إليه . لأن الالتفات ملكة فى كل آدمى ، تتفاوت قوة
وضعفاً بحسب نصيب الأفراد منها .. هى طريقه إلى الشر
أو إلى الخير .. لأنها سبيله إما إلى الضلال وإما إلى الرشاد
.. وشأنها شأن غيرها من ملكات البشر .. أولها بدائل لا تكاد
تلاحظ ثم تنمو تدريجياً فى هذا الاتجاه أو ذلك مع أطوار الحياة
وأحوالها فى الجماعة وعصرها وحضارة ذلك العصر .
وكل ما لدينا الآن وما كان لدينا من قبل من خير أو شر ،
ناقع أو ضار ، راقٍ أو متخلف ، أقمناه على ملكة الالتفات
والانتباه . بدون نموها وتعميق نموها لدى البشر فى
اتجاه الخير لم يكن يوجد علم أو دين أو أخلاق أو فن
أو اجتماع أو اقتصاد أو سياسة أو إنسانية ، وفى اتجاه الشر

لم يكن يوجد طمع أو جشع أو شهوة أو إيمان أو حقد
أو خبث أو مكر أو تمرد أو نهب أو سطو أو تنمير أو إفناء
أو تأله أو استبداد أو سيطرة !!

وتختلف درجات الثقافات البشرية بعامة — أعنى البشرية
فى الجماعات المتقدمة — باختلاف العصور والدهور التى
مرت بها .. تشهد بهذا كتب التاريخ التى فى أيدينا الآن ،
وذلك لأن الالتفات قرين الاهتمام وتوأمه .. فقد أتى مثلاً على
الدين حين من الدهر تفوق فيه نفوذه على السياسة ثم اتجه إلى
الحرب والفتح فعاد إليها ، وظل هبوط الاهتمام بالدين يستزايد
إلى يومنا هذا ، وبقيت السياسة تتعبد على مصائر الناس
وجماعاتهم هنا وهناك لأكثر من ثلاثة عشر قرناً بما فى كفيها
من مد وجزر واعتدال واتحلال ويقظة وخمول ورشد وحمق
وأمانة نسبية وتخليص وخداع .. يجرى ذلك دون أن تتوقف
أو تتردد إلى الخلف والمقووط مسيرة العلم والفهم والفن ، لأن
القائمين عليها وبها قليلو العدد دائماً بعيدون ما أمكنهم عن
طائفة السياسة ودهاء أصحاب المصالح ولما تعرضوا لفرص

الهرس والدهس التى تعرض لها العامة والكثرة فى كل قرن
مرة - بل مرات !

ثم إن الأحميين - لاعتيادهم الدائب الدائم على استخدام
حواسهم - ينمون أنها ليست مصدر حياتهم ، ولا هى كل
ظواهر ومساعى هذه الحياة ، ولا يدركون إدراكا واعيا أنها
جزء فقط من اجزاء تكوينهم ، وأداة من أدوات خدمتهم التى
جاد بها خالقهم .. فانصراف الأحمى بقضه وقضيضه إلى
إشباع حواسه أو تركيزه على لذاتها ومتعتها - تعطيل
لإنسانيته يشبه الإخصاء لها ويحول بين حياته وبين تمام النمو
والنضج ويحرمها من الترقى والتطور اللذين تنتظرهما
وتحصل عليهما إن رشدت وانتفعت بجماع مواهبها
واستعداداتها التى أنعم بها عليها بارئها !

ويجب ألا ننسى ولا نذر من ناموس حياتنا وحياة
الأحياء منا جميعاً نباتاً وحيواناً وبشراً ، بل يجب أن نجل
بدايتها من البذرة إلى النضج فى كل صورها .. وهو ما نسميه
النمو الذى يعقبه الازدياد الذى يكمل نقصاً أو النقص الذى يحل

محل تأخر أو الترقى الذى يحقق أملاً فيما يبدو للخروج من
غفلتنا وضلالنا ونقائصنا وأخطائنا ويقودنا للآتى المأمول
من كمالنا ورشدنا وفضائنا ونقدمنا وتطورنا مما قد نورث
بعضه لأجيال لا ندرى صلتنا بها ويمتدح علينا كلية الاتصال
بها !

فالحياة دائمة الركوب لأحيائها المتفانين المتعاقبين
المتناسلين والمتوالدين ، ونحن نقاط فيها تغذى مسيرتها ونحمل
رايتها ما حيينا ، وإنما بكثير من الالتواء والعناد .. وأحياناً
نقاومها ونبلغ فى مقاومتها حد الامتناع والرفض القاطع حتى
ليرفض بعضنا بعضاً رفضاً نهائياً متعللاً بينه وبين نفسه بعلى
وذرائع تبدو له قاصرة ، أغلبها غامض فى نظر الإنسان
العادى .

ثم إن حياة الإنسان التى تبدو بسيطة خالية من العقد
والتعقيد لمن يحياها بلا طول تأمل .. هذه الحياة هى فى واقعها
شديدة التعقيد إلى غير حد فى المجتمعات الكبيرة والمتوسطة ،
أما فى المجتمعات الصغيرة البعيدة عن العمران والحضارة —

فبساطتها ترجع فقط إلى البداوة وما يماثلها ، وهذه بساطتها
المكان الذى فرض بساطته على الزمن والجو اللذين تعيش
فيهما الجماعة الصغيرة المعزولة عن العالم المتحضر . ولذلك
يشعر بوطأة التعقيد من فارق الصغر وانتقل فجأة إلى بلد
متحضر تتناوب فيه تعقيدات الحياة وشدة شعوره هو بالحيرة
والثقل فى ذلك البلد وشدة رغبته فى العودة إلى بلده الذى
فارقه ! فإذا ما استطاع التغلب على هذه الرغبة ، تناقص ذلك
الشعور لديه ثم زال بالاعتیاد ، وصار مدركاً متقهماً متقبلاً
لما يقابله وما يمكن أن يقابله من تعقيدات حياة الأسمى فى تلك
المجتمعات المتحضرة التى تزداد الحياة فيها باستمرار فى
التعقيد والتكبيد مع اطراد ترقى الحضارة وتطورها !

وفكرة الأسمى عن حياته الدنيا مهوشة مفككة مليئة
بالتشويه والتناقض والثغرات والعثرات برغم إقراره فى نفس
الوقت بالعديد من الأصول والقواعد الدينية والأخلاقية .
وفكرته عن الحياة الآخرة هى أيضاً فكرة غامضة شديدة
الغموض لأنها عن حياة خلاف حياته هنا التى عرفها

واعتمادها ويعيشها على هذه الأرض .. فكرة الأسمى الغامضة
عن الآخرة سنادها فقط الإيمان لا المعاينة الفعلية ، وهذا
الإيمان يجيء ويذهب ويقوى ويضعف ، وغايته الأولى ضمان
استقامة الأسمى فى دنياه أو عودته إلى هذه الاستقامة إذا كان
قد فارقها قبل رحيله . لأن الاستقامة طريق قويم سليم فى
الدارين ، وهى الطريق الوحيد للإنسانية الأسمى التى ما زلنا
نترخص فى عدم الالتزام بها من وقت لآخر إذعائاً للأهواء
والمآرب والأغراض الخاصة أو للمصيبات والقوميات والملل
والنحل ، وجرياً وراء المصالح والمنافع فى معظم الأحوال !

وعى الأدمى ، كيف وإلى أين ؟!

وعينا فى اليقظة يجرى بلا توقف ، وهو يجرى على درجات من السرعة والبطء والسطحية والعمق ، دون أن يفتن ، وغالباً دون أن يراقب جريانه ، بل ودون أن يلاحظه .. مستسلماً للمواقف عادة .. وأحياناً يستوقفه الفعل أو الألم أو الخطر .. وتيار الوعى لا يخلو قط من الغموض والخلط .. تتزاحم فيه الرؤى والصور والخواطر والظنون والأفكار — وهو لا يهتم إلا فى النادر بمحاولات التأمل والإفراز وعزل الجاد من غير الجاد والبالقى من العرضى وتمييز العميق من السطحى . ولعل هذا مقصود فى الخلقة التى يبدو أنها مبنية على توالى وتكرار الإيجاد والإقناء والماضى والحاضر والمستقبل والزمان والمكان البدايات والنهايات .. وربما مثل التشابه والاختلاف فى الأفراد والجماعات والأجيال ، نوعاً أو أنواعاً من تشابهات واختلافات الظروف والأحوال فى

البيئات والمجتمعات . تقوى وتتأكد مع الاعتقاد والاطراد
وتلازم الميحن .

ومحال أن يتصور الوعي البشرى مقدار ما خلق
ويخلق الخالق جل وعلا من الأحياء ومن بينهم الآميون منذ
وجدت أرضنا .. فهذه المخلوقات تزيد على مليارات
المليارات ، ومن ثم فقد تعلق البشر بنطاق وعيهم هم كأساس
أولى لكل معارفهم وعلومهم وفنونهم الماضية والحاضرة
والمستقبلية ، وكذلك عقائدهم ونحلهم !.. إذ أن وعيهم فى
الواقع يسبق باستمرار إيمانهم بغيبات وعيهم !

ووعينا — بالنسبة للخالق عز وجل — محصور حصراً
لا فكاك لنا منه فى أننا مخلوقون لم نكن ثم كنا ثم لا نكون —
من ضمن مخلوقاته التى لا تكاد تحصى ، وأننا — أردنا أو لم
نرد — يعيش كل منا حياته فى دنيا خلقها الخالق عز وجل
ضمن كون هائل جداً لا سبيل إلى أن نعرف مداه ، وركب
سبحانه أوضاعه وطاقاته وحركاته وسكناته .. لا نستطيع مهما
تصورنا وحاولنا وأبدعنا وشرعنا ونفننا بعقولنا وخيالنا

ومعارفنا ، من تعديلات وتعديرات تمت أو تتم .. لا نستطيع أن نغير هذه الدنيا وهذا الكون أو نبدلها زيادة أو انقاصاً .. إذ أن جميع ما فينا ومنا ومعنا أحداث ومجرد أحداث صلاتها بخالقها صلات أحداث بمحدث ، وكائنات بمكون وبدائع بمبدع .. ننسى نحن حقيقتها معظم أيامنا وقد نحاول أحياناً — إعلان ولائنا أو إعراضنا لها أو عليها سرّاً أو علانية بحركاتنا ولغاتنا ورموزنا في إشاراتنا وآمالنا وعواطفنا .. وهذه كلها بشرية ، محض بشرية لا تحدث آثارها المرجوة أو المرادة إلا على حياة ووعي وعقل وعواطف ومصائر كل منا في ماضيه وحاضره ومستقبله .. إذ دنيا الآميين ليست إلا تكراراً وتوالياً لا ينقطعان لوجودهم المرتبط المتصل بفنائهم هم وما معهم وعندهم وحولهم مما يمكن أن تنقله حواسهم إلى وعيهم ، أو يجول بخيالهم ، أو تتداوله عقولهم أو عواطفهم .

وانصراف الآميين كليةً إلى خالقهم والقعود عن الحياة — لا يمكن أن يكون مطلوباً منهم لأن عليهم بحكم الطبع — السعى في الأرض لقضاء احتياجات الحياة لكل منهم إلى أن

يفارقها .. وهذه الاحتياجات تشغل فى أغلب الأحيان أغلب أعمار معظمهم أولاً وقبل سواها ، ومن ثم لا يبقى واقعاً للعبادة فيما عدا المتصوفة والنسك — إلا هامش مفروض فيه أن يزكّهم ويذكرهم ويعينهم على استقامة وإخلاص ذلك السعى الذى ليس منه مفر فيما يبدو حتى للموسرين . إذ حياة الحمقى والأغرار والمترفين لا تترك لكمسلم وتقاهتهم وفسادهم مجالاً لا للعبادة ولا للعمل الجاد .. هذا السعى الجاد يضاف إليه ضرورة استمرار الحياة البشرية باجتماع الذكور والإناث برغم اختلاف الجنس فى الطبع والعاطفة والعقل واحتياج ذلك التعايش إلى الصبر والاعتدال على تحمل هذا الاختلاف مما يطفى حتماً حرارة المحبة وينقل اهتمام الطرفين إلى العناية المشتركة بالأسرة .

ووعينا يولد مع ميلادنا وينمو مع نمونا . لكننا ننسأه ! .. ننسأه فى بداياتنا وننسى وظيفته ومهمته وضرورته للعقل والإرادة والاختيار ، وننسى لذلك حاجته الدائمة إلى اليقظة والتيقظ وإلى مقاومة الإغفال والغفلة ، إذ منها يدخل ويتسديد

فى وعينا — الوهم والغرور والطمع والكبرياء ، أو عكس ذلك
الشعور بالصغار أو الكآبة أو التشاؤم أو القنوط أو اليأس من
أنفسنا !

واليقظة أو التيقظ اعتياد يحتاج الإحساس بوجوده إلى
المحافظة على تنميته ، لأنه من المقومات الأساسية للوعى ...
وعوم الأعميين يشتركون فى عموم الوعى ، لكنهم على الدوام
يختلفون فى مقداره فى كل عمر ومناسبة وموقف وربما أيضاً
فى كل مكان ! — ودواعى اختلافهم فيه أفراداً وجماعات وهى
لم تنقطع ولن تنقطع — تزيد كثيراً عن دواعى اتفقاتهم التى
يضمن بقاءها غالباً اعتيادهم على تنفيذها .. ولعل لهذه
الاختلافات أصل فى خلقة الإنسان من أصول دفعه إلى
الانتشار ومن ثم إلى التنوع !

ونقاس بقظة الأعمى للفرد بدرجة شوقه وإصراره على
التحقق والتأكد بإمكاناته المتاحة له — من صحة ومعنى
ما دعاه بحواسه مباشرة أو نقلاً عن غيره أو بناء منه على
ظنه وتأمله وحسابه عن هذا أو ذاك !

وقلما توجد نقطة الوعي فى الأسمى الفرد عامة شاملة لكل ما يعيه أو يمكن أن يعيه . فوعينا اليقظ دائماً — حتى لدى علمائنا — جزئى فقط تعمل نقطته الجزئية ضمن حشد من صور الوعي غمرتها العادات والأعراف والأصول والقواعد والقوانين — لأن الأسمى يعيش فى مجتمعات متقدمة أو متأخرة تمتد أعمارها تحت أسماء مختلفة لا يحركها وعى واحد لأسمى معين وإنما يديرها واقع آخر مبناه التسليم العام من غالبية الجماعة بالالتزام الذى تفرضه العادات والأعراف والأنظمة والقوانين والسلطات ، أى طاعة الغالبية الغالبة لما يسمى أوامر وقرارات ولى الأمر أو الدولة أو المؤسسات الدستورية أو الحكومة أو الإدارة إلى أن تثور عليها تلك الغالبية أو تضطر الأغلبية للخضوع لسلطان أجنبى !

فالجماعات لا توصف إلا مجازاً ببقظة الوعي أو بعدم يقظته ، أى لا توصف بما يحرك وعى الفرد فى حياته الخاصة تبعاً لظروفه وأحواله .. فالفرد فى الجماعة إنما يتحرك دائماً فى إطار حركتها هى ، ولا تجدى نقطة

وعيه بالغة مهما بلغت من التأثير إلا في نادر النادر !
كما لا تجدى قلة يقظة الوعي لدى بعض الأفراد ،
إلا إذا انتشرت وشملت غالب الخاصة والعامة في الجماعة !

ويبدو أن نطاق وعي الأنمي هو أولاً العالم الخارجي
من حوله وما يستطيع أن يعلمه ويعمله في ذلك العالم ..
كما يبدو أن آثار نشاطه الحيوي من العالم الخارجي ترتد على
داخله فتزيد أو تنقص منه وفيه ، وينعكس أثر ذلك على
خارجة وداخله باستمرار . وهذه الظاهرة الفريدة بنشاطها
الدائب هي التي ميزت الأنمييين عن سائر الكائنات الحية
الأخرى على الأرض .. فكلها بلا استثناء يقتصر
نشاطها على نموها ونسلها بدنياً في الحدود والمراحل
المرسومة لها ، ولم يوجد من تلك الأحياء ولن يوجد صانع
يجمل سكنه أو طعامه ، أو يصنع ملبسه ، أو يجرب دواء
لمرضه ، أو يكشف منجماً لمواده ، أو يزرع حقلاً في
موسمه ، أو ينشئ مدينة أو ميناء أو مطاراً أو قطاراً

أو حصناً ، أو يخترع سلاحاً أو آلة ، أو يبتكر لغة أو وسيلة
تفنى عنها لمن فقد القدرة على الكلام أو أثر الاستخفاء .

• • •

وعى الأنبياء المنصرف إلى العالم الخارجى ، هو —
فيما يبدو — الذى أقام لديهم معنى الأسرة والقرباة والنسب
والصداقة والعصبة والوطنية والإنسانية والحضارة ، ورد هذه
المعاني العامة الشاملة إلى وعيهم بداخلهم قد قوامها وخطتها
بمواطنهم وعرانئهم ، وأخذت من ثم مقامها لدى صغيرهم
وكبيرهم وجاهلهم وعالمهم .. أقول إن هذا الانصراف الهام
إلى العالم الخارجى من جانب الإنسان ، هو الذى مكّنه من أن
يقيم دائرة من العناية والرعاية من حول الوليد الذى يولد
عريئاً ويظل عريئاً إذا لم يجد كساءً إلى أن يموت ، وهو
الذى مكّنه من أن يقيم الأسرة والقرباة والقبيلة والمجتمع
والقرية والأمة ومن فوق ذلك كله الدين والملة !

وهذا الانصراف الهام جداً من الإنسان إلى عالمه
الخارجى هو الذى استعان بالآديان ، ليتوج بها نجاح وعى

الإنسان بخارجه الفسيح الهائل فى الشعور بالكون العظيم
 وخالفه الأعظم .. الكائنات الحية الأخرى حرمت من سعة
 الوعي بالعالم الخارجى حرماناً شديداً حال بينها وبين
 ما زود به الأنميون من الخيال والذاكرة والعقل والإرادة
 والاختيار، وهى وسائلهم فى التعرف على الكون فى حدود
 قدراتهم وحساباتهم وإمكاناتهم وظروفهم وعصورهم وفرصهم
 ووسائلهم فى المحافظة النسبية على ما استطاعوا حفظه
 أو المحافظة عليه من معارفهم عن العالم الخارجى زماناً
 ومكاناً وتقيماً وتأخراً .. وإذ لم تترك الأحياء الأخرى
 معارف ومعلومات مباشرة مقصودة للإنسان أو لغيره من
 المخلوقات ، فإن كل ما يعرفه الإنسان عنها وعن أحيائها
 وأمواتها وبقاياها حديثة أو قديمة ناقصة أو كاملة ، إنما هى
 دائماً معلومات نسبية ظنية تتقاسمها النظريات بين الرجحان
 والاحتمال !

ولعل أكثر ما يشغل وعى كل منا عادة ، بدرجات مختلفة ، هو عن الماديات والمعنويات وليس عن الأحياء .. فهذه تجذبنا إلى خارج أنفسنا جذباً قوياً قد ألفناه ولا نحاول التخلص منه ، وقد أغنى ذلك لغتنا وخيالنا وعقلنا وثقافتنا ومعارفنا وعلومنا وفنوننا وآدابنا وأثرى عقائدنا ومعابدنا وأعيادنا ومواسمنا .. هذا كله يزيد باستمرار أنشطة حياتنا سواء منها المجدبة والمجدبة ، كما يغذى قدراتنا على التصور وأيضاً على الأحلام والأوهام !

وقبل أن يعرف البشر معنى التاريخ عرفوا دنياهم بهم وقدرتهم على الاحتياال على الطبيعة ، وزادوا واستكثروا من هذه القدرة حتى نسوا أنهم أبناؤها وسيبقون أبناءها ما بقوا ، فاستغرقت الماديات والمعنويات البشرية التى ابتكروها التفاتهم وعنايتهم وحرصهم وآمالهم وأطماعهم ويقظتهم ونومهم من أقدم العصور إلى أحدثها .. وهم قد بدأوا الآن يشعرون بشيء من القلق وراء ما بلفتة دنياهم وحضارتهم من الارتفاع والتضخم والمغالاة فى التخصص أو فى الانتشار والتجميع ،

فأخذوا فى بطء وتردد يحاولون الالتفات إلى البيئة الطبيعية وإلى إمكان وواجب حماية ما بقى الآن منها لكى تصان حضارة الإنسان من الدمار والذوال وحتى تبقى سيطرة البشر على الطبيعة فى حدودها المناسبة لهم ، وفى هذا ما فيه من الغرور وخداع النظر والمطحية !... إذ يبدو أن ما يحتاج إليه البشر بعد ما عرفه علماءهم وباحثوهم حتى الآن من المعارف والعلوم الوضعية الطبيعية والكىماوية عن الكون هو أن يربطوا لبقاء البشرية ببقاء الكون نفسه من حيث إنهم وإن كانوا مادياً جزءاً ضئيلاً من الكائنات ، فإنهم — من حيث الفهم والذكاء والقدرة على الخيال والتصور والتذكر والمثابة والتركيز — جزء هام نافع قد يكون ثميناً للكون نفسه ، وذلك تقدير العليم للحكيم .

ثم إن وعى الأسمى بذاته ونفسه — على قوته الهائلة المتمكنة — يقبله ومن وضعف وعيه بإنسانيته ولوازمها من المشاعر العالية الراقية ، إذ يستلزم هذا الوعى من الفرد الشعور بضرورة احترام الإنسانية ومقوماته لامتثالها

واعترضه على تقييدها ورفضه لكل حجر على حريتها في
الاعتقاد والتفكير والتعبير العلني وحقه في اتصال الأفراد في
ذلك كله بعضها ببعض . هذه الحقوق في دستورها من لوازم
لوعي الإنساني ، وهي مرحلة ثمينة قد يرتقى إليها وعى
الأممي يوماً ما .. وقد أعلنت الجماعات الراهية هذه الحقوق
من أواخر القرن الثامن عشر ، لكنها لم تنجح في التزامها
والتقيد بها نجاحاً كاملاً ولا شبه كامل ، وقلنتها في ذلك
الجماعات التي في طريقها إلى التقدم ، وعجزت هي الأخرى
حتى الآن عن إتمامه بل عن المضي في إتمامه . لأن البشر
مكبلون بمعتقدات وعلاقات وروابط وتقاليد وعادات ومعتقدات
ممكنة منذ قرون عميقة الجذور في ذاكرتهم ، منتشرة متشعبة
في خيالهم وأفكارهم على مدى ماضيهم الطويل .. هذا
الماضي الذي يشعرون بقوة تأثيره في سلوكهم دون أن
يستطيعوا — بتحليله وفهمه — التخلص من غموضه !!

وقلما نلاحظ أن وعى كل منا ميل إلى الإضافة
أو الادعاء ، سواء فيما بينه وبين نفسه ، أو مع الآخرين ..
ربما لأن وظيقتى الوعى والعقل سابقتان دائماً للعمليات التى
تجرى فى كل منهما .. هذا ورقى عمليات الوعى مرتبط
ارتباطاً برقى العمليات العقلية .. وبسبب هذا الاشتراك إيجاباً
وسلباً ، يتحقق وصفنا له بالرقى تارة وبالمألوف تارة أخرى
وبالجهل وقلة التجربة طوراً ، وطوراً بالتخلف والغفلة ،
وأحياناً بالعتة !!

والبشر يتعايشون معاً دائماً هم وآباؤهم وأبنائهم بما
تصالحوا عليه ضمناً واعتادوه من وجود وعى وعقل عامين
مشتركين .. ولا يحول هذا القدر من الاشتراك القابل للنقص
والزيادة دون اختلاف أفرادهم — كثرة أو قلة — على درجة
الوعى الرافى أو درجة الوعى الجاهل قليل التجربة .. وهذا
الوعى المشترك بين أفراد جماعة قد يقارب أو يخالف نظيره
فى جماعات أخرى ، ويختلف بين الأجيال المختلفة فى نفس
الجماعة اختلافاً جزئياً أو كلياً تبعاً لدرجة تغييرها وتطورها ،

لكن لم تعد الجماعات البشرية فى العصر الحديث تكتفى بذلك
التصالح الضمنى المعتاد ، بل حاولت ما أمكنتها ظروفها ،
أن تحل محله نشر التعليم بكل درجاته أمام جميع الطبقات
وجميع الأعمار ، فخلقت بين أفرادها ما يسمى بالوعى العلمى
والأدبى والتاريخى والفنى والطبى والهنسى والاقتصادى
والاجتماعى ، فأوجدت بتلك الحركة الشاملة — دون أن تقصد —
فروقاً وانقسامات لا أول لها ولا آخر فى طموحات
ومساعى وأغراض وآمال وأحلام تلك الطوائف فى الجماعة
الواحدة ، وضاعفت بذلك صعوبة المحافظة فيها على السلام
والوئام ، وقللت فى الجماعة أسباب الاطمئنان على مستقبل
وحدتها وتقدمها . ويبدو أن هذا ومثله من حيث مخاوفه الحالية
والمستقبلية على الجماعات ، ليس جديداً .. فكم من نظام بشرى
الخلق واستبشروا بنجاحه وثماره ، عاد فى نهاية الأمر عليهم
بالمناعب والخسران ! وهذا طبيعى ومنتظر فى جنس قامت
حياته فى الماضى وتقوم الآن وستقوم فى المستقبل — على
الاحتمالات التى تصدق ولا تصدق ، ولا يستطيع بالتالى أن

يتجنب المجازفة إلا بأن ينحط إلى مراتب الأحياء الأخرى
الموجودة معه على هذه الأرض أو يفنى !

• • •

لعل وعينا كآدميين مؤسس كله على شعورنا
بالاحتمالات التي يرينا إياها وعينا ذاته مع الحواس والعقل
والنفائس لتعددنا ولنوع تصورنا لنتائجها الذي لا يصحبه في
الأعم الأغلب حساب ما يصحبها من جهود ومخاطر ، ولذلك
فإن مشكلة البشر الكبرى هي مشكلة ضرورة التعامل مع
احتمالات واختيارات بالغة التعدد والتنوع ، ولا مفر لنا على
النوام من مواجهتها في كل لحظة والتعرض لنتائج احتمالاتها
التي نختار من بينها ما نريده .. ونجائنا من مخاطر هذه
الاختيارات تتوقف دائماً على مقدار ما لدينا من العقل والتجربة
والعزم ، وعلى مقدار ما نصيبه أو تخطئه من التوفيق ..
وكلما زدنا من هذه زدينا أماناً ورقياً وابتعاداً عن الأزمات
والكوارث !

فمعظم البشر منذ خلقوا ضحايا لتقتهم العمياء فى
وعيههم غير البصير الذى تخدم فيه العقول الذليلة تلك
الاختيارات الضالة المضلة .. والعقول الذليلة دائماً أكثر من
الكثير ، والشهوات والرغبات المخدمة هى دائماً أقل عدداً من
العقول التى فى خدمتها أو المعروضة لخدمتها !

وظاهرة العقول الذليلة المنتشرة من قديم الزمان فى
كل جماعة بشرية متقدمة أو متأخرة ، ربما كان أساسها ظاهرة
الإذعان الغريزى لتصوير القوة الخارجية فى جماعات الحيوان
.. والذين يفتنون إلى وجود هذه الظاهرة فى الجماعة وإلى
تأثيرها أفراد قليلون أو كثيرون .. منهم من يقاومها ومنهم من
يستغلها وينتفع بها .. ونليل العقل لا يلبث حتى يشغله نجاحه
فى إرضاء مخدمه القوى فى نظره ويعتبر نفسه متفوقاً على
مخدمه فى التدبير والحيلة والذكاء .. وهكذا تتجاذب وتتعايش
الانحرافات والالتواءات داخل كل مجتمع ، ويبدو أن لذلك
التعايش والتجاذب نصيباً واضحاً فى تشكيل العلاقات
والمقامات بين الأفراد والرؤساء وبين مأموريهم ومرعوسيهـم

وحاشيتهم ، وبين القادة والزعماء والأثرياء وبين أتباعهم ،
وبين أرباب الأعمال وبين عملائهم وأجرائهم .. لأن الأكميين
حتى الآن وإلى مستقبل غير قريب لم ولن يفطنوا تماماً إلى أن
إنسانية الأكمى أعلى وأثمن من الإمارات والرئاسات
والقيادات والزعامات والثروات والملكيات !! .. وأن هذه
المزايا البشرية المحسوبة من القيم الاجتماعية فى طريقها إلى
الزوال إن اطرد بغير انتكاسات وتراجعات وردّات - ترقى
وتطور وعى الأكميين الحاليين !

إن وعينا حين يلتفت إلى حياة كل منا ، ويقارنها بعمر
وجود الأرض وعمر وجود الشمس - وهما أكثر الأجرام
صلة بوجودنا - يجد أننا مجرد هباءات جاءت فى لمحات
وتزول بزوالها ، لكن وعينا حين يرى أننا نعى ذلك الواقع
ونعى حجم الأرض والشمس ، ونعرف تقريبا عمرها المديد ،
ونعى كثيراً من أحوال سابقتها من الأحياء على الأرض خلال
مئات ملايين السنين ، كما نتوقع بعض ما ينتظر جنسنا فى
ضوء عقولنا ومعارفنا ، لا نكون مخطئين إذا رأينا ووثقنا فى

أن لدينا شيئاً ميزنا حتماً عن أجرام الكون وأعمارها وأحجامها
وطاقتها ، كما ميزنا عن بقية الأحياء التى عرفتها الأرض ما
انقرض منها وما بقى معنا !! فقد مَيَّزَ الآمميون بما لم تمتز به
الأجرام الهائلة التى نعرفها ولا الأحياء الأخرى الموجودة
أو التى كانت موجودة وانتشرت تباعاً من أحقاب لا تعد !

فلماذا ؟

لأن الحياة ميزت طريقها فى الوجود أو الإيجاد الحى فى
جنسنا ، فوسعت فينا إلى غير حد الاستعدادات والإمكانات غير
الحسية ، كالوعى والفهم والحفظ والبحث والذكاء والبصيرة ،
وتخطت نطاق أجسادنا المبنية على المركبات والعناصر المادية
التى لا يمكن أن تتجاوز إمكاناتها فى كل آنمى !!

ومصادر وعى الأنمى دائماً من خارجه .. إنه يولد
فارغ الوعى ، وينمو ويمتلئ وعيه بما يدخله من خارجه حتى
ولو كان يرفضه أو يبيغضه .. الرفض أو البغض أو المقت
لا يوقف الوعى .. لذلك فإن الأنمى يعى ما يدخله من خارجه

مع رفضه له ، ولأن وعى كل آدمى نتاج مجتمعه - فإن
حصيلة وعيه من الموضوعات والخبرات والمعلومات
والأحداث تأتيه من غيره ويتعريف غيره - حياً أو ميتاً
معروفاً لديه أو غير معروف ، وقد ساعد هذا على اتساع
الوعى من عمر إلى عمر ، ومن جيل إلى جيل ما لم تتحيط
البيئة فيندهور الحال !

ومجرد دخول الموضوع فى هذا الوعى أو ذاك ، يأخذ
دائماً خاصية وفردية صاحبه .. حتى عندما يتبين صاحبه
بطلانه ويعلن زيفه ، وذلك لأن ما يعيه الإنسان يمتزج بذاته
التي لا يمكن أن يشاركه فيها غيره !

وقد أدى اعتماد نمو الوعى على ما يدخل فيه من
خارجه إلى ضرورة وجود اللغات واتساعها مع اتساع
الجماعات وتعقيد مطالب أفرادها ومشاكلهم - تمكينا لهم من
التواصل والتفاهم والتعامل أو من الاختلاف والمنازعة
أو العداء !

وقد أدت اللغات من قديم الزمان إلى تكوين وحفظ
وتتمية وزيادة وتطوير المعارف والعلوم والفنون والآداب
والتواريخ التي معنا الآن ، ولم يخل منها كل جيل سابق ،
وما زالت اللغات وستبقى تؤدي دورها الأساسي بمزيد من
الرقى والتطوير وبمزيد من إيقاظ وعي البشر لإقباح مجالاته
ومبادئه واتجاهاته .. كل ذلك برغم ما نشاهده اليوم في معظم
المجتمعات من انتشار القلق والسمخ والفناء والتصل
والتمرد والفتن - وهو ما تتعرض له المجتمعات المتقدمة
أو الراجعة في التقدم - من وقت لآخر - كأثر من آثار
صعوبة المحافظة على استمرار التقدم .

والخطاب والتخاطب ظاهرتان لغويتان عند البشر ،
وهما ظاهرتان أساسيتان تتجهان وتتوجهان أولاً وأخيراً إلى
الوعي الأسمى ، تبدآن منه لتنفذاً منه إلى العواطف والميول
ولكى تعودا إليه لاحتضان جميع القرارات التي يقبل عليها
الأسمى أو يتخذها أو يقبلها .. كبيرة كانت أو صغيرة .. مهمة

أو غير مهمة على مدى ما يتخذها الأسمى منها فى حياته
بأسرها !

ووعينا يدرج إدراكاته إلى درجات أى ينزلها منازل
متدرجة ، على مقدار ما تبلغ إليه ثقته فيما يعيه بين واقع
وراجح وجائز ومحتمل ونادر ومحض صدفة أو حظ
ومستحيل ، وهو يوزع تقديراته وحسابات عقله - عادة -
على نطاق خبراته لما اعتاد حصوله فى الترتيب التنازلى لتلك
الدرجات البشرية التى لا نظير لها فى سائر الأحياء
الأخرى المحرومة من سعة الوعى الأسمى وعمقه .. وهذه
الدرجات الاصطلاحية لا يرجع وجودها وتقسيمها وكثرتها
أو ندرتها أو استحالتها إلى ناموس كونى ، وإنما يرجع فقط
إلى بشريتنا وخصائصها القابلة للتمدد والتقلص إلى أبعاد
قد يابى وعى جيلنا الحالى تصديقها فضلاً عن تصور إمكانها
فى مستقبل قريب أو بعيد !

فهرس الكتاب

م	البيرــــــــــــــــان	الصفحة
١	تنمية الأمان ، بغرس الإيمان	٧
٢	بين الخيال والتصور والظن	٤٣
٣	قوة الأعماق — أين !!	٧٣
٤	العمالة وصناعة النجوم !	١٠٩
٥	بل غياب العربية .. وفي غير مساحة القضاء !	١١٧
٦	حياة الآسمى بين عقله ومطالبه !	١٢٧
٧	النذرة والوفرة ، والاحتياج	١٣٥
٨	إرهاب من .. هذا الإرهاب !!!	١٥٥
٩	سياحة في داخل الإنسان	١٦٧
١٠	الآسمية وزحف التيه	١٧٣
١١	المعقولية بين آدم وحواء	١٨١
١٢	القراءة والمعرفة	١٨٩

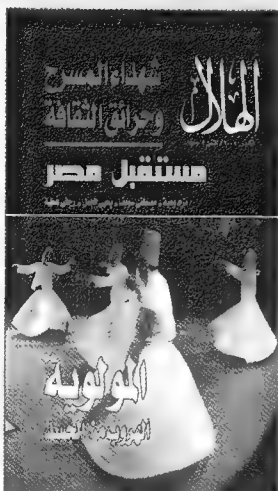
١٣	الحاضر وحفائر الماضي	١٩٧
١٤	القوة تلك المعشوقة المحيرة	٢٢٣
١٥	الإنسان والكون والحياة	٢٤١
١٦	الإنسان وأطوار الحياة ، والحضارات	٢٦٧
١٧	العزلة الغائرة في الحضارة الحالية	٢٩٣
١٨	اللغة والحياة والأحياء	٣٢١
١٩	صدق الاعتقاد .. فيم يكون ؟	٣٤٩
٢٠	نحن ، والذات .. والحياة !	٣٥٧
٢١	وعى الآسمى ، كيف وإلى أين ؟	٤٠٩

الفن الجميلات

عدد أكتوبر ٢٠٠٥

المثالي

مجلة الفكر والثقافة الأولى في مصر والعالم العربي



تقرأ في هذا العدد :

■ عن مأساة بنى سويف وحرائق الثقافة

■ مستقبل مصر كما يراه

مراد وهبة - مصطفى سويف

يحيى الجمل - رجائي عطية

■ حكايات رمضان في مصر المحروسة

■ جلال أمين يكتب عن أوردى سعد زهران

■ مفاجأة:

أفلام جديدة في «هلال المبدعين»

مجلس الإدارة

رئيس التحرير
مجدى الدقاق

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهاب

كتاب الهلال

يقدم:

شارع عماد الدين

حكايات الفن والنجوم

الفريد فرج

يصدر : ٥ نوفمبر ٢٠٠٥

روايات الهلال

تقدم:

دق الطبول

رؤية جديدة للأديب

المصرى الكبير

محمد البساطى

تصدر : ١٥ أكتوبر ٢٠٠٥

أحدث إصدارات كتب الهلال عامي ٢٠٠٤ ، ٢٠٠٥

اسم الكتاب	المؤلف	الشهر	السنة
المخطوطات الألفية كنوز مخفية	د. يوسف زيدان	أكتوبر	٢٠٠٤
التجاسس اليهودي والشخصية اليهودية	د. عبد الوهاب المسيري	نوفمبر	٢٠٠٤
مشيناهما خطى سيرة ذاتية،	د. رءوف عباس	ديسمبر	٢٠٠٤
القراءة الصهيونية للتاريخ الحروب الصليبية نموذجا	د. قاسم عبده قاسم	يناير	٢٠٠٥
الإسلام والدولة المدنية	د. عبدالمعطي محمد بيومي	فبراير	٢٠٠٥
فى أصول المسألة العضارية	د. أنور عبدالمك	مارس	٢٠٠٥
الجماعة الوطنية العزلة والاندماج	طارق البشرى	أبريل	٢٠٠٥
أرثر ميلر أهو المسرح الأمريكى	د. عبد العزيز حمودة	مايو	٢٠٠٥
مسيرتى ومصر نحو القرن الحادى والعشرين	د. مصطفى سويف	يونيه	٢٠٠٥
صدمة الأنترنت وأزمة المثقفين	د. أحمد صالح	يوليه	٢٠٠٥
أحمد حسنين أصرار السياسة والحب	محمود صلاح	أغسطس	٢٠٠٥
مصر والإصلاح المستوى	د. يونان لبيب رزق	سبتمبر	٢٠٠٥



جاء الساطري

د. شوقي ضيف



دار الفيل

رقم الايداع
٢٠٠٥ / ١٥٤٠٤

I.S.B.N

977 - 07 - 1156 - X

أشهر الحوادث والقضايا

الحوادث العنيفة والقضايا المثيرة
التي روعت الناس وصدمت المشاعر



محمود صلاح
أشهر الحوادث والقضايا



طلاق الملك أحمد فؤاد

أحداث الحزن

محمود صلاح

محمود صلاح
أشهر الحوادث والقضايا



صد مجهول

محمود صلاح
أشهر الحوادث والقضايا



صعدي في باريس

أحداث الحزن

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع ١٠٨١ شارع المنطقة
الصناعية بالمباسية - منافذ البيع ١٠١ - ١٦ شارع كامل صدقي القجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى
دوكسى مصر الجديدة - القاهرة ت ٢٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس ٢٥٩٦٦٥٠ - ٢٠٢ ج.م.ع -

هذا الكتاب

ما من آدمي إلا وهو مشدود إلى ذاته، يفكر من هو؟ وكيف كان؟ وإلام سيكون؟! ما موضعه في هذا الكون المعجز للإفهام؟ وما سبيله في هذه الحياة التي يأتيناها غير مخير ويغادرها في أجل محتوم؟! حول الإنسان ، والكون ، والحياة ،



رجائي عطية

تدور هذه الخواطر التي تشغل الأدمي العاقل حيث كان .. الإنسان مجهول إلى ذاته ، يريد بمعرفة نفسه أن يلتحم مع حاضره وأن يستشرف مستقبله ، وأن يكون لحياته معنى .. إن حياة الأحياء ومن بينها البشر ، نظام كوني إلهي جليل جداً يجمع بين شدة البساطة وشدة التعقيد والتركيب .. مهما بدا لنا من المعرفة والفطنة والذكاء ، فإننا لا نرى ما يحفل به الكون والحياة إلا من ثقب ضئيل جداً .. شديد الضالة ، ومن زاوية بالغة السطحية !

فهل نستطيع فهما أعمق للإنسان ، والكون ، حول هذا كله يدور هذا الكتاب للمفكر الأديب رجائي عطية الذي أثرى المكتبة العربية ، كما أثر: واحداً من أنبغ أعلامها - بعدد من المؤلفات وعلوم الكتاب والإسلاميات ، ومن أبرز مؤلفاته : د هدى النبوة ، عالمية الإسلام ، ماذا أقول لكم الوطن والحياة ، الإنسان العاقل وزاده الخيال النبوية في رحاب التنزيل في خمس مجلدات الموسوعية وراء الخواطر العميقة التي ساقه الكتاب حول الإنسان ، والكون ، والحياة.

Bibliotheca Alexandrina



0606697